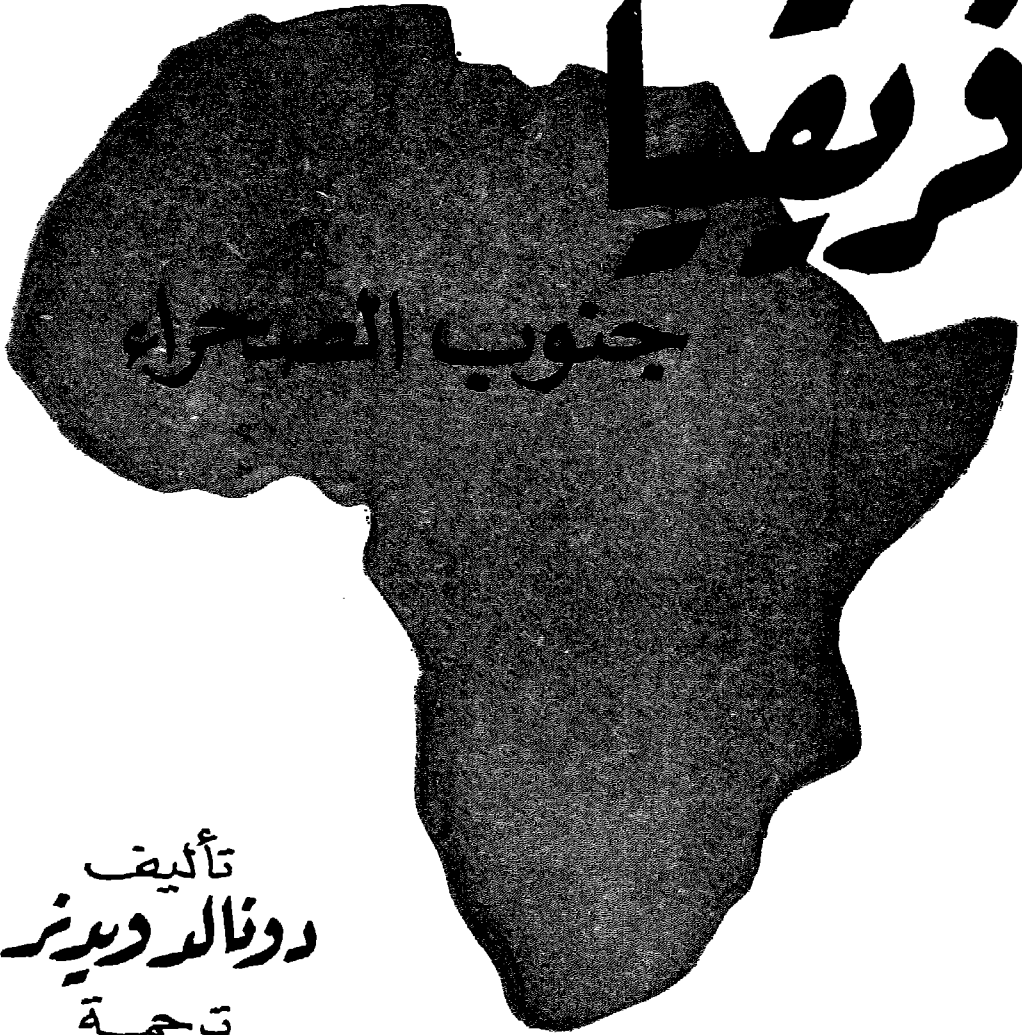


مجموعة الكتب المترجمة

# تاريخ أفريقيا



جنوب الصحراء

تأليف  
رونالد روبنر  
ترجمة  
الدكتور راشد البراوي

اهداءات ٢٠٠١

اد. محمود ديب

المستشفى الملكي المصري

# تاريخ أفريقيا جنوب الصحراء

تأليف

دونالد ويدنر

ترجمة

الدكتور رشيد البروي

الناشر

مكتبة الوحي العربي

• شارع كامل صدف بالمعجالة

Copyright © 1962 by Donald L. Wiedner  
A History of Africa : South of The Sahara  
Published by The Random House, New York

دار الجيل للطباعة ١٤ قصر النزلوة - الفيحالة  
تليفون ٩٠٥٢٩٦

## فهرس

- ٧ ١. — تمهيد  
١١ ٣. — خلفية الصورة

### الكتاب الأول

#### أفريقية القديمة

- ٣٧ ٣. — القبائل والإمبراطوريات  
٦٣ ٤. — إلى الرق  
٩٧ ٥. — ورطة العدالة  
١٢٥ ٦. — من بنت إلى الزنج  
١٤١ ٧. — إمبراطوريات ساحل أفريقية الشرقية  
١٥٧ ٨. — غزو جنوب أفريقية  
١٧١ ٩. — البوير والباتو والبريطانيون  
١٩٧ ١٠. — الهجرة الكبرى والجمهوريات

### الكتاب الثاني

#### أفريقية تصنع من جديد

- ٢١٩ ١١. — رسالة الحرية



مفتحة





## تمهيد

هل لإفريقية تاريخ ؟ يمكن القول بأن التاريخ يصنع حيناً وحيناً قد يعيش الإنسان ، وقد وجد الإنسان في إفريقية ، زمناً طويلاً ، شأنه في أى مكان آخر . ولقد جرى القول بأن التاريخ لا وجود له إلا حيث تتوافر لدينا من السجلات المكتوبة التماسكة والمخلفات الأثرية ما يكفي لتكوين نمط زمنى يمكن تفسيره . وكانت مصر ووادى النيل وشمال إفريقية ، موضع الاعتقاد طويلاً بأنها الأماكن التى لها مثل هذا التاريخ ، ولكن جنوبى تلك الأقاليم نادراً ما أزاحت الأدوات التقليدية الغطاء عن مصادر تحقق مثل هذا التماسك . وكان المعتقد أن ليس لإفريقية تاريخ سوى ما كتبه المكتشفون والمستعمرون من أهل حوض البحر المتوسط وأوربا فى الأزمنة الحديثة تماماً ، وأن الشعب الإفريقى لم يكن له تاريخ إلا بعد أن اتصل بالأوروبيين .

هذه النظرة تغيرت تغييراً جوهرياً بفضل الأساليب الحديثة والتطورات الحديثة فى الاتجاه إلى هذا الموضوع . لم تعد الوثائق والآثار بالمصادر الوحيدة التى تستقى منها المعرفة التاريخية ، وأخذت الأساليب البديلة تزودنا بمادة صحيحة كثيرة فى السنوات الحديثة ، بل وفى حالات عدة أدت الأساليب الجديدة إلى اكتشاف وثائق أو مخلفات إفريقية لولاها لما ظهرت أبداً .

إن البحث الذى لا يستخدم بالضرورة الوثائق أو الآثار ، أخذ ينمو على

نطاق واسع نتيجة استخدام المعرفة العلمية والنفسية في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين . وجاء تطبيقها على إفريقية ، في صورة علمى الأجناس والاجتماع ، متأخراً نسبياً ، ولكن اكتُشف أن الإفريقيين قد احتفظوا بتقليد عريض فى كل الأساطير العلمانية والدينية ، والكثير منها تركيبات خيالية أو تفسيرات لظواهر غير معروفة . والعادة أن أقرب الأساطير إلى التصديق ، تضع التأكيد على القوائم التى تتضمن أسماء الملوك والمبارك وربما الهجرات الكبرى ، وغالباً ما يتعرض تحديد تاريخ وقائع معينة للتضيق أو الحذف ، وغالباً ما يقع التبديل بطريقة تعسفية فى ترتيب الأسماء والأحداث . ويذهب الشكاك إلى أن الأساطير لاتعدو فى دقتها لعبة من الألعاب التى قوامها الحظ . ولكن هناك أساليب عدة يمكن بها تصحيح العناصر المضطربة فيها ، وفصل الأساطير الصحيحة عن الخيال . فإذا كانت الرواية الشفوية تسجل بوضوح أحداثاً وصفها أيضاً الكتاب الأوربيون أو العرب ، فمن المحتمل أن تصدق تفاصيل أخرى كثيرة فى الرواية ، ويمكن إثبات التواريخ . وأحياناً يساعد علم الآثار على إثبات صحة أسطورة . وهناك على الأقل رواية شفوية تضمنت تفاصيل عن كسوف الشمس منذ ٢٥٠ عاماً ، وهذا يطابق تماماً الحسابات الفلكية الأوربية . وفى بعض الحالات يجرى تعريف حقوق ملكية الأرض ، قروناً ، وصحة هذه الذكريات ذات أهمية حيوية لكل جيل بحيث يكاد يستحيل أن تكون فيها أخطاء كبرى . وغالباً ما يستمع الى الرواية ويصحح روايته غيره . من رجال القبيلة بمن يعرفونها أيضاً . وقد تكون أساطير قبيلة ما مشابهة-

الأساطير جماعة أخرى ، ولكن هذا الضرب ، من الدليل ليس فاطما بسبب  
إمكانية الافتراض . لكن مثل هذه الأساطير تحتفظ عادة بمكان ثم عن نشأتها  
وانتقالها وأحيانا عبر مسافات كبيرة أو بطريق الوسطاء وهذه المعاني في حد  
ذاتها ظاهرة تاريخية لها أهميتها .

وتم عدد من الروايات والأخبار لها قيمتها القصوى — وبعضها كتبه  
الرحالة أو العلماء العرب ، وقلة منها كتبها الأفريقيون الزوج باللغة العربية —  
وهذه تلقى الضوء على أحداث جرت في أجزاء من إفريقية الشرقية والغربية  
جنوبي الصحراء الكبرى ، قد يرجع تاريخها في بعض الحالات إلى أكثر من  
عشرة قرون قبل وصول الأوربيين في العصر الحديث .

لذلك فإن لإفريقية تاريخاً خاصاً بها . ويمكن أيضاً توسيع نطاق الخبر  
واختباره باستخدام روايات الرحالة والفاتحين والتجار من البلاد التي طورت  
فن الاحتفاظ بالسجلات ، ومن المزيج الفريد من المصادر التاريخية الإفريقية تبرز  
عدة موضوعات متكررة . وعلى ضوء هذه الخلفية من التنظيم القبلي والثقافة  
القبلية ، يجب أن يبحث المؤرخ النمو المحلي ، من سياسى واقتصادى وجغرافى  
وثقافى ودينى . هذه المجتمعات ، وإن ظلت تواصل هذه العمليات ، تبدأ أيضاً  
في التفاعل مع المؤثرات التكنولوجية والتنظيمية الأوربية ، ثم يزداد الإفريقيون  
من أبناء القارة وأوروبا ، بوصفهم جزءاً من العالم الحديث ، في الاتصال بعضهم  
ببعض وبالعالم الخارجى ، بينما يعمل الجانبيان على أن تتلاصق تقاليدهم التاريخية  
المتغيرة مع البيئة والظروف السائدة . إن التجانس في إفريقية لا يزيد أو ينقص  
عنه في أوروبا أو أمريكا . ولا ينبغي أن يكون من الضرورى فرض وحدة

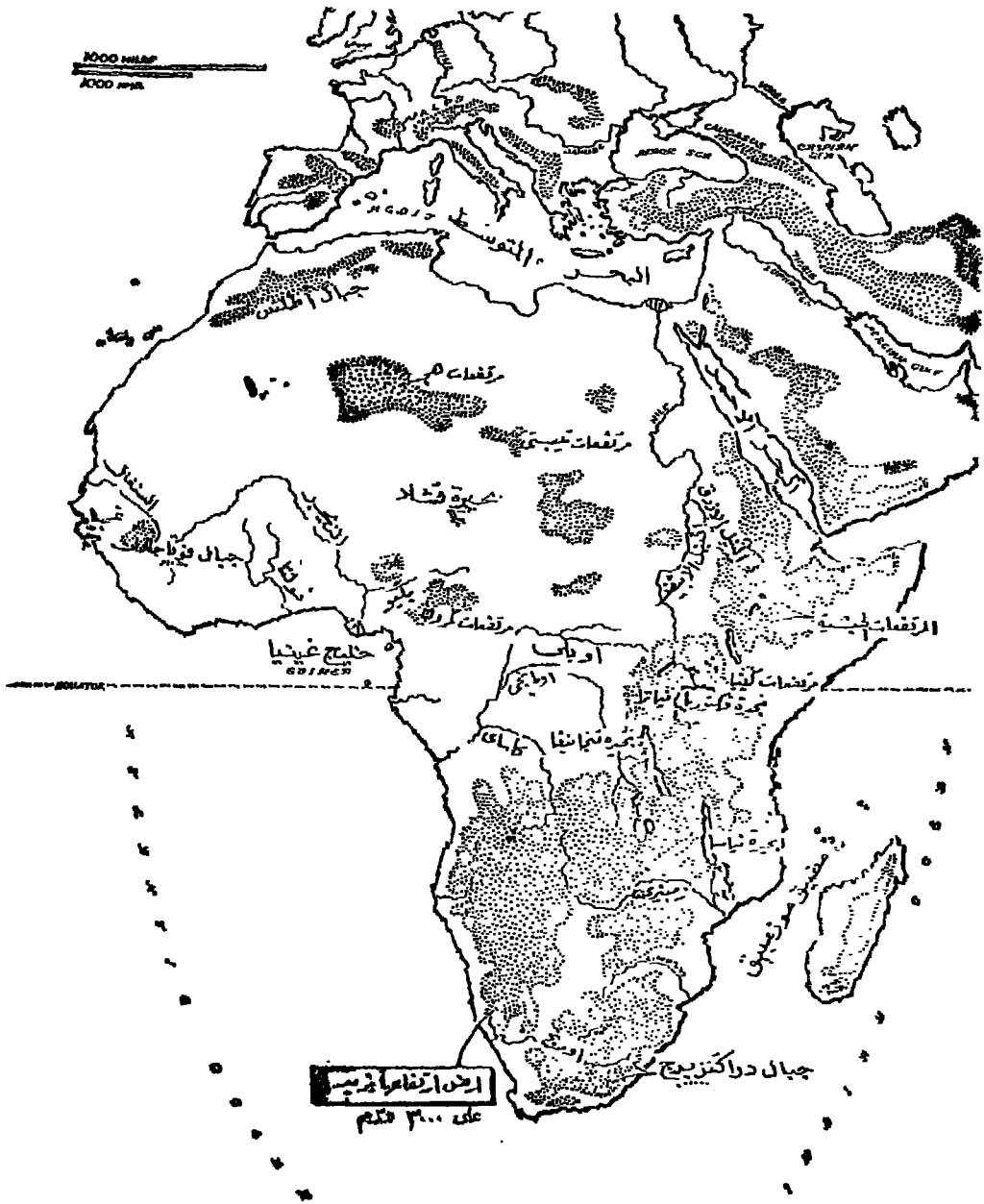
اصطناعية من أجل تبرير دراسة منطقة كبيرة نسبياً . إن في الإمكان عن طريق الاستعراض العام ، دراسة التنوع فضلاً عن التشابه .

لقد كان ساحل إفريقية المطل على البحر المتوسط والذي يتركز حول مصر ولكنه يمتد مع الإسلام غرباً إلى مضيق جبل طارق ، موضوعاً يعرفه القراء والمؤرخون الغربيون ، وكانت إفريقية جنوبي الصحراء غير معروفة بالفعل لأية حضارة في العصور القديمة أو الوسطى باستثناء الحضارة العربية . ولهذا نادراً ما توافر الاهتمام الكثير بالأقاليم الواقعة جنوب الصحراء ، وراء المجرى الرئيسي لنهر النيل وجنوب مرتفعات إثيوبيا . وبذلك فإن هذا الجزء من إفريقية ، وليس المنطقة الجغرافية بأسرها ، هو أنسب وحدة يوجه إليها النظر في الوقت الحاضر .

## خلفية الصورة

إلى الجنوب من الصحراء الكبرى ، تلك الصحراء الفسيحة الأرجاء التي تمتد في شمال أفريقية لا تلقى المظهر الغالب هو الجبل أو الدغل الذي يثير الخيال ، وإنما هو البطاح الشاسعة التي تتكون من أرض تكسوها الحشائش وتتخللها بصورة غير منتظمة الأشجار ، أو ينساب فيها عرضاً نهر بطيء الجريان . هذه الأرض المغطاة بالحشائش تشبه إقليم البراري البكر الذي يمتد بين تكساس وولاية داكوتا ، وإن تكن في العادة أكثر دفئاً وأشد جفافاً معظم السنة . ويشكل سقوط المطر في أفريقية مشكلة خاصة لأنه يتركز عادة في فصل واحد من السنة ، وغالباً ما لا يكفي لسد المطالب المفروضة على الأرض ، وليس من قارة غير أستراليا تقل فيها الجبال والمرتفعات كما في إفريقية ، كما أن أمريكا الجنوبية وجنوب آسيا يضمان من الغابات الاستوائية المطيرة التي جرى العرف على إطلاق اسم « الأحراش » عليها أكثر مما يجده منها في أفريقية .

وتبلغ مساحة أفريقية حوالى ١١,٦٠٠,٠٠٠ ميل مربع يكاد و٥,٠٠٠,٠٠٠ منها أن يقع في الصحراء الكبرى على امتداد البحر المتوسط ومن الباقى ، وقدره ٦,٦٠٠,٠٠٠ ميل مربع جنوبى الصحراء الكبرى ( أى ما يعادل ضعف مساحة الولايات المتحدة ) نجد حوالى ٢٠ فى المائة عبارة عن غابات استوائية مطيرة حيث المطر أغزر والنبات أشد كثافة مما فى جنوب شرقى الولايات المتحدة ، أما النسبة الباقية وهى ٨٠ فى المائة فى ذلك القسم من إفريقية الواقع جنوبى

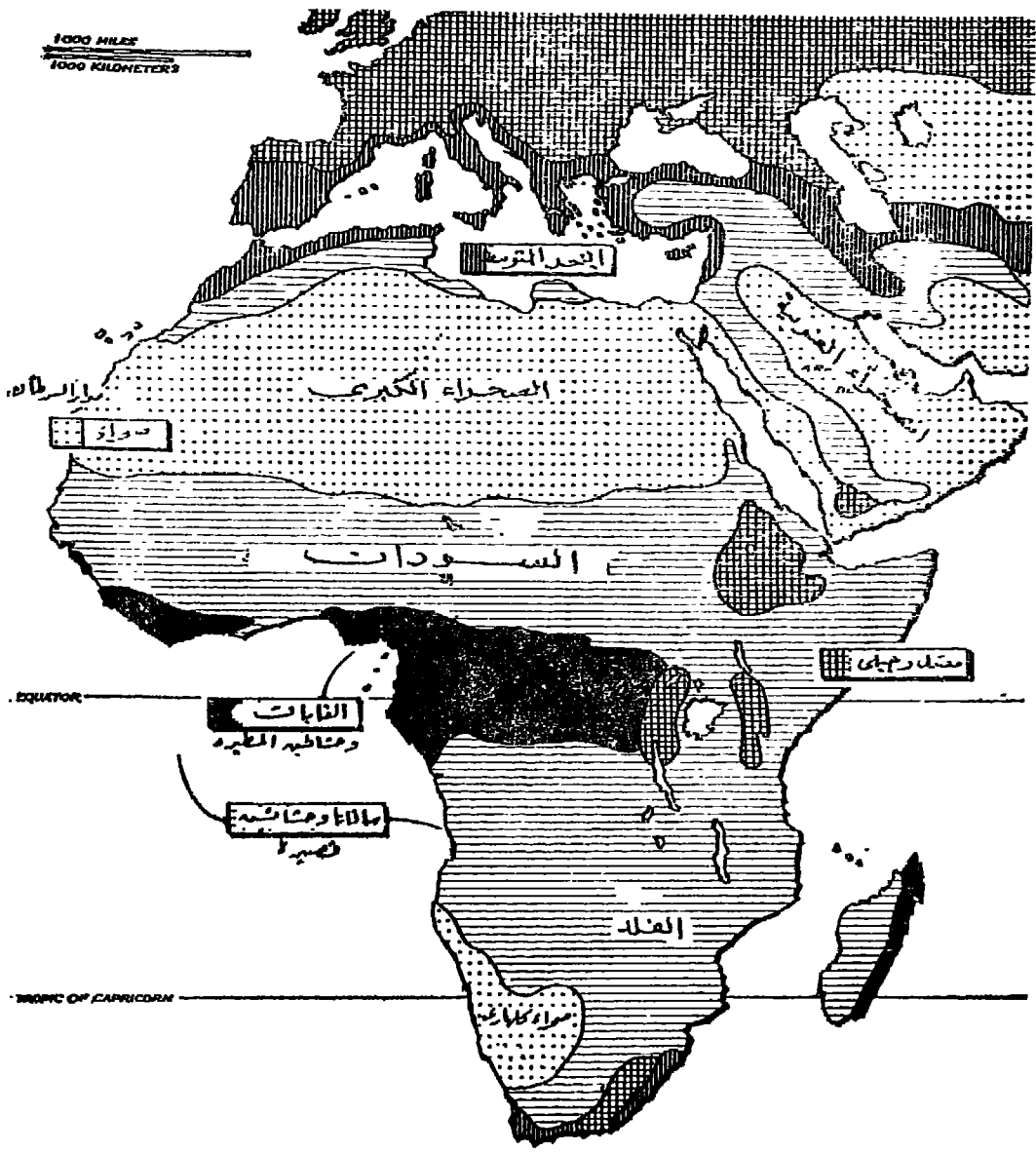


**تضاريس أفريقيا**

الصحراء الكبرى ، فيقل فيها المطر عنه في ميامي بولاية فلوريدا . إذا استثنينا الصحراء الكبرى نفسها فليس ثمة جزء في إفريقية يسجل درجات من الحرارة تبلغ في الارتفاع مثيلاتها في شرق الولايات المتحدة ، ولكن جبال جنوب إفريقية وحدها هي التي تصل فيها درجة البرودة في الشتاء إلى مثلها في واشنطن بمقاطعة كولمبيا. وإذا استثنينا الغابة المطيرة ، فإن مدى التفاوت في مناخ إفريقية يقارن على العموم بالمدى السائد في المنطقة الممتدة عبر تكساس من لويزيانا إلى نيومكسيكو .

ويتراوح مناخ شمال إفريقية على امتداد ساحل البحر المتوسط بين المناخ شبه الاستوائي والمعتدل حسب درجة الارتفاع . وواضح ما يميزه عن مناخ الشاطئ الأوروبي من البحر المتوسط أنه أشد جفافاً بدرجة طفيفة، وأنه باستثناء مراکش والجزائر يتحول بسرعة إلى الأوضاح المناخية الصحراوية . والصحراء الكبرى أميل إلى أن تكون صخرية منها رملية ولهذا تضم عدة منابع مائية هامة يمكن الاعتماد عليها ، أو واحات تبرز من تلك المساحة ذات المعالم المتنوعة ، والبالغ مساحتها أربعة ملايين ميل مربع ، ولا تتخللها في أية نقطة منها تضاريس ذات شأن فيما عدا نهر النيل الصالح الملاحة إلى حد كبير ، والذي يشكل مورداً أصلياً للرى .

وإلى الجيوب من الصحراء الكبرى يبدأ إقليم السافانا حيث يمكن الإبقاء على الزراعة الجافة . وتزداد حشائش السافانا غزارة وارتفاعاً إلى أن تنتقل فجأة إلى الحد الذي تبدأ عنده الغابات المطيرة في الغرب والوسط . وفيما بين الغابات المطيرة والمرتفعات الأثيوبية يكون النيل مستنقعات كثيرة ، ينمو بها ورق



مناخ افريقيّة



البردى وتعرف باسم « السود ». وإذا ابتعدنا في اتجاه أعلى النيل ألقيناه يمس الحافة الشرقية للغابة المطيرة، ويأتى بنوع من السافانا يمتد حتى إفريقية الاستوائية والبحيرات الإفريقية العظمى، وفي اتجاه الغرب وعلى امتداد نهر الكونغو وساحل المحيط الأطلسي تجد الغابات المطيرة، وفي الشرق مرتفعات كينيا ذات المناخ المعتدل، والبطاح المحيطة بها. وفي الجنوب الشرقى شجيرات مدارية جافة؛ وئمة شريط من الأرض انخلاء يواصل امتداده مخترقاً وسط القارة حتى جنوب إفريقية حيث يأخذ في الاتساع مكوناً المرج « veld » الذى هو بدوره أرض مغطاة بالخشائش شبيهة تماماً بالسافانا الشمالية. ويضم جنوب إفريقية أيضاً سلسلة من المرتفعات الساحلية تلتقى وراءها بجوار المحيط مناخاً يعرف باسم « رأس البحر المتوسط » لأنه شبيه بمناخ الريفييرا، وهناك صحارى مجدية ومحدودة المساحة شرق كينيا في « قرن » الصومال وشمالي إقليم رأس الرجاء الصالح.

وبالرغم من أن معظم إفريقية جنوب الصحراء الكبرى يتميز هكذا بمناخ يغلب عليه التجانس إلى حد ما، فإن هناك مساحة محدودة من الغابات المطيرة تقسم بالتفاوت الذى يثير النظر من حيث المطر والنبات. وفي ثلاثة أرباع هذه المساحة التى يقال لها « الأحرش » يتراوح متوسط المطر السنوى بين ٧٠٥ و ٧٨٠ بوصة فى المتوسط مقابل ٦٧ و ٦١ فى موبيل بولاية ألاباما، أما فى الربع الباقى من منطقة الغابات المطيرة أى حوالى ٥ فى المائة من المساحة الواقعة جنوب الصحراء — فإن المتوسط يتراوح بين ٧٨ و ٧٠ بوصة وما يقرب من ٤٠٠ بوصة. مثل هذا المطر الغزير يسقط فى ثلاث مناطق وهى (١) أجزاء من غينيا وسيراليون وليبيريا وساحل العاج (٢) وحوض الكونغو الأوسط (٣) ودلتا النيجر وساحل

الكمرن ، أما الحزام الذى يبلغ متوسط المطر فيه ٢٠٠ — ٤٠٠ بوصة ، فلا يوجد إلا على منحدرات جبل كرون .

والنبات كثيف فى الغابات المطيرة، وتختلف اختلافاً بالغا طبيعة ورق الشجر والأشجار الكبرى من حيث النمط والدوام ، ولكن هذه الخواص تنمشى منطقياً تماماً مع كمية المطر، فلو كثر المطر لكان معظم حوض الكونغو والإقليم الذى يليه إلى الجنوب مباشرة غابة مطيرة ولكننا بدلا من هذا نجد غابة جافة تنمو بها الأشجار الكثيفة فى أوراقها، فتحول المنطقة إلى مسافات تغطيها الحشائش . وعلى طول الساحل الجنوبي الشرقى ( موزمبيق و ناتال ) مساحات متفرقة ينمو بها نبات غابات الأمطار ، وهذه الظاهرة ترجع إلى المطر الذى يسقط بانتظام على مدار السنة أكثر مما ترجع إلى سقوط كمية بالغة من المطر .

وإذا استثنينا الساحل الجنوبي الشرقى فإن شهور المطر فى أفريقية واضحة يمكن التنبؤ بها . وهناك نمط متصل من التغير فى هذه الفصول من الشمال إلى الجنوب ، ولا توجد أية مسالك واضحة للعواصف بين المنطقتين المعتدلتين عند البحر المتوسط ورأس الرجاء الصالح فيما عدا موزمبيق أيضاً التى تقع على حافة حزام من العواصف المدارية .

وتعزى الحدود السياسية إلى عوامل تاريخية معقدة ، وبغاباً ما كانت تصفية أكثر مما تعزى إلى العوامل الجغرافية ؛ ولكن العوامل الجغرافية هى التى حددت حوت فعلا طرق المواصلات والتجارة إلى أن جعلت القوة الأوربية السياسية والتكنولوجية فى الإمكان تحدى الطبيعة .

وهناك ثلاثة أنهار كبرى وهى النيل والنيجر والكوتفوتسكاد أن تكون أهميتها للدلاحة مثلما كانت عليه ، ولكن فائدتها للنقل محدودة بسبب العوائق المختلفة فى الشلالات والجنادل والحواجز الرملية والتعلبات الفصلية فى كميات مياهها ، أما الأنهار الأصغر شأنًا مثل شيريه وفولتا والسفال وغينيا فنادرًا ما استخدمت حتى الأزمنة الحديثة .

وينتشر السكان فى جميع إفريقيا الغربية والشرقية والوسطى والجنوبية ، كما نلقى بعضهم متفرقين عبر الصحراء الكبرى ، ولكننا نجد أشد تركيز السكان على طول ساحل إفريقيا الغربية بين نهري السنغال والسكرورون ، ويزداد كثافة بنوع خاص فى دلتا النيجر ونيجيريا الشمالية والإقليم المتاخم للبحر من دلتا النيجر ونيجيريا الشمالية والإقليم المتاخم للبحر من غانة وحول البحيرات العظمى وعلى طول سكة حديد كينيا — أوغندا ، ولكن السكان أشد تركيزًا فى رواندا — أورووندى وفى الأجزاء الشرقية والجنوبية من روديسيا الجنوبية وجمهورية جنوب أفريقيا . هذه المناطق الأشد ازدحامًا بالسكان يمكن مقارنتها بوجه عام بتغيرات الكثافة السكانية فى داخل فرنسا أو بولندا أو فرجينيا ، ولكن فى المنطقة الأعظم مساحة والممتدة جنوب الصحراء الكبرى ، يتفرق السكان شأنهم فى شمال السويد أو فى السهول الأمريكية .

وعظم انتشار توزيع السكان الإفريقيين تطور حديث النشأة تمامًا إذ من المرجح أن أعظم تركيز سكاني منذ خمسمائة عام خلت كان حول مناطق النيجر والبحيرات العظمى الاستوائية . ويبدو أن سواحل إفريقيا وأجزاءها الجنوبية كانت قليلة السكان . ومن المحتمل أن الأجزاء الجنوبية والوسطى من الصحراء

الكبرى كانت في الأزمنة القديمة أشد أجزاء القارة ازدهاماً بالسكان ، والذين كانوا يقعون في الجهات التي يطلق عليها في الوقت الحاضر اسم السافانا والغابات . ولذلك شهدت الصحراء أقدم تاريخ في إفريقية ، وبعد ذلك ينتقل الاهتمام إلى سافانا النيجر ، وشواطئ بحيرة فكتوريا .

وبدل عدد من الكشوف الحديثة على أن الجنس البشري ربما نشأ في إفريقية . ويبدو أن أقدم النماذج كانت أشد شبهاً من ناحية المظهر والسلوك بالبوشمن والأقزام الحديثين والسكان الأصليين في أستراليا . ولايستطيع العلماء الاتفاق على ما إذا كان القوقازيون والزنوج الحديثون من سلالة تلك النماذج الأصلية ، أو أنهم تطوروا على نهج مماثل<sup>(١)</sup> ولكن يبدو من المحتمل أن نماذج البوشمن كانت منتشرة من جنوب إفريقية عبر إفريقية الشرقية إلى أثيوبيا ، بينما تسرب الأقزام من كينيا الغربية عن طريق الكونغو والغابات المطيرة الساحلية بإفريقية الغربية ، وامتص العنصران الأخيران الأجناس شبه الأسترالية ولكن البقية هاجرت عن طريق آسيا إلى أستراليا والإقيانوسية<sup>(٢)</sup> .

(١) أنظر مؤلفات :

L.S.B. Leaky ; Adam's Ancestors ( 4th ed. ) London 1953

تقرير مؤتمر المعهد الملكي للأنثروبولوجيا

Early Human Remains in East Africa ( Cambridge, 1933 ) ; Proceeding of the 1st Pan-African Congress on Pre-History, Oxford, 1952.

(٢) تناقش سونيا كول Sonia Cole تقديرات هذه النظريات والنظريات التالية في

كتابها ( Harmoudsworth, 1954 ) The Prehistory of East Africa.

وهنرييت اليمين Harriette Alimen في ( لندن ١٩٥٧ ) The Prehistory of Africa.

وبدأت الأنواع القوقازية تظهر أيضاً في غرب كينيا وهم يعرفون بأسماء مختلفة منهم الكبسيون والكوشيون الأوائل أو الحاميون الأوائل ، ولكن ليس ثمة اتفاق على ما إذا كانت هذه سلالة تطورت من الأسلاف البوشمن أو أنها سلالة أخرى مستقلة . والمعتقد أن هؤلاء القوم هاجروا نحو الشمال الشرقى إلى بلاد العرب وآسيا الغربية ، كما هاجروا نحو الشمال الغربى أيضاً إلى مصر وشمال إفريقيا .

وقد أوحى العلماء الحديثون ( وأشهرهم جوزيف ، جرينبرج )<sup>(١)</sup> أن لفظ كوشى ينطبق على هذا الجنس القوقازى الأصيل وأن لغتهم الأساسية تدعى الأفرو — آسيوية ( الحامية سابقاً ) وبذلك يكون البوشمن اسماً لجنس آخر تعرف لغته باسم خويسان . ولا يعرف على وجه التحديد شئ عن لغة الأقزام ، لأن هذا الجنس اتخذ تماماً لغات الأجناس التى غزته فيما بعد .

وكان أصل الزنوج أعظم لغز ، فقبل إنهم فرع من الكوشية أو إنهم نتاج امتزاج الكوشيين بالبوشمن أو الأقزام ، أما النظريات التى كانت تربطهم بزنوج الهند أو إندونيسيا والذين هاجروا بطريقة خفية دون أن يخلفوا وراءهم أى دليل لنظريات فلم تعد موضع القبول الآن .

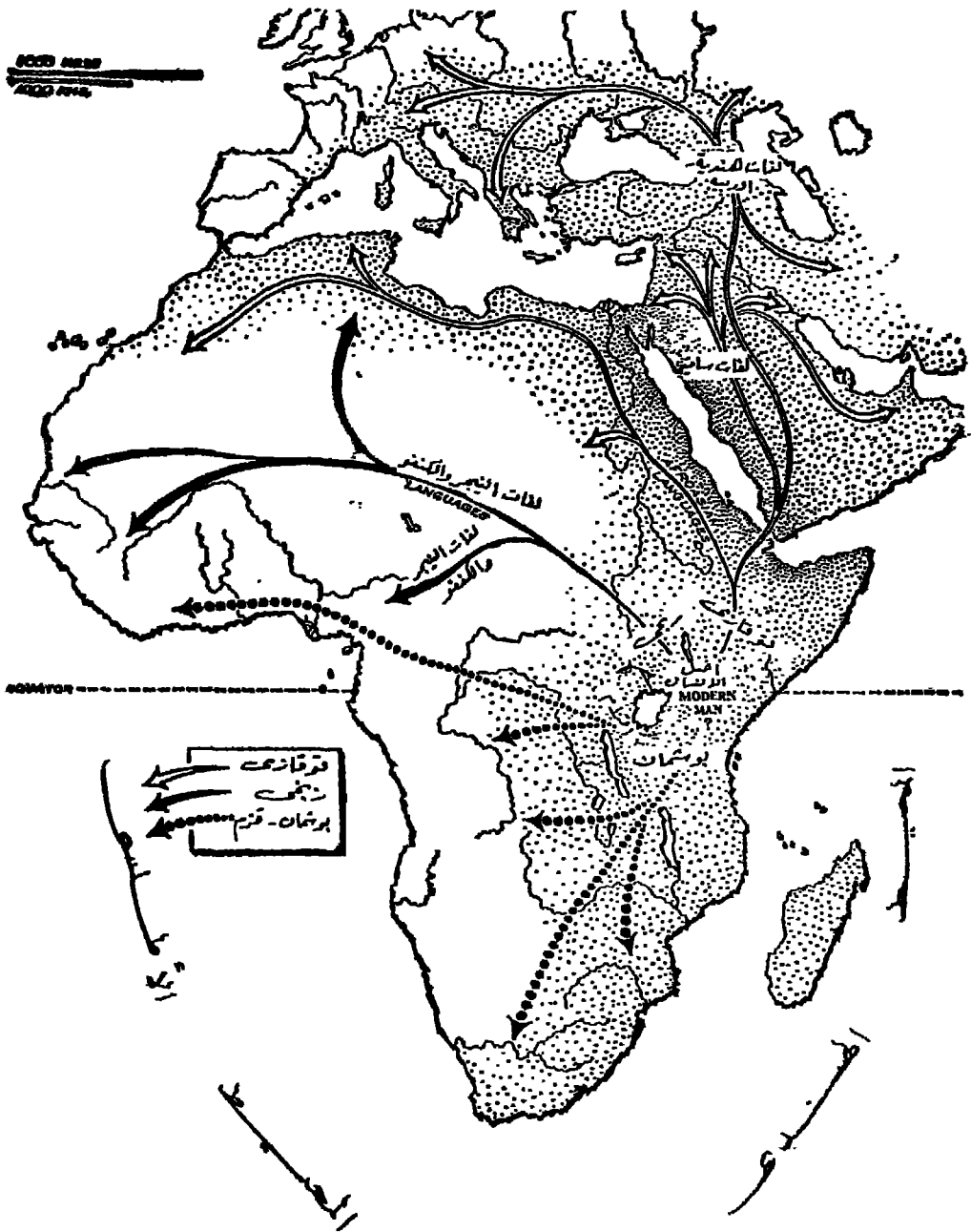
وتحديد الزمن الذى حدثت فيه هذه التطورات فى عصر ما قبل التاريخ

---

Joseph H. Greenberg : Studies in African Classifications (١)

( نيوهافن ١٩٥٥ ، ص ٥٤ — ٥٥ ) .

أما الخلاصة الأقدم عهداً والتى فندها C. G. Seligman فى كتابه Races of Africa فأصبحت بالية .



الأجناس في أفريقيا قبل عام ٣٠٠ ق م (افتراضية)

هو بالضرورة تحديد تقريبي ونسبي إلى أن تجرى أى أبحاث جديدة حول الموضوع ، ولكن يظهر أن الكوشيين والبوشمن والأقزام كانوا متميزين تماماً عن بعضهم بعضاً قبل عام ١٠.٠٠٠ قبل الميلاد (٢) والكوشيين الذين كانوا يكتسبون خواص قوقازية دخلوا مصر حوالى ٥٠٠٠ ق.م ، ولكن (٣) الزنوج لا يمكن تمييزهم قبل سنة ٦٠٠٠ ق.م ( بل وسنة ٤٠٠٠ ق.م كما أوحى البعض ) . وعندما ظهروا بالفعل كانوا فى الصحراء الكبرى بعيدين عن منطقة الغابات المطيرة ولكن دون أن يتاخروا البحر المتوسط وينتشروا من النيل إلى المحيط الأطلسى تقريباً ، وأفضل حدس لا تدعمه إلا أدلة ضئيلة يذهب إلى أنه يبدو أن الزنوج كانوا فرقاً من الكوشيين المقيمين فى أعلى النيل على قرب العديد من كينيا ، وأنهم انتشروا بسرعة فى اتجاه الغرب . ويقدر ما يستطيع أن يطالعنا به العلماء فإن احتلال الصحراء الكبرى الأولى ، تم على أيدي أشباه الزنوج الذين سرعان ما غلبوا على المنطقة كلها ، وكان معظمهم يتكلم لغات النيجر والكونغو المعروفة سابقاً ( بالنيجرية ) .

وبذلك يبدو أن الجماعات الأربع العنصرية واللغوية الأساسية فى إفريقية نشأت داخل منطقة قطرها ٢٥٠ ميلاً من بحيرة فكتوريا وإن لم يكن معروفاً أنهم يفتنون إلى أصل واحد ، والواضح تماماً أن التوزيع الجغرافى حوالى سنة ٤٠٠٠ ق.م كان على النحو الآتى تقريباً : البوشمن فى جنوب وشرق إفريقيا ، الأقزام فى الغابات المطيرة ، ومعظم الغابات الجافة جماعات من القوقازيين على طول الشاطئ الإفريقى والأسبوى للبحر الأحمر وغير الإقليم الساحلى الشمالى لإفريقيا حتى المحيط الأطلسى (مراكش) . وانتشرت جماعات قوقازية من بلاد العرب متخرقة أرض الجزيرة إلى أوروبا وآسيا الوسطى ، والزنوج فى الصحراء الكبرى

والسافانا شمال الغابات المطيرة . ويبدو أن التقسيمات اللغوية كانت شبيهة بالخطوط العنصرية فقد تفرعت من القوقازيين والأفرو-آسيويين خمس مجموعات لغوية فرعية، وهي السامية في بلاد العرب وما بين النهرين، والبربرية على طول الساحل الشمالي الغربي من إفريقية، والمصرية القديمة والشاوية في الصحراء الكبرى، والكوشية المبكرة في أثيوبيا . وبدأت تظهر تقسيمات النيجر-كونغو، وأكبرها شأنًا ماندى أو ماندنجو (غرب الصحراء الكبرى) النجيرية الشرقية أو أداما الشرقية (شرق الصحراء) والباتوية، وتعرف أيضاً باسم النجيرية الوسطى، أو شبه الباتوية (جنوب شرقي نيجريا ومرتفعات الكمرن) . ويبدو أن الزنوج في وادي النيل ابتدعوا أسرة لغوية متميزة تماماً يقال لها السودانية، وربما كانت هذه مرتكزة على امتزاج لغات الشعوب النيوليتية أو أنها لغة انشقت في تاريخ مبكر من أسرة اللغة النجيرية .

من الصعب أن نكون أكثر دقة نظراً لأن الذين كانوا يتكلمون بالسودانية كانوا يتزحزون بصورة متكررة. بفعل غزوات المصريين القدماء والأثيوبيين الكوشيين والزنوج ممن يتكلمون النجيرية الشرقية قبل عام ١٠٠٠ ق . م . وزاد الاضطراب بعد ذلك بسبب الغزوات التي شنّها المصريون الساميون وأهل النجيرية الشرقية وغيرها من مختلف جماعات تجار الرقيق وثمة مجموعات لغوية أخرى ليست واسعة الانتشار أو حات تحليلاً جيداً نلقاها في القسم الشرقي من الصحراء الكبرى ووادي النيل، ولكن بقية إفريقية اليوم يقطنه قوم يتكلمون اللغات الأفروآسيوية أو النيجر-الكونغو أو الخوسية.

ويبدو أن أربع جماعات بشرية في العالم منمزلة بعضها عن بعض ابتدعت:



فما بين عامي ٨٠٠٠ و ٤٠٠٠ ق.م أساليب زراعية ثابتة . هناك اختلاف زمني بالغ بين هذه المواطن الباكورة ، ولكن ليس من دليل على قيام اتصال بين أي اثنين منها وما كان في مقدور أية جماعات أخرى أن تنقل هذه المعرفة . فضلا عن هذا فالمحاصيل التي كانت تزرعها كل من هذه الجماعات وأساليبها وتنظيمها الاجتماعي تستبعد وجود اتصال بينهما أو نقل من واحدة إلى أخرى. وربما كانت التطورات المتميزة الأربع كالاتي (١) الفرع السامي من القوقازيين الذين يتكلمون اللغة الأفرو-أسيوية في وادي الأردن أو دجلة (٢) الطراز المغولي في شرق آسيا (٣) الهنود الأمريكيون بين المكسيك وبيرو (٤) وزنوج ماندى المقيمون في السافانا الإفريقية على طول المجارى العليا لنهر النيجر بين الغابات المطيرة والصحراء الكبرى . ومن المحتمل أن مصر القديمة تعلمت زراعة المحاصيل من الأردن والعراق بينما انتشرت الأساليب الزنجية بالتدرج نحو الشرق من النيجر الأوسط إلى وادي النيل الأعلى . ثم منحت ثقافات الهلال الخصيب والزنوج — وهو أول اتصال بين الثقافات الكبرى في تاريخ الإنسان — ولكن ترتب على ذلك أن كان من الصعب فصل الإنجازات التي حققتها ثقافة ما عن غيرها .

ولقد درج الظن بأن الإبحاز الزنجي كان نتيجة انتقال أفكار أهل بلاد الجزيرة إلى زنوج السافانا عن طريق مصر والنيل ، ولكن التاريخ الكريوني والأدلة الأركيولوجية توحى بوجود بدايات منفصلة ( ٥٠٠٠ ق.م في الفردون وقبل ٤٠٠٠ ق.م في إفريقية ) ولكن لم يحدث اتصال بين الاثنين في مصر إلا في تاريخ متأخر عن هذا بكثير .

إن تحديد الزمن الذي حدثت فيه هذه التطورات ومن ثم تحديد موقع هذه الثقافات وأهميتها النسبية والعلاقة السببية بينها — هذه كلها أمور لا تزال محتمل الشك . وأقوى حجة في تأييد النظرية السابقة تستند إلى الأسس الأنتروبولوجية واللغوية التي اكتشفها جوركايتز موردوك، ولكن كريستوفر ريجلي أجاب بحجة مقابلة تفيد تأكيد أهمية الزراعة الفلسطينية ، وتجعل مكان الزراعة والزواج الأوائل على طول وادي النيل .

واستند رولان بورشير إلى وجهة النظر النباتية، فاعتبر أن الإفريقيين اخترعوا الزراعة بطريقة مستقلة عن غيرهم ، ولكنه يجعل ظهورها في تاريخ متأخر هو ١٥٠٠ ق . م . وبعد أن استعرض و . فينج هذه التفسيرات من وجهة النظر التاريخية أيد التواريخ التي حددها بورشير ، وينسب الفضل إلى الزوج المقيم على السواحل أو في حوض النيجر الأوسط بدلا من الماندي<sup>(١)</sup> .

ومن المتفق عليه أن الزوج أوجدوا في تاريخ مبكر أنواعا عدة من الحبوب ( بما فيها الشكل الأسامي من السرغون وعدة أنواع مسن الدخن

---

George Peter Murdock : Africa, Its Peoples and their Culture (١)

( نيويورك ، ١٩٥٩ ، ص ٤٠ — ٤٥ ، ٦٤ — ٧٠ )

Christopher Wrigley : Speculation on the Economic Prehistory of Africa

( مجلة التاريخ الأفريقي ج ١ رقم ٢ ص ١٨٩ — ٢٠٢ )

Roland Porteres : Vieilles Agricultures de l'Afrique intertropicale ( L' Agromic Tropicale, vol V' 1950, P. P. 499—507 )

J. D. Fage : Anthropology, Botany and History of Africa

( مجلة التاريخ الأفريقي مجلة ١ رقم ٢ ، ١٩٦١ ، ص ٣٠٢ — ٣١٤ ) .

والأرز) والبامية وأشكالا معينة من الياقوت ، والفول السوداني ، والشمام والقرع العسلي ، والكولا والتمر هندي والسهم . وظن رجلى أن الكثير من هذه استعيرت أو جىء بها وتأقلمت فى تاريخ مبكر ، ولكن كلا المصدرين يتفقان على أن أهم الإنجازات كانت زراعة نبات القطن من النباتات البرى *Gossypium berbaceum* واستخدام أليافه فى صناعة النسيج ، فضلا عن استخدام النباتات المنتجة للزيت ( مثل أشجار النخيل ) ، والمفروض أن معظم المحاصيل انتقلت إلى المصريين القدماء فيما بين عامى ٣٠٠٠ و ١٠٠٠ ق م ومن ثم إلى أوروبا والهند والشرق . وكانت المحاصيل الكبرى التى نقلت من أرض الجزيرة ومصر بطريق النيل هى الشعير والقمح والبسلة والعدس ، ونباتات النيجر والبصل والفجل والكرنب والعنب والبطيخ والتين والثود والزيتون والكتان . وبعد ذلك وفدت من شرق آسيا نباتات الخيار والموز وقصب السكر والزنجبيل وأشكال جديدة من الأرز . وفى أثيوبيا أنتجت محاصيل مثل البن والجرجير بعد أن تعلمت الأساليب الزراعية من الزنوج والمصريين . وفى النهاية أدخل تجار الرقيق الأوربيون كثرى التمساح والطباق والذرة ( الأمريكية ) واليما والقطنى والقرع والطاطم .

واحتفظ الزنوج ربما طيلة ألقى أو ثلاثة آلاف سنة باقتصاد زراعى مستقر بين الغابة والصحراء ، وتشير أدلة كثيرة إلى أن المنطقة المعروفة الآن باسم الصحراء الكبرى كانت أوفر خصبا بكثير فى هذه الفترة ، وأنها كانت قادرة على توفير أسباب العيش لأعداد كبيرة من السكان كانت تقم على قطعان الماشية التى ترعى هناك . ولقد زالت الشكوك حول خصوبة الصحراء سابقا

بفضل العمل الذي قامت به بعثة لهوت<sup>(١)</sup> في سنة ١٩٥٦/٥٧ والتي أبرزت الدليل على أن الزراعة بغير الري كانت ممكنة خلال معظم الإقليم إلى حوالى سنة ٢٠٠٠ ق م ، وأن مرعى الماشية كان واسع الانتشار حتى حوالى سنة ١٠٠٠ ق م ، وإنه كان في الإمكان تربية الخيول على نطاق واسع حتى العصر الروماني . وحوالى سنة ٤٦ ق م . لم يعد في الإمكان أن تعيش الخيول والثيران في الصحراء ، وحل الرومان المشكلة بأن جلبوا الجمال من آسيا الوسطى ، غير أن سفن الصحراء هذه لم تكن كثيرة أو ذات أهمية حتى القرن الرابع بعد المسيح<sup>(٢)</sup> .

من الصعب أن نتصور أن مساحة أكبر من الولايات المتحدة هي اليوم صحراء جرداء ، كانت يمثل هذا الخصب في تاريخ يذكركه الإنسان ، ومع ذلك فالدليل الذي قدمه لهوت وتقرير التجار الرومان والكشوف الأركيولوجية والتحليل الجيولوجي كلها تؤيد هذا التطور المثير للنظر .

ومن الصعب التأكد من الأسباب ، ويبدو أن التعرية والافتقار إلى المحافظة على التربة من جانب البربر المقيمين على الساحل والزنوج المقيمين في الداخل كانا من بين تلك الأسباب . وهناك اليوم على طول حافة الصحراء

---

1) Henri Lhote : Peintures prehistoriques da Sahara

( كتالوج المعرض باريس ١٩٥٨ )

La deconverte des Freeques Du Tassil

( باريس ١٩٥٨ )

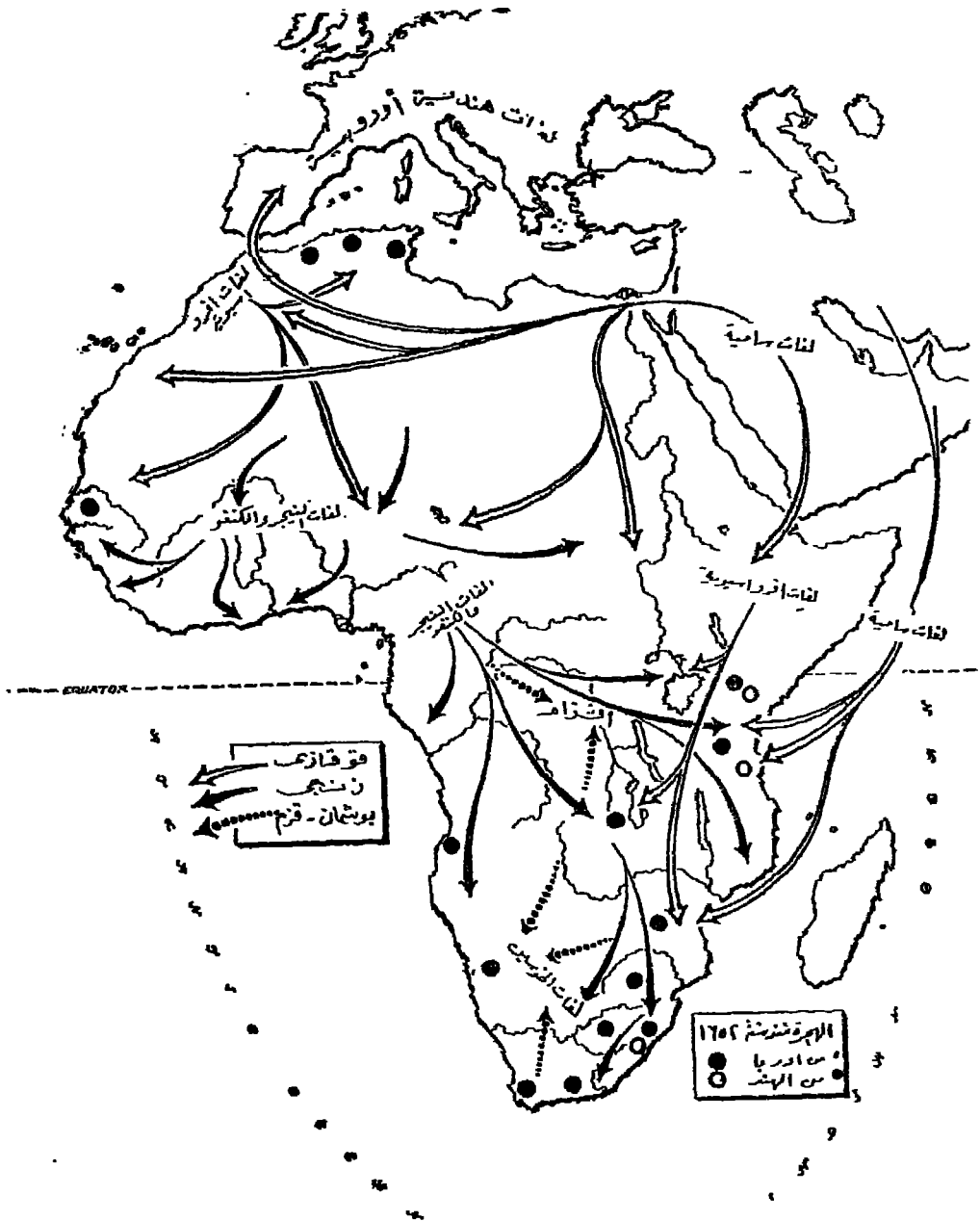
2) E. W. Bovill : The Golden Trade of the Mōors, London 1958, pp. 42, 48

الكبرى حيث تتوغل الظروف الصحراوية بمعدل خمسة أميال في السنة .  
وبالرغم من أن هذا أمر غير عادى فإنه يبين كيف أن بقعتين صغيرتين من  
صحراء فيما قبل التاريخ تحولتا الى أرض جرداء تؤدي إلى الانقسام والتفرق في  
حوالى ٣٠٠٠ سنة .

ونظراً لأن الصحراء الكبرى كانت آخذة في الانتشار فيقال إنها كانت  
صحراء « حية » أرغمت سكانها على التثقف — فانتقل البربر إلى شقة ضيقة  
كثيفة السكان نوعاً على امتداد البحر المتوسط ، وانتقل الزوج إلى السافانا .

وفي الألف الأول قبل الميلاد بدأ ينشأ ضغط سكاني جنوبى الصحراء .  
ولحسن الحظ ظهرت بين الزوج في هذا الوقت تكنولوجيا حديثة لاستخدام  
الحديد وبعض محاصيل جديدة للزراعة الكثيفة ، مما جعل في الإمكان ابتداع  
وسائل بديلة للعيش .

ويحتمل أن يكون الحيشيون حوالى سنة ٢٠٠٠ ق. م . أول من اشتغلوا  
بسبك الحديد . ولم يستخدم هذا المعدن في مصر إلا بعد ألف سنة تقريباً وعرفته  
قرطاجنة حوالى سنة ٥٠٠ ق. م . وانتشر تشعيل الحديد في أنحاء منابع النيل من  
مصر في القرن الخامس قبل الميلاد حيث أصبح إنتاج الحديد صناعة كبرى في  
مرو الواقعة على مسافة قصيرة شمال الخرطوم . وكان في الوسع أن تكون مرو  
المصدر المنطقي لمعرفة الزوج بالحديد ، ولكن المنتجين في وادى النيل كانوا  
حريصين جداً على الاحتفاظ بسرهم ، ولذلك فمن المحتمل تماماً أن تكون  
قرطاجنة هي التي علمت أهل غرب إفريقية صناعة التعدين إذ كانت الخيول  
مما تزال تحمل التجار بانتظام عبر الصحراء الآخذة في النمو . والواضح أن



**أجناس أفريقية منذ سنة ٣٠٠ ق.م (الهجرات)**

الزنج كانوا يستخدمون الحديد حوالي سنة ٣٠٠ ق. م. كى. يقضى لهم أن يزيدوا من كفاءتهم فى استغلال السافانا الآخذة فى التناقص . كذلك جعلت الآلات والأسلحة المصنوعة من الحديد فى الإمكان غزو الغابات المطرية الاستوائية وتطهيرها حيث يمكن توفير الإقامة للسكان الآخذين فى الازدياد .

وكان دور الزراعة فى غزو الغابات المطرية موضوعاً لنقاش بين العلماء الحديثين . فيعتقد مردوك أن الغابة الاستوائية لم تصبح صالحة للسكنى إلا بعد إدخال البطاطا والموز من إندونيسيا ، ولذلك يفترض وجود مستعمرات إندونيسية على الساحل الأفريقى الشرقى قبل سنة ١٠٠ ق . م ومنه انتقلت المحاصيل الجديدة بواسطة عملية حركية على طول الحافة الجنوبية للصحراء الكبرى إلى حوض النيجر<sup>(١)</sup> . وأجاب معظم زملائه بطريقة مقنعة بأن إقامة الإندونيسيين يمتثل أن تكون قد حدثت بين عامى ٦٠٠ و ٩٠٠ بعد الميلاد، ثم فى مدغشقر بعد ذلك وليس فى أفريقية الشرقية ؛ وأن فى الإمكان أن ترد بسهولة أية محاصيل حديثة على طول طرق التجارة المعروفة عن طريق الهند والبحر المتوسط ، وأن أغذية حديثة كهذه لم تكن جوهرية حتماً لغزو الغابة المطيرة .

ويبدو أن المعرفة الجديدة بتصنيع الحديد وإن لم تكن المحاصيل الجديدة، توغلت حتى وصلت إلى البانتو<sup>(٢)</sup> الذين كانوا بوصفهم الزنج المقيمين فى

Hardock. Op. Cit. 207-211.

(١)

(٢) هؤلاء هم الذين يتحدثون لغة البانتو وأغليبتهم من أشباه الزنج ، ويطلق عليهم فى العادة اسم المجموعة اللغوية التى يسمون إليها .

أبعد الانحاء نحو الجنوب، أشد قرباً من الغابة المطيرة في مرتفعات الكرون. إن إدخال المهارة الجديدة أو كلتا المهارتين أسهم في حدوث انفجار سكاني في صفوف الباتو على نحو غير عادي. لقد استطاع الزوجان المقيمون في الشمال والغرب أن يحسنوا استخدام الأراضي التي كانوا يشغلونها في ذلك الحين، ولكن الباتو توغلو في الغابة المطيرة التي ربما لم يكن يستغلها من قبل سوى جماعات متفرقة من الصيادين الأفزام. إن الانفجارات السكانية الملفتة للنظر شيء غير عادي، ولكن يبدو أن الصين القديمة وأوروبا الحديثة والباتو حوالي زمن المسيح يشتركون في هذه الظاهرة. من الصعب دائماً تحديد الأسباب تماماً ولكن يمكن اعتبار حالة الباتو تفسيراً سليماً مثلها مثل الحالات الأخرى.

وثمة توسع مماثل وإن كان أقل إثارة للنظر بكثير، يبدو أنه انبعث من بلاد العرب عن طريق أثيوبيا إلى حدود مرو في القرون السابقة مباشرة على مولد المسيح. فقد عبر بنوسبا الذين يتكلمون السامية البحر من اليمن إلى المرتفعات الأثيوبية، واضطر الكوشيون من ذوى اللغة الأفرو — آسيوية الذين كانوا قد استقروا من قبل هناك إلى التفرق جماعات صغيرة في جميع أرجاء إفريقية الشرقية وربما عاد بعضهم إلى الاستيطان في أماكن وصلت إلى موزمبيق. ويبدو أن السبأيين والكوشيين كانوا على معرفة بالحديد أو أنهم عرفوه أثناء هذه الفترة والأرجح عن طريق مرو السائرة في طريق التدهور، وأنهم استخدموا الأدوات الحديدية لقطع أحجارهم الأثرية للتميزة.

ولقد كان توسع الباتو أكثر من توسع الكوشيين هو الذي أحدث أعظم تغيير في الجغرافيا البشرية بإفريقية الوسطى والشرقية والجنوبية. فمثلاً



في القرون الباكورة من العصر المسيحي كان البانتو قد توغلوا بعيداً في حوض الكونغو، وجاءوا معهم بأساليب الرى والزراعة وتصنيع الحديد، وأزالوا أو أخضعوا جماعات الصيادين الأقزام القليلة للتناثرة. ويظهر أن الضغط من المراكز الأصلية في مرتفعات الكمرون استمر بعض الوقت مرغماً الجماعات الأمامية على أن تشق طريقها بالتدرج صوب الشرق والجنوب، ويبدو أن البانتو الأفضل سلاحاً وغذاءً ابتدعوا أنظمة عسكرية وسياسية قوية بصورة متزايدة كلما انتشروا وأخضعوا الأقزام واجتاحوهم. وعندما اكتشفت الطلائع الرائدة إقليم البحيرات العظمى الفسيح الخصب بين ٦٠٠ و ٩٠٠ ق. م. كانوا عبارة عن وحدات أ كفاً في تنظيمها وأقدر على البقاء من تلك المجموعات الضعيفة ذات الاستقلال الذاتي التي خلفوها وراءهم في الكمرون والغابات المطيرة. وبمجرد أن تخلصت طلائع الجماعات التي تتكلم البانتوية من الغابة انتشرت بسرعة نحو الجنوب لتحتل السافانا التي اكتشفتها حديثاً.

مثال ذلك أن مجموعة باتونجا (سوئو الحديثة) توغلت على ما يظهر ببدء القرن العاشر حتى وصلت إلى روديسيا الجنوبية حيث حققت درجة من الوحدة أقوى منها عند غيرها من جماعات المهاجرين البانتو. وتحركت سلسلة أخرى من البانتو ببطء أكثر صوب مصب نهر الكونغو وأنجولا الجنوبية، ولكن لا يمكن أن ينسب إليهم الفضل كله. فقبل أن تصل الطلائع الخارجة من الكمرون إلى السافانا الجنوبية كانت بعض الشعوب الخوسية هناك قد عرفت الحديد والماشية، ويحتمل أنها عرفت ذلك عن طريق تلك الجماعات الصغيرة من الكوشيين التي جاءت معها بتلك المعرفة حتى نهر زمبزي في

زمن المسيح . ولقد اكتشف ديزموند كلارك حديثاً<sup>(١)</sup> أن البانتو وصلوا في هذه المنطقة بعد أن بدأ الشعب الخوسي في استخدام الحديد بفترة تتراوح بين ٥٠٠ و ٨٠٠ عام . ولكن لم يكن هناك إنتاج فعال قبل أن يأتى البانتو بمهارات متقدمة وتنظيم متقد . كذلك قابلت طبيعة البانتونجا التطورة . الكوشيين القوقازيين الذين سبق أن علموا صناع الحديد من الخوسيين . إن الثقافة الناجمة من ذلك سوف يجرى بحمها في محتوى تاريخ شرق إفريقيا بعد القرن العاشر . وعلى أى حال فقد كان الاحتلال البانتوى عنصراً هاماً في أن تلك الوحدات من البانتو التي كانت تعيش على طول سلسلة البحيرات العظمى التي تشكل فاصلاً في منطقة الغابات المطيرة ، أقامت في مجتمعات حسنة التنظيم وتقبلت المؤثرات الكوشية بالتدريج . وواصل غيرها التوغل من مناطق البحيرات نحو الساحل الشرقى واحتلوا أجزاء من تنجانيقا وكينيا بين عامي ١٠٠٠ و ١٥٠٠ ق . م . وفي شرق البحيرات العظمى قابلت البوشمن ، ولكن الأخيرين إما أنهم أيدوا أو أرغموا على أن يصبحوا مستعمرات منعزلة تابعة لهم شأنهم في ذلك شأن الأقزام في منطقة الغابات المطيرة .

أما المجموعة الثالثة أو الجنوبية الغربية من البانتو فواجهت الغابة الجافة، ثم البوشمن وهي تندفع جنوباً على طول ساحل المحيط الأطلسي ، وبحلول القرن الخامس عشر كانت قبائل البانتو القريبة من مصب الكونغو قد أصبحت قوية بنوع خاص ، واتصلت اتصالاً واسع النطاق بالبرتغال ، بينما الذين كانوا منهم يتحركون في داخل أراضي البوشمن ثبت من زحفهم الجفاف المتزايد . ومن

---

J. Desmond Clark ; The Prehistory of Southern Africa, Harmondsworth, 1950, p. 283 ff.

ذلك الاتصال الأخير نشأت ظاهرتان غريبتان حيرتا العلماء ، وكلتا المشكلتين تمس قوماً مختلفين تماماً في مظهرهم عن البوشمن وإن كانوا مثلهم يتكلمون اللغات الخوسية . وأكبر الاحتمال أن إحدى هذه الجماعات ، وتتكون من فلاحين زنوج مستقرين ، كانت من سلالة المحاربين البانتو الذين تربى أطفالهم بفضل الجوارى والإماء من البوشمن ، والمسألة الثانية تتعلق بالهوتنتوت ، والذين كانوا من قبل يصنفون خطأ بوصفهم خليطاً من السكوشيين الأثيوبيين والبوشمن من أهل كينيا<sup>(١)</sup> . والمعتقد الآن أن الهوتنتوت هم قوم من البوشمن تعلموا تربية الماشية من البانتو وبذلك عملوا على تحسين غذائهم وأصبحوا أكبر حجماً من البوشمن الذين يشبهونهم فيما عدا ذلك<sup>(٢)</sup> .

ولقد درج الأوروبيون على الاعتماد بأن جميع المجتمعات الإفريقية يسودها نفس التنظيم ، ولكن الأبحاث الحديثة أظهرت الكثير من الاختلافات بين الصروح القبلية . قد يصح أن جميع القبائل في عصر ما قبل التاريخ كانت ترجع مركز الفرد ومنزلته إلى الأم وليس إلى الأب ، وأن التغيير من تقاليد الانسحاب إلى الأم إلى التعقيد المعاصر يعزى أحياناً إلى المؤثرات العسكرية والزراعية خلال الأربعة آلاف سنة الأخيرة . ومثال ذلك أن التسلسل عن طريق الأب أى الذكور ، يميز جميع القوقازيين ، فضلاً عن أولئك الزنوج الذين يشبهون البانتو الجنوبيين الشرقيين في أنهم كانوا طلائع التوسع شبه

(1) C. Mein of: Der Sprachen der Hamiten

Hamburg, 1912 ; Isaac Schapera, The Khoisan

(2) Peoples of South Africa, London 1930. See also ;

Greenberg, op. cit , pp. 80-87

العسكري ، وأولئك الذين آتسم اقتصادهم بالاستقرار والنشاط الزراعي والتجاري مثل تلك القبائل الكبيرة المقيمة في مناطق السافانا بإفريقية الغربية . أما تقاليد الانتساب إلى الأم فلا تزال سائدة بين الأقوام الباقية في الصحراء الكبرى وبين زوج الغابات المطيرة في إفريقية الغربية، والباتو الذين يقيمون في منطقة الغابات الجافة بإفريقية الوسطى وراء طلائع المحارين . وسواء صح من الناحية النظرية هذا التطور الذي طرأ عليهم أو لم يصح ، فإن الاختلافات في التنظيم الاجتماعي في إفريقية كما هي في أوروبا ، ربما كانت غير منتظمة وذات طابع إقليمي أكثر منها متصلة وشاملة .

لقد كثرت التنكهنات والنظريات المتعارضة في إعادة تركيب الجغرافية البشرية الإفريقية في عصور ما قبل التاريخ، وبالرغم من هذا فإن بحث النظريات الكبرى من قبيل ما ناقشناه في هذا الفصل ، يزيد من فهمنا للتاريخ في العصور التالية .

الكتاب الأول

أفريقيّة التديمة



## القبائل والامبراطوريات

كان الاتصال المبكر بين الزوجين المشتغلين بالزراعة في غرب أفريقية والقوقازيين المشتغلين بصناعة الحديد في مصر وشمال أفريقية ، يمثل بداية فترة طويلة من التبادل الثقافي والتجاري . وأبدت كل من قرطاجنة والجمهورية الرومانية اهتماماً بالتجارة الزنجية ، فكان العاج والذهب وبعض العبيد مما يؤتى به إلى الشمال ، بينما ينقل الملح وربما النيذ والقمح جنوباً من الأراضي المتاخمة للبحر المتوسط . وكانت المواصلات عبر الصحراء صعبة دائماً وبخاصة عندما نبذ استخدام الخيول ، ولكن إدخال الجمل تدريجياً في أوائل العصر المسيحي أحيى التجارة وجعل في الإمكان حدوث هجرات لها أهميتها من جانب البربر ، من الشمال إلى الجانب الجنوبي من الصحراء الكبرى .

ويندر وجود الملح في منطقة السودان بين الصحراء ومنطقة الغابات ، وكان تراجع الصحراء التدريجي قد أبعده الزوج السودانيون كثيراً عن موطن هذه المادة المشتهة التي تستخدم في تجفيف الطعام والحفاظة عليه . لم يكن في الإمكان الحصول على الملح جنوبي الصحراء إلا بعملية شاقة من تقطير الحشائش ، أو بحمله عبر الغابات المطيرة الخائنة من الشواطئ الاستوائية للمحيط الأطلسي الجنوبي . وبذلك كان ملح الصحراء ذا أهمية أساسية ، وأصبحت تنمية أحواله

مستولية يضطلع بها البربر في الجزء الأوسط الشالى من الصحراء ، حيث يبادلون بالملح الذهب والعبيد الزنوج الذين يستخدمون في معامل الملح .

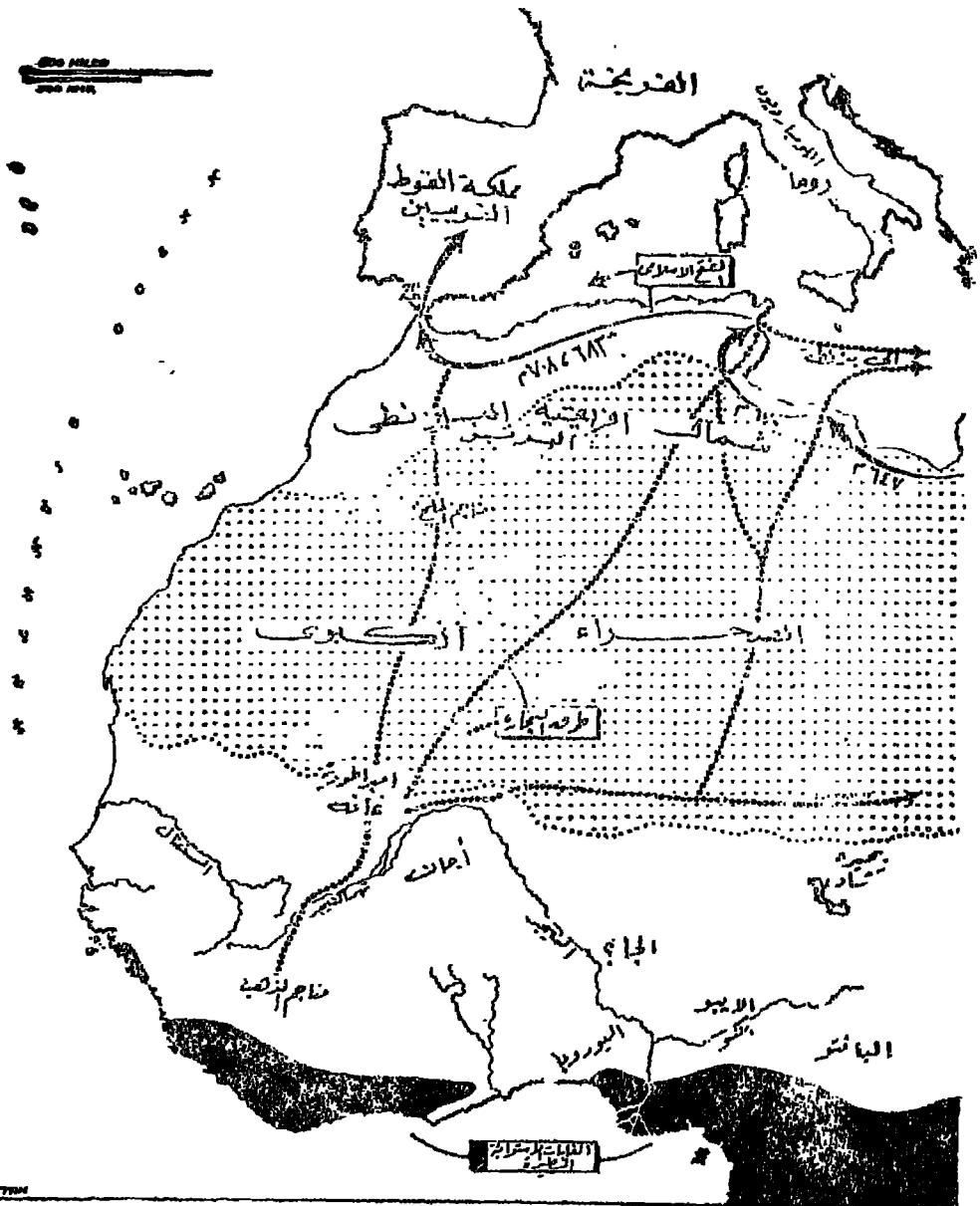
وأدت التجارة التي تعتمد على إبل البربر ، إلى اشتغال الزنوج الزراع في السودان بالتجارة ، وإلى إعادة تشكيل أنظمتهم السياسية . وكانت نقطة الاتصال بين الزنوج والبربر على امتداد نهر النيجر عادة ، عند الحافة الجنوبية للصحراء ، والتي كان البربر يحملون الملح عبرها . وكان نهر النيجر ، وهو شريان للسودان من الشرق إلى الغرب ، يهيئ سبيل الوصول إلى كل من مناجم الذهب ( ويرجح أنها كانت قريبة من منبع النهر في غينيا الفرنسية الحديثة )<sup>(١)</sup> ومستهلكي الملح على امتداد النهر من غينيا إلى نيجريا . ومن الذين ربما اشتركوا في هذه التجارة النامية أفراد من الجاليات اليهودية المشتغلة بالتجارة في قرطاجنة الرومانية وبرقة — لعل بعضهم طرد عبر الصحراء بعد ثورة في القرن الثاني الميلادي — أقاموا على امتداد نهري النيجر والسنغال .

ويذكر الرحالة العرب في القرن العاشر اسفناداً إلى رواية سودانية ، أن الفاتحين « البيض » نظموا وادى النيجر وحكموه فيما بين القرنين الخامس والثامن ، ثم نشبت بعد ذلك ثورة زنجية على أيدي السونكة ( ماندى أو ما ندينجو ) وأقامت أسرة ملكية من أبنائهم . وسواء أكان لتلك الأسرة الملكية البيضاء وجود أم لم يكن ، فالواضح تماماً أن شكلاً من التنظيم

---

(١) كانت غينيا جزءاً من أفريقية الاستوائية الفرنسية ثم استقلت على أثر الاستفتاء الذي أجراه الجنرال ديغول على دستور الجمهورية الخامسة ، في ٢٨ سبتمبر ١٩٥٨ ( المترجم )





أفريقيته الغربية قبل الإسلام، القرن السابع

الحكومي والمركزية التجارية أصبح لازماً حيناً بدأ فلاهو الماندى يتجرون مع قوافل الإبل ، فيبادلون بالملح الذهب ، بين القرنين الثاني والخامس .

ولأحد يعرف اللغة التي كانت تستعمل في هذه الدولة السودانية — التي جرى التقليد على إطلاق اسم غانة عليها — ولكن علماء الآثار كشفوا عن مدن كانت تعتمد على تجارة واسعة النطاق ، كما يشهد الرحالة بوجود ملكية قوية ، ونظام ضرائبي وإداري مستقر الدعائم ، ومحلات لإقامة التجار البربر والراعايا الزوج . وبسطت غانة سيطرتها السياسية على مناجم الملح الواقعة في الصحراء ، ولكن مناجم الذهب الواقعة عند حدودها الجنوبية ظلت في أيدي القبائل . وتحكم الفلاحون السودانيون في مزارق الطرق ، واستغل البربر أحواض الملح وتولوا قوافل التجارة . وكان يجري الحصول على الذهب بطريقة غريبة يقال لها « التجارة الصامتة » ، فيترك الذين يستخرجونه من أهل القبائل الذهب على شاطئ النهر ، ويكتم تجار غانة الملح بجوار المعادن ، ثم يعود رجال القبائل فيأخذون الملح إن أرضتهم الصفقة ، أو يتركون كلتا السلعتين ويبدأون العملية من جديد إذا كانوا يريدون الحصول على مقابل أكبر .

وفي مكان بعيد في اتجاه الشرق ، كان القوقازيون الذين يتكلمون لغة سامية ، قد أخذوا منذ زمن طويل يقسرون إلى إفريقية . فن بلاد سبأ في جنوب شبه الجزيرة العربية كان التجار والمهاجرون يعبرون البحر مراراً إلى المرتفعات الحبشية في الألف الأولى قبل الميلاد . وأخيراً انتقلت حكومة سبأ أيضاً وأصبحت بحلول القرن الرابع الميلادي ، مملكة أكسوم أو أنيوبيا . وكان اليهود الذين تشتتوا من ديارهم ويتكلمون أيضاً اللغة السامية ، قد انتشروا

بالمثل في داخل إفريقية ولكنهم كانوا أقوى في مصر ، ومالوا إلى اقتباس الحضارات اليونانية . وجاءت المسيحية في أعقاب اليهود المشردين - وكما حدث في أماكن أخرى من الإمبراطورية الرومانية - أصبحت الدين الغالب في شمال إفريقية والقسم الأدنى من وادي النيل ، وذلك بحلول القرن الرابع . وثبتت المسيحية اللاتينية أقدامها حول قرطاجنة القديمة ، بينما سادت الأشكال الأرثوذكسية يعقوبية<sup>(١)</sup> (القبطية) في مصر وانتشرت في اتجاه أعلى النيل لتصبح لها السيادة في مرو ( التي أعاد المسيحيون تسميتها بالنوبة ) وأكسوم . كان الذين جاءوا بالدين الجديد من الفلسطينيين والشرقيين ، ولكن الذين اعتنقوه في إفريقية كانوا من أبنائها ولم يكونوا من الغزاة . ولقيت المعتقدات المسيحية في هذا الوقت القبول من بعض البربر ، على الأقل في الصحراء الكبرى ممن كانوا يشتغلون بقيادة الإبل والتجارة ، ولكن ربما قبلها غيرهم أيضاً من اللاجئين الذين اختاروا الصحراء كي يواصلوا التمسك بدينهم القديم . وعلى ذلك سادت المسيحية في الشرق ولكنها انفتحت في النفاذ في الصحراء في الغرب . ويعتقد الكثيرون<sup>(٢)</sup> أن البربر غير المسيحيين أدخلوا أفكار قرطاجنة الدينية في غانة الزنجية .

(١) يؤمن المذهب يعقوبى بأن المسيح طبيعة واحدة . ( المترجم )

(٢)

Eva L. R. Meyerowitz . The Akan of Ghana.

(لندن ١٩٥٨)

Basil Davidson . Old Africa Rediscovered.

(لندن ١٩٦٠ ، ص ٦٨ - ٧٠)

Maurice Delafosse : Haut - Senegal - Niger.

( ٣ أجزاء ، باريس ١٩١٢ )

وإذ نصل إلى أوائل القرن السابع نجد المسيحية قد أثرت في كل ذلك القسم من أفريقية الواقع شمالى منطقة الغابات ، فيما عدا غانة ووادي النيجر ومنابع النيل . ومهما يكن من أمر ، فقد كانت أثيوبيا هي الدولة التي تحولت إلى المسيحية بصفة دائمة . وارتفع الإسلام الذى بشره النبي محمد صلى الله عليه وسلم في بلاد العرب ، إلى مركز السيادة بالتدرج ، وهو المركز الذى لا يزال يشغله شمالى إقليم الغابات . وقدت المسيحية معظم مراكزها الباكرة ولم تعد إلى الظهور فى إفريقية إلا بعد أن بدأ الأوربيون ينتشرون فيها بعد ذلك بألف عام .

وفى صيف عام ٦٢٢ قاد محمد صلى الله عليه وسلم أتباعه من مسقط رأسه العادى ، مكة ، إلى المدينة التى أكرمت وفادته ، فكان ذلك بداية النصر والتوسع ومع هذه الهجرة يتخذ المسلمون ومعظم الأفريقيين فى السافانا والصحراء الكبرى تقويمهم . وفى أواخر السنة العاشرة الهجرية أى فى يونية من عام ٦٣٢ مات النبي مظلماً وراءه كتاباً مقدساً هو القرآن الذى يتضمن تلك الأوامر الدينية والاجتماعية والسياسية التى جعلت فى الإمكان لأول مرة تنظيم أتباعه من أبناء البادية على أساس دين على شامل بدلا من التنظيم القائم على المجموعات المقيدة ، المنقسمة التى ترتبط فيما بينها بصلة الرحم . أصبحت القبائل المنقسمة على بعضها شعباً واحداً فى ظل الشريعة الجديدة ولكن فرض الوحدة فى داخل الصحراء العربية استغرق شهوراً كثيرة . وتجرد ان تم تنظيم البدو على هذا النحو أصبحوا تواقين إلى نشر دينهم فى الهلال الخصب الفنى .

وفي يوم الأحد الموافق عيد الفصح عام ٦٣٤ ، أى بعد موت محمد عليه السلام بأقل من عامين ، أنزل الغزاة البدو الهزيمة بالمسيحيين البيزنطيين وضرروا الحصار على دمشق . وفي ظرف ثلاث سنوات سقط معظم الهلال الخصب من فلسطين إلى فارس ، واجتازت جيوش الخليفة عمر برزخ السويس حيث عبرت النيل على مقربة من القاهرة<sup>(١)</sup> في ربيع عام ٦٤٠ . وبعد أربع سنوات كانت أفريقية من مصر إلى قرطاجنة تؤدي الجزية ، ولكن ظل المسيحيون يسيطرون على النوبة في النيل الأوسط وبلاد البربر الواقعة غربى قرطاجنة .

وتجمعت الهجمات المضادة من جانب البيزنطيين ، ودعم المكاسب التي تحققت ، والنزاع حول الخلافة بعد وفاة عمر ، فحالت طيلة جيل دون توسع جديد ، ولكن فيما بين عامى ٦٧٠ ، ٦٨٣ حطم العرب قرطاجنة النائرة وأخرجوا البيزنطيين من الجزائر الحالية وبلغوا ساحل المحيط الأطلسى . وبسبب الثورات التي قام بها البربر أرغم العرب على الارتداد إلى مصر ، إلا أن جيوش النبي عادت بعد ربع قرن فاحتلت المنطقة بصفة دائمة . وفي عام ٧١١ عبر الفاتحون من البربر الذين تحولوا إلى الإسلام ، جبل طارق بقيادة القائد طارق<sup>(٢)</sup> واحتلوا إسبانيا وغروا فرنسا حيث أوقفوا بعد ذلك بإحدى وعشرين سنة . ودعم المغاربة Moors — كما أطلق على المزيغ من البربر والعرب — موقعهم جنوبى جبال البرانس . كانت إسبانيا الإسلامية فى أول الأمر مخفراً أمامياً للخلافة العربية ذات الإدارة المركزية فى دمشق ، ولكنها أصبحت بحلول عام ٧٥٧ مستقلة بالفعل فى ظل أسرة حاكمة مختلفة .

(١) لم يظهر اسم القاهرة إلا بعد إنشائها على أيدي الفاطميين .

(٢) هو طارق بن زياد وليس (طارق) كما ذكر المؤلف .

( المترجم )

( المترجم )

وتميزت السنوات الثلاثمائة والمخسون بالمشاحنات بين أفراد الأسرة الحاكمة، وبالمنازعات بين المسلمين والبربر والإسبان للحصول على المراكز الممتازة ، ولكن الانقسامات في صفوف العصابات المسيحية في البرانس والحكام الإفريقيين الذين يمثلون الخلافة الشرقية ، كانت شديدة بالمثل . فتوقف التوسع وزاد الاستقلال المحلي في جميع أرجاء العالم الإسلامي بما فيه إفريقية ، وفي كل مكان غربي السويس بسطت طبقة صغيرة من المحاربين العرب حكمها على شعوب متنافرة لم تعتنق الإسلام ، وذلك بالاستناد إلى جماعة منهم دخلت في الدين وإن لم يكن في الإمكان الاعتقاد عليها . وحطم الصراع الري والزراعة . وعريت الغابات من أشجارها من أجل بناء السفن لأغراض الحرب والقرصنة ، وابتلعت الصحراء الأرض الخصب التي أسىء استغلالها في ذلك الوقت . وكانت اليد العليا للبربر فترة من الوقت ، إلا أنه في القرن السادس عشر أرسل الخليفة المركزي في بغداد — وكان فاطمياً — ٢٠٠,٠٠٠ من بنى هلال وهم من بلاد العرب ، فانقضوا على شمال إفريقية . وأخرج بنو هلال ، وهم أول موجة من المستوطنين الذين يتكلمون السامية — البربر من الأراضي الساحلية، وبسطوا سيادتهم على المجتمع في شمال إفريقية ، وحولوا الإسلام من دين يعتنقه الحكام إلى دين تعتنقه الجماهير .

هذه الأحداث أسفرت بالنسبة إلى إفريقية عن نتيجتين ، فأصبحت المنطقة التي تشغلها ليبيا وتونس الحاليتان أقل خصوبة، ولهذا اتخذ التجار الذين يعبرون الصحراء الكبرى طرقاً جديدة تلامس المغرب الأقصى ( مراكش الآن ) وهو أكبر مساحة وكان حظه من الدمار أقل . أما النتيجة الأخرى فهي أن بعض

البربر ممن أبوا تسلط العرب والمذهب الإسلام، السنن، هاجروا عبر الصحراء للإقامة على متربة من ساحل المحيط الأطلسي، غربي إمبراطورية غانا. وأطلق هؤلاء البربر اسمهم القبلي — صنهاجة أو السنغال — على النهر الذي أقاموا على ضفافه. كانوا مسلمين بالاسم، ولكنهم لم يبدوا حماسهم الدينية أو الامتثال لقواعد الدين.

ومن حين لآخر كان أحد هؤلاء الحكام من بني صنهاجة يؤدي فريضة الحج إلى مكة، وهذا ما فعله شيخهم الأكبر يحيى<sup>(١)</sup> في أوائل القرن الحادي عشر. وهناك وقع تحت تأثير فقيه النقي به في الطريق، وعاد بمشرد سنن شديد الحماسة يعرف بابن ياسين<sup>(٢)</sup>. ولكن أتباع يحيى، ولم يكونوا في مثل حماسة زعيمهم، طردوا ابن ياسين وتلاميذه فانتقل معهم إلى جزيرة في نهر السنغال. هؤلاء النساك (المرابطين) اجتذبوا الأنظار ثم الأنصار وعادوا ليحكموا المجتمع الصنهاجي. وفي عام ١٠٤٢ بدأوا الجهاد من أجل تطهير الإسلام، وأخضع المرابطون من أتباع ابن ياسين البربر الذين لم يكونوا شديدي التمسك بأهداب الإسلام، وهاجموا غانا الزنجية الوثنية في عام ١٠٥٤، ثم ضموا الخلافة العربية في مراكش بعد ذلك بثلاث سنوات.

وفي إسبانيا كان تنظيم العصابات المسيحية قد تحسن. وتعرض استمرار بقاء الأمراء المسلمين المتنازعين للتهديد، ولهذا طلب إلى يوسف، خليفة ابن ياسين بين المرابطين — أن يستخدم جيشه للمحافظة على النظام، فأعيدت

(١) للترجم

(١) يحيى بن إبراهيم .

(٢) للترجم

(٢) عبد الله بن ياسين السجلماسي ومات في سنة ١٠٥٩ .

الوحدة إلى إسبانيا الإسلامية وهزم المسيحيون في عام ١٠٨٦، وأصبح يوسف السلطة الوحيدة بين إسبانيا الشمالية ومنطقة الغابات الإفريقية. كان من المستحيل إدارة مثل هذه الإمبراطورية المتباينة، وسرعان ما أدرك الجميع أن المرابطين الذين كانوا يهاجمون غانة (التي سقطت في سنة ١٠٧٦) أصبحوا مستقلين تماماً عن الجيش الرئيسي الذي يتولى يوسف قيادته في الشمال.

كانت سلطة المرابطين قصيرة الأمد تقريباً كما كان شأن الإصلاحات المتحمسة التي قام بها ابن ياسين، ولكن تغير الكثير. فقد اضطر للمسيحيون في إسبانيا إلى الاتحاد لأول مرة دفاعاً عن النفس، وما لبثوا بعد ذلك أن اتخذوا موقف الهجوم، ولم يرجع مجد غانة التجاري والسياسي إلى سابق عهده تماماً. وحلت الحروب القبلية محل الحكومة المركزية الحقيقية جنوب الصحراء، وصارت للاستقلال المحلي الغلبة على الصالح القومي. لقد ظلت غانة على قيد البقاء حتى القرن الثالث عشر، ولكن لم يبق منها إلا ظل عظمتها السابقة.

أصبح الإسلام الدين الإسمي لغانة ومعظم الدول الزنجية الأخرى في جميع أنحاء السودان الغربي، ولكن الكثيرين آثروا الهجرة على تقبل أي جزء من الدين الجديد، ومن بينهم الفلاني<sup>(١)</sup> البقارة الذين انتقلوا شرقاً إلى إقليم نيجيريا الشمالية الحديثة، وربما بعض الذين أصبحوا الطبقة الحاكمة من قبائل الأجان<sup>(٢)</sup> المقيمة عند حافة الغابة.

---

(١) الفلاني أو الفلبي أو الفولة.

(٢) يطلق عليهم الكتاب العرب اسم «أجان»، وليس «أكان» Akan كما في

(الترجم)

اللس الإنجليزية.

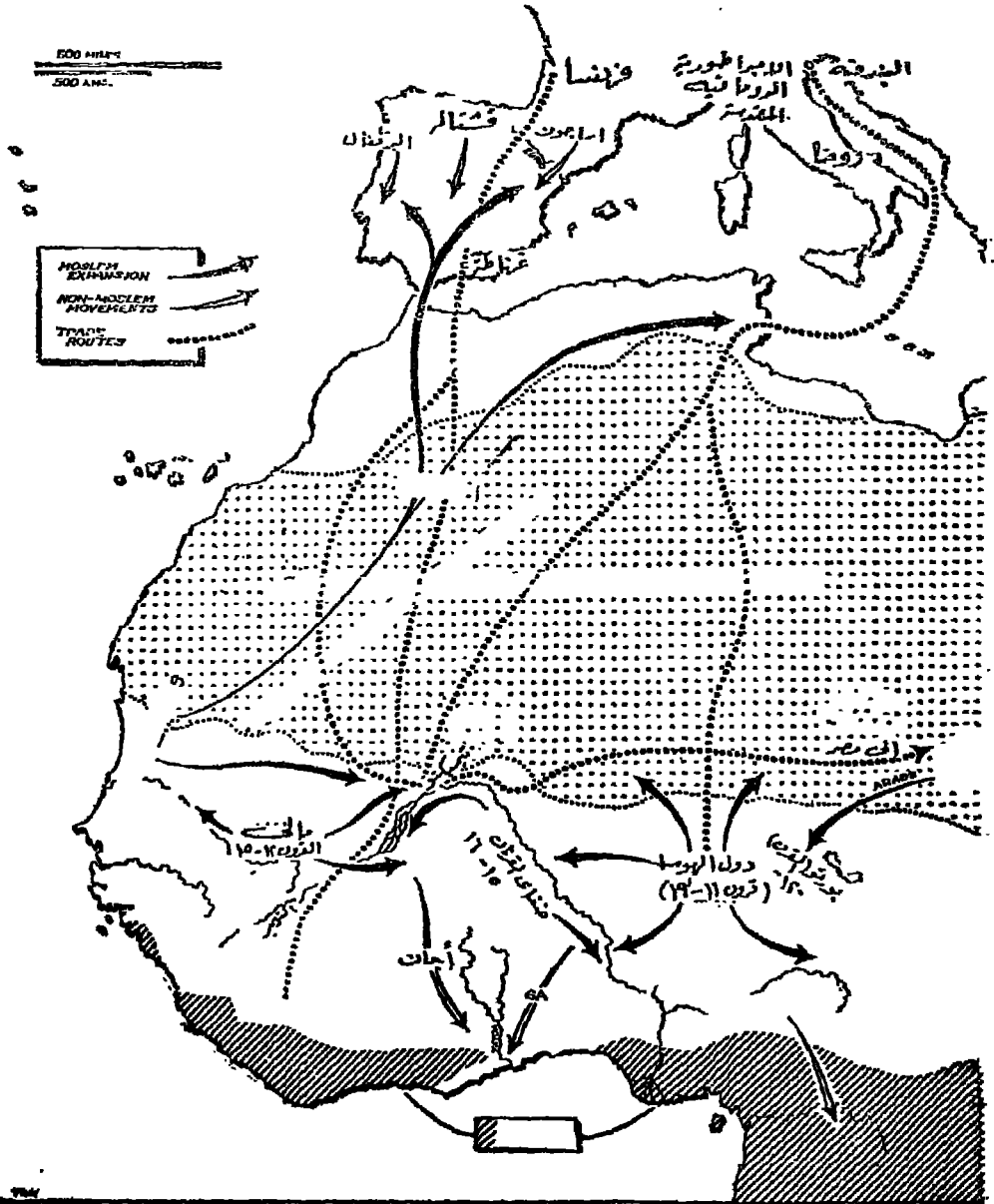


وفي أوائل القرن الثالث عشر فرض عدد من الغزاة القبليين سيطرة قصيرة الأمد على جزء من غانا أو كلها ، ولكن المسلمين الأشد استمساكاً بدينهم ، وهم زنوج مالي ، شددوا قبضتهم على المنطقة بعد عام ١٢٣٥ ، فساد الأمن السياسي والرخاء التجاري الذي كان لا يزال يعتمد على المبادلة بين الذهب والملح عبر الصحراء . ظلت مالي وقتاً تبسط سلطانها من المحيط الأطلسي إلى الحافة الغربية لنيجيريا الحالية . وكان وجود هذه الإمبراطورية معروفاً لدى الأوروبيين في القرن الرابع عشر ، وربما كان تفوق مالي يمثل أشد فترات التاريخ الإفريقي نشاطاً وتقدماً قبل مجيء الأوروبيين . ولقد شاهد التجار البنادقة منسا موسى<sup>(١)</sup> حاكم مالي الذي سافر إلى مكة سنة ١٣٢٤ ، وخلق أسطورة عن الثراء الباذخ الذي ظل قائماً بعض الوقت في مصر وإيطاليا . وذكر الرحالة العرب في العصور الوسطى أن تمبكتو التي كانت في عام ١١٠٠ قد حلت محل خيام مدينة غانة وأكواخها المصنوعة من الحشائش ، بوصفها مستودع البضائع الرئيسية في إفريقيا ، قد صارت الآن مركز المبادئ المشيدة من الطوب والثقافة الإسلامية في عهد منسا موسى .

لم تكن غانة تسيطر على مناجم الذهب التي كان يعتمد عليها ثراؤها ، وكذلك لم يسيطر عليها المرابطون أو إمبراطورية منسا موسى . ففي الحالات الثلاث جميعها تمثلت الثروة في التجارة التي جعل منها المنظم عملاً تجزئياً . غير أن هذا الموقف ذاته كان يجتذب أي فاقح يستطيع أن يوفر تفضيلاً أفضل ، أو طريقاً مباشراً إلى المناجم . وأثارت المعرفة بثروة منسا موسى الرغبة في

(الترجم)

(١) تولى الحكم في مال من ١٣٠٥ لك ١٣٢٢ م .



أفريقيه الغربيه في عصر الأوسلام من القرنه الحادى عشر الى القرن السادس عشر

نفوس الزنوج الآخرين وعرب مراکش ، وأخيراً في المسيحيين الأوربيين .  
للاستيلاء على احتكار مالى التجارى الفنى أو تخطيه .

ومن هؤلاء ، قام السنغاي الزنوج — ومنهم كثيرون كانوا يعيشون  
تحت حكم مالى وينفرون منها — ودخلوا تمبكتو في عام ١٤٦٨ . وتمزقت  
أوصال مالى بالتدرج أمام المتطفلين . كان القليلون منهم هم الذين أسسوا .  
ولكن حدث انقلاب على أيدي المسلمين في عام ١٤٩٢ وضع على عرش سنغاي  
زنجياً مسلماً مصلحاً هو أسكيا الكبير<sup>(١)</sup> . وإذا كان رجلاً مثقفاً ، قديراً ومنظماً ،  
حول معظم رعاياه إلى الإسلام ، وكسب تأييد قهواء المسلمين وعلماهم ، وشن  
الهجمات باسم إحياء الدين . ووقع في أيديه جزء كبير من مالى والهوسا ، لكن  
— وكما حدث مع المرابطين — خبت جذوة الإصلاح وهوت إلى منازعات  
على السلطة أشاعت الفرقة والانقسام ، وبذلك عادت الهوسا ومالى وغيرها من  
الأقاليم إلى الظهور من جديد ، دولاً ضعيفة مستبدة في القرن السادس عشر .  
ويبدو أن الرخاء الاقتصادي الذي نعم به السودان ، لم يعان من هذه المنازعات ،  
ولكن القوة السابقة للمنطقة زالت في نفس الوقت الذي بدأ فيه الأوربيون  
يرتادون ساحل إفريقية الغربى .

كذلك بدأت شراهة الشعوب المقيمة شالى الصحراء الكبرى ، تشتد  
أيضاً في القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، وكان أول غزو عبر الصحراء منذ  
توسع المرابطين ، هو غزو مراکش في القرن السادس عشر ، ذلك أن المنصور

وهو شريف شاب سبق أن أوقع هزيمة حاسمة بغزو برتغالي أعداء إعداداً سيئاً ، حاول أن يلم شعث أتباعه المتنازعين عن طريق القيام بحملة مثيرة للاستيلاء على مناجم الذهب جنوب الصحراء . ومن موقفه عند النهاية الشمالية لطريق التجارة الطويل ، يظهر أنه لم يعرف أن المناجم كانت وراء الحافة الجنوبية للحضارة السودانية . وجرى الحصول على مقادير كبيرة من القماش لعمل خيام الصحراء ، فضلاً عن الأسلحة لجيوشه ، من إنجلترا في عصر الملكة إليزابيث . وبدا أن هذه الدولة كانت سعيدة بتسليح عميل يكون لها وعلى مقربة من عدو الملكة الراض في إسبانيا . وسيطر المنصور على مناجم الملح في سنغاي في الصحراء الشمالية ، وفي عام ١٥٩٠ بعث بجيش أحسن انتقاء رجاله ، عبر الصحراء وقيادة جودر وكان أغماً إسبانيا . وبالرغم من أن ثلاثة أرباع الجيش هلك من العطش أثناء مسيره الذي استغرق خمسة أشهر ، تم الوصول إلى تمبكتو وسقطت سنغاي أثر سلسلة من الحملات المملة وإن امتازت بالبساطة . وعين جودر «باشا» أي والياً على السودان ، ولكن المراكشيين لم يتجاوزوا حوض النيجر ولم يبلغوا أبداً مصدر الذهب . وعلم الشريف المنصور — والذي أوشك على الإفلاس بسبب ما تكلفه الغزو — أن السودان بلد فقير ، وأسوأ من هذا أدرك أن التجارة توقفت بالفعل . كان ظاهراً أن الاتجار عن طريق الأوربيين الذين وصلوا إلى ساحل غينيا ، أيسر من المحافظة على طريق الصحراء وسط مثل هذا الاضطراب . وأحس المنصور بخيبة الأمل ، وواجه استمرار النفقات والثورات سواء في بلده أو في سنغاي التي غزاها ، وكان يرتاب في قائده الإسباني ، فعين شخصاً آخر محل جودر ، وأغلق مسداس تمبكتو

ومكتباتها ، وسمح بالتدريج للفرز أن يهوى إلى عملية من الاستزاد الامتدادى .

لقد خلقت الثورات التي نشبت على حافة الإقليم المحتل ، عدداً من دول صغيرة ، تزع إلى الانتقام وتفتقر إلى النظام ، ويسودها طابع شبه قبلى . وعدلت سرا كس عن المشروع كلية فى عام ١٦١٨ ، ومن هنا تولى الباشوات (الولاية) الجشعون الأمر ، وأصبحتوا حكاماً مستبدين مستغلين ، قضوا معظم القرن التالى فى منازعات فيما بينهم . كان هؤلاء الباشوات وهم يختارون أنفسهم بأنفسهم ، يتعاقبون على الحكم كيفما اتفق ، وتمحطت التجارة والزراعة تماماً ، أما المدن القائمة على طول النيجر الأوسط والتي سبق لها الازدهار فتحولت إلى أطلال وابتلعتها الصحراء ، أو أصبحت أشباه عواصم للطغاة المحليين . وسرى الضعف تدريجياً إلى الأرستقراطية الغربية من سلالة الباشوات ، وتزوجت فيما بينها ، وتراجعت عن مواقعها ، وأخيراً فى عام ١٧٨٠ قلبها الزوج الذين كانوا يؤدون لها الجزية .

وكان الفاتح الثالث المنتظر للسودان الغنى ، هو البرتغال القائمة بالشمال فى أوربا . كانت البرتغال فى الأصل جزءاً من قشتالة ، إحدى الممالك المسيحية الصغيرة فى شمال إسبانيا . وفى أثناء القتال ضد الإسلام ، وفى الاسترداد المسيحى بعد انهيار المرابطين فى القرن الثانى عشر ، منحت البرتغال إقطاعية للنبلاء الإقطاعيين الفرنسيين الذين كانوا قد اشتركوا فى الحرب الصليبية الإسبانية . وتحدى هؤلاء الأتباع الفرنسيون فى البرتغال ملك قشتالة ، وأقاموا ملكية مستقلة بمساعدة الإنجليز ، وطردها جميع المغاربة من بلادهم قبل أن

تمحور قشتالة أرضها نفسها بمائتي عام . أما الخطوة المنطقية التالية ، وهي مد نطاق تلك الحرب الصليبية الإفريقية ، فامتصت جهود البرتغال بعض الوقت ، وبلغت الذروة في الهجوم على قوطة بمرآكش في سنة ١٤١٥ . لم تكن الحماسة الدينية لتفوق في الأهمية نيل السيطرة على تجارة الذهب السودانية ، ولكن قبضة المراكشيين على هذه التجارة كانت قوية ، وبعد أن صمدوا الحصار دام ثلاث سنوات ، أرغوا البرتغاليين على الانسحاب .

ومن القادة البرتغاليين الأمير هنرى — وهو ابن أصغر الملك — وكانت له دراية بالغة بالجغرافية والملاحة استقفاها من المكتبات العربية في تلك الأجزاء من البرتغال وقشتالة ، والتي تم استردادها من المسلمين . هذا الأمير الحالم ، المجد والعالم ، والذي غالباً ما يطلق عليه اسم « الملاح » ، اقترح الوصول إلى مناجم الذهب بطريق البحر ، وبذلك يتجنب كلام من المغاربة العنيدون والصحراء المائعة . ويبدو أن هذه الفكرة — وليست الرغبة في الحصول على الرقيق ، وليست بالتأكيد فكرة الوصول إلى الهند — هي التي أوحى إلى هنرى بإنشاء معهد لعلوم الملاحة في زاجروس ، وإرسال الحملات على امتداد الساحل الغربى لإفريقية . كان هناك عنصر بالغ القدر من الصدفة في الملاحة وفي عدم التأكد من موقع مناجم الذهب — ولكن الصيادين البرتغاليين كانوا في ذلك الوقت يراولون عملهم في المحيط الأطلسي على مسافة ١٥٠٠ ميل من البر ، كما سبق أن هبأ الجغرافيون العرب شواهد قديمة عن الساحل حتى سيرا ليونى عند الحافة الشمالية لمنطقة غابات الأمطار . وأقلمت السفن الأولى في عام ١٤١٨ ، وجىء بسبائك الذهب والعبيد الزوج لأول مرة من البربر في

أرجون (خارج شاطئ موريتانيا الحديثة) في عام ١٤٤٤ ، وتم الوصول إلى منطقة الغابات قبل موت هنري الملاح في سنة ١٤٦٠ . وبدأت تجارة رقيق بحرية ، اجتذبت للمرة الأولى المصالح التجارية الأوروبية ، ولكن الاستكشاف اضمحل لحظة ، ويرجع بعض السبب في هذا إلى الافتقار إلى توجيه هنري ، وربما يرجع أيضاً إلى أن الغابة بدت خالية من الجاذبية . ودبت الحياة من جديد في أعمال الاستكشاف في السبعينات من القرن الخامس عشر . ووجدوا في غابة الحديثة منطقة خالية من الغابات ، تمتد فيها حشائش السافانا حتى البحر ، وتم عبور خط الاستواء لأول مرة في التاريخ الأوروبي . ووجد الذهب والتبر بوفرة في تلك المنطقة التي تتخلل الغابات الاستوائية ، ولهذا أطلق على الساحل اسم إلينا — والنجم أو « ساحل الذهب » . وهنا أقيمت محطة تجارية يقال لها إلينا ، وذلك في أثناء رحلة تمت بعد ذلك في عام ١٤٨٢ . ويظهر أن كريستوف كولمبس الذي اكتشف أمريكا فيما بعد ، زار الحصن الجديد بعد ذلك بعام أو عامين <sup>(١)</sup> . لقد سبق له العمل في خدمة البرتغال منذ سنة ١٤٧٧ ، كصانع للخراطة أولاً ثم كضابط يكتسب الخبرة في الملاحة بالمحيط ، ولم يسع إلى الحصول على مساندة لرحلته الشهيرة في اتجاه الغرب إلا في عام ١٤٨٦ .

وثبت أن الاتصال والنقل بطريق البحر ادعى إلى الاطمئنان وأشد يسراً

---

(١) تجد الأداة وتقييمها في

Samuel Eliot Morison: Admiral of the Ocean Sea

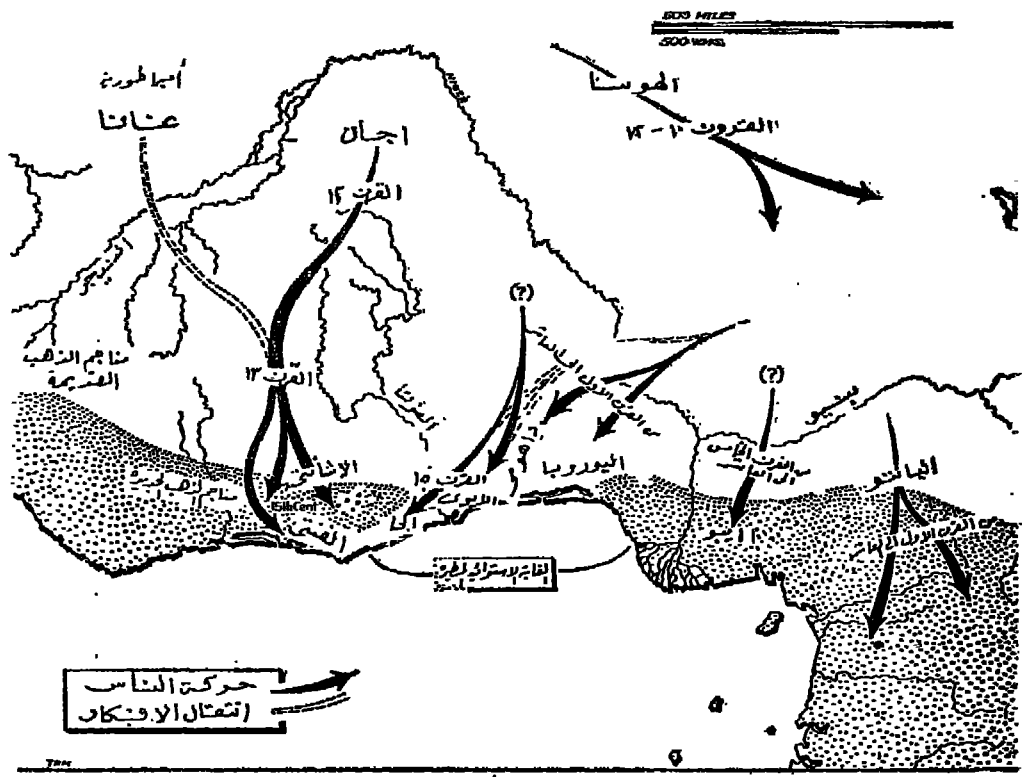
(جزءان ، بوسطن ١٩٤٢ ، ج ١ ، ص ٥٢ — ٥٤ ، ٥٩ حاشية رقم ٢٣ )

من السفر عبر الصحراء ، وذلك فإن الثورة العميقة التي حدثت في نمط التجارة الإفريقية وتطورها — على ما اكتشف المراكشيون في عهد المنصور بعد ذلك بقرن من الزمان — لم تكن سوى مسألة وقت . والواقع أنه يحتمل أن البرتغاليين لم يحصلوا على الذهب من المصادر التي ظلت غائبة ومالي زمناً طويلاً تعتمدان عليها ، وإنما حصلوا عليه من مناجم جديدة في مناطق الغابات المطيرة التي تمتد مباشرة وراء السافانا الساحلية ويبدو . أن اكتشاف هذه المناجم ، إلى جانب وصول الأهالي الزنوج إلى الساحل ، لم يحدث إلا قبل مجيء البرتغاليين بسنوات قلائل .

إن الاضطراب الديني والسياسي في السودان ، والذي استمر منذ أيام المرابطين في القرن الحادي عشر إلى الاحتلال المراكشي ، شجع بعض الزنوج من غير المسلمين على التحرك إلى المناطق الواقعة خارج سلطان الإمبراطوريتين القويتين . ويحتمل أن الفوضى ذاتها أسهمت في قيام تنظيمات قوية من أجل الدفاع العسكري ، بين القبائل المقيمة غرب وجنوب وادي النيجر الغني ، فظهرت اتحادات قبلية تنسم بالكفاءة بين شعب الأجان في غانة الحديثة ، كما بدأ الزنوج غير المسلمين يتوغلون بأعداد كبيرة في الغابات المطيرة ( حيث اكتشفوا الذهب أيضاً ) ويستوطنون على طول ساحل غينيا .

إننا نفتقر إلى المعرفة بشأن التطورات الدقيقة التي وقعت على امتداد هذا الساحل ، ولكن في الإمكان أن نوحى ببعض المعالم الرئيسية العامة . فالظاهر





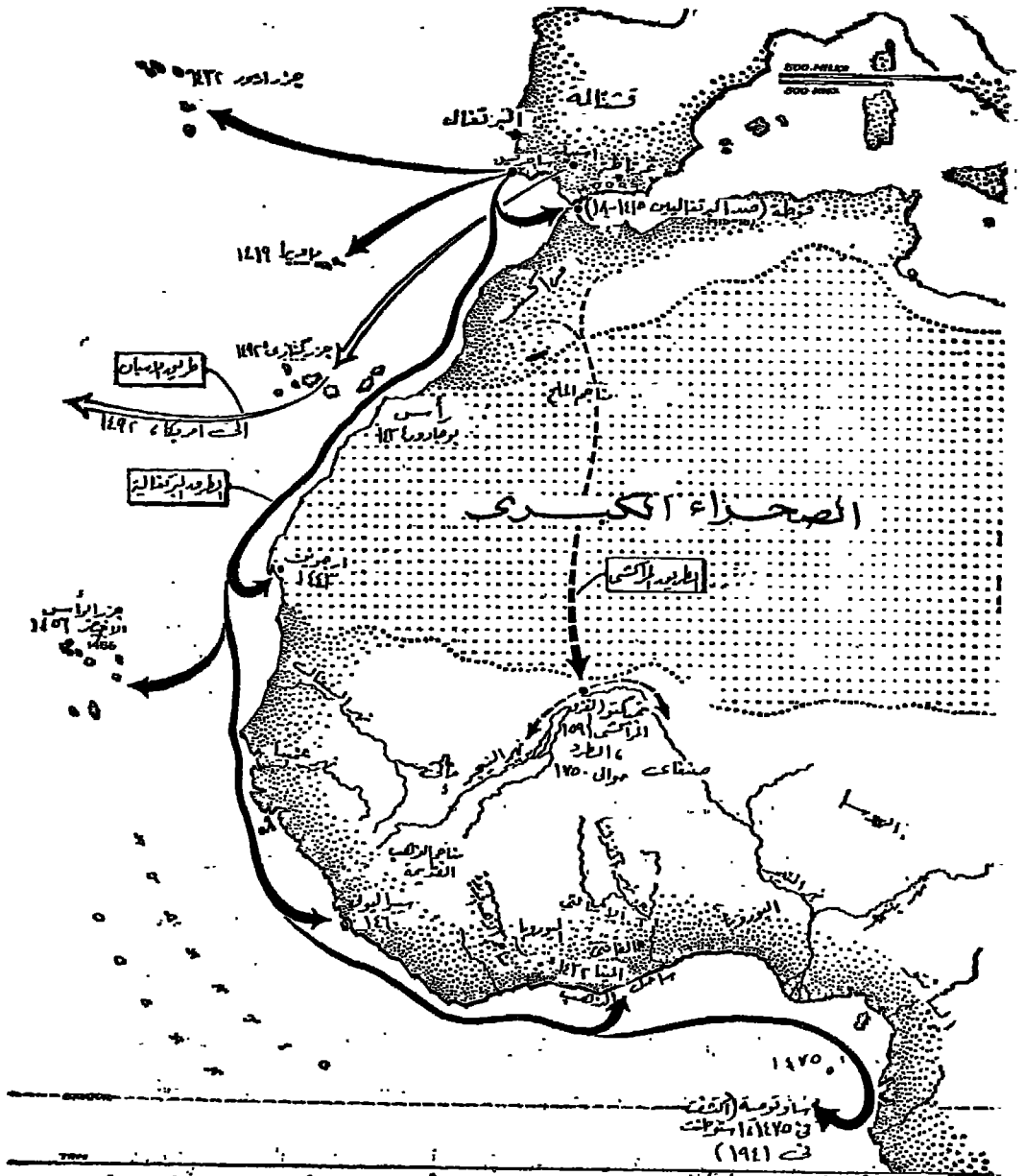
## الهجرات الزنجية

بموساهل غينيا (بطريق الحدس) من القرن الأول إلى القرن الخامس هـ

أن الزوج الذين كانوا يتميزون بالسهولة البالغة في تصنيع الحديد ، انتقلوا إلى المنطقة الواقعة غربى دلتا النيجر منذ أكثر من ٢٠٠٠ عام خلت — أى في نفس الوقت تقريباً الذى بدأ فيه انتشار الزوج من الناطقين بلغة الباتو ، شرقى الدلتا — وأقاموا عدداً من المجتمعات الصغيرة المستقلة . وفيما بين عامى ٩٠٠ ق . م ، ٢٠٠ ميلادية سادت حول نوك فى السافانا الجنوبية سهولة رائعة فى نحت رسوم صغيرة للإنسان .

كان مجتمع نوك يمثل انتقالاً من الخشب والحجارة إلى الحديد فى أفريقية الغربية ، وكانت موضوعاته طليعة الأشكال الفنية التى اتخذت فيما بعد لتلائم الطين المحروق والوسائل البرونزية فى وسط نيجيريا وجنوبها الغربى . ونمت ثقافة بنين وهى من سلالة ثقافات نوك ، استخدام الحديد حتى وصلت به إلى مستوى رائع حوالى عام ١٤٠٠ ، وأنتج فنانوها صوراً بشرية وسماوية تقدر قيمتها بسبب طابعها الجمالى أكثر من منفعتها . وثمة مجتمعات أخرى وبخاصة اليوروبا ومواليهم ، وأهل داهومى ، نجحت بشكل خاص فى عمل الآلات . وعندما اشتدت الضغوط من جانب السودان التأثير حوالى عام ١٥٠٠ ، شجعهم ذلك على تكوين الأحلاف بقصد الدفاع العسكرى ، وأصبح هذا الفن عبارة عن صناعة الأسلحة . وتدهورت حضارة بنين فى القرن السادس عشر إزاء الضغط العسكرى من قبل اليوروبا الذين أنشأوا حديثاً حكومة مركزية ، وبسبب التعديلات الثقافية التى أدخلها التجار ورجال الإرساليات البرتغاليون .

وفى الشرق والشمال الشرقى من دلتا نهر النيجر ، وبين الباتو وغيرهم



**افريقيّة الغربيه التنافس الاقليمي في القرنين الخامس عشر والسادس عشر**

من الأقوام الزنجية في مرتفات الكمرون وحولها ، لم يتطور التنظيم على مثل هذا النطاق أبداً بالرغم من أن معظم هؤلاء القوم لا بد أن وجدوا في هذه المنطقة طيلة آلاف عدة من السنين . وفي السافانا شالي المرتفعات استوطن الزنوج منذ أزمنة ما قبل التاريخ ، ولعل السكان الأوائل جداً كانوا من اليوروبا والداهوميين ، وتحركوا عبر النهر إلى غرب نيجيريا حوالى الوقت الذى ظهر فيه المسيح . وكان الهوسا ثانياً شعب نعرف أنهم أقاموا هناك ، وهؤلاء وصلوا في حوالى القرن العاشر . ومن المحتمل أنه كان هناك بعض الباتو في نيجيريا الشمالية — ولا تزال بقاياهم متناثرة هناك — ولكن معظم توسع الباتو كان في اتجاه الجنوب ، لا الشمال ، من الكمرون . ومن الممكن القول بأن شعب جا الذى يعيش الآن على طول المجرى الأدنى من نهر الفولتا ، كان هنا ، ويبدو أن تاريخهم تضمن إقامة في نيجيريا الشمالية حيث بدأوا يهاجرون منها منذ حوالى ٩٠٠ سنة خلت .

ويعتقد الجاهل أنهم وصلوا في منطقة الفولتا حوالى عام ١٣٠٠ ، بينما تذكر معظم الروايات أن شعب الأجان وفد من الحافة الجنوبية لغانة القديمة أو مالى إلى الحافة الشمالية لإقليم الغابات المطرية في غانة الحديثة بين عامى ١٢٠٠ ، ١٤٠٠ . ولعل قبائل أجان التى توغلت في الغابات وأطلقت على نفسها اسم الأشانتى ، قد اكتشفت الذهب في القرن الخامس عشر ، وبدأت تكون أجلاً عسكرياً في القرنين السابع عشر والثامن عشر . ودارت قبائل أخرى من الأجان يقال لها فاتى حول الغابات ، واستوطنت تلك الشقة المغطاة بالسافانا في ساحل الذهب . غربى شعب جا مباشرة ، ولكن كم من هذه الروايات يمكن تقبلها ؟ وإلى أى

حد كان في الإمكان أن تمتزج قبيلة مهاجرة بأخرى أو بالسكان الأوائل الذين كانوا مقيمين في المناطق التي جرى اجتياحها ؟

والعلومات عن الهوسا قليلة نسبياً ، فبالرغم من احتفاظهم بسجلات مكتوبة فإن معظمها دمر في ثورة قاد بها المسلمون منذ ١٥٠ سنة خلت . ويبدو أنهم من الغزاة البربر — أو ربما من اللاجئين الفارين أمام الغزوات العربية ، ففرضوا سلطانهم على الشعب الزنجي الوطني الذي كان يشتغل بالزراعة . وكان الهوسا تجاراً على درجة جيدة من النظام ، ونظموا أنفسهم على هيئة سلسلة من مدن كل منها تمثل حولة ذات سيادة . وقام تحالف بين الملوك ويروقراطية ثابتة الدعائم ، ساعد أقلية فاتحة في الإبقاء على سلطانها على جماهير الشعب من أبناء البلاد . هذا الشكل من الحكم تأثر إلى حد كبير بتعاليم القرآن في تاريخ مبكر جداً ، ولكن الحكام أو الجماهير لم يتقبلوا الإسلام ديناً لهم إلا بصورة جزئية وبيطء . وتخصص الهوسا في عمل القماش الرقيق والمصنوعات الجلدية والعبيد الذين كانوا يصطادونهم أو يشترونهم شرقي دلتا النيجر . وكانت تلك « المدن الدول » تتجر عبر الصحراء مع الإمبراطوريات القائمة على امتداد النيجر الأوسط ومع زنوج اليوروبا وجا . فهل كان الجا إذن من اللاجئين الذين فروا بصورة جماعية من وجه الفاتحين الهوسا ، واصلوا علاقاتهم التجارية ولكن احتفظوا باستقلالهم ؟

من الصعب القول ، إذا كان الزنوج عاشوا بأعداد لها شأنها في الغابات المطيرة قبل القرنين الرابع عشر أو الخامس عشر ، ولكن من الصعب

بالمثل الاعتقاد بأن الأجان كانوا الاجئين بأعداد كبيرة وفدوا من ناحية الشمال البعيد . إن لغتهم قريبة جداً من لغة جير أنهم من أهل الغابات وهي مختلفة جداً عن أى شيء معروف في وادى النيجر الذى يزعمون أنهم قدموا منه . غير أن هذا لا يعنى أنهم كانوا بالضرورة يعيشون في شمال منطقة الغابات أو جنوبها ، ولا يعنى أنهم لم يتعرضوا لأية مؤثرات واردة من الشمال الأقصى .

قد يكون الجواب بالنسبة إلى كل من الجا والأجان أن القوم الذين كانوا يتكلمون هذه اللغات عاشوا زمناً طويلاً على الحافة الجنوبية للسافانا شالى منطقة الغابات المطيرة وبعيداً عن الساحل ، ولكنهم تلقوا في زمن أحدث سيلاً من التقاليد والأشكال التنظيمية، بل وأرستقراطية حاكمة من الأماكن التي يزعمون أنهم هم نشأوا فيها في الأصل . وبعد ذلك اكتسبوا بدورهم بسالة عسكرية ، وارتدوا منذ حوالي عام ١٥٠٠ نحو الساحل والغابة المطيرة بوصف ذلك وسيلة لتفادي الضغط المتزايد من جانب الإسلام ، والاضطراب الناشب في وادى النيجر .

وثمة رأى يوازى هذه الإمكانية مع تعقيد أقل بدرجة طفيفة ، قد تلقاه في الزنوج من أبناء الغابات المطيرة بساحل الصاج الحديث وليبيريا وسيراليونى . ففى كل هذه المناطق المغطاة بالغابات يظهر أن التوغل تم على صورة أعداد صغيرة وفي زمن متأخر نسبياً ، وعلى أيدي الجماعات الأقل تقبلاً للتنظيم المركزى أو الإسلام . وقد يبدو أنهم غادروا السافانا على غير رضاه منهم ، كى يهربوا من الإسلام والحكم القوي، ولكنهم لم يتعرضوا للتأثير أو يشعروا بالضغط ، مما أرغم الأجان على إنشاء المحالفات والأحلاف .

« وهناك مجموعة متفرقة غير مترابطة أفريقية من السنغال إلى دول الهوسا يقال لها الفولاني، وكانوا من البنو الزنجل، ونادراً ما أقاموا دولة لأنفسهم وإنما عاشوا كشمب يتمتع بالحماية في المجتمعات الكثيرة القائمة في أقاليم السافانا، الجنوبية والوسطى. وهم يزعمون أنهم من سلالة بيضاء وهو زعم حاول العلماء الأوائل تبريره عن طريق ربطهم بالبربر، ولكن الرأي الحديث<sup>(١)</sup> يؤيد وجهة النظر التي تذهب إلى أنهم أصلاً من الزنوج الذين نشأوا على مقربة من الطرف الغربي لإفريقية. ولقد ظلوا قرونًا يقاومون الإسلام، ولعل ذلك أو ميلهم الرعوى وحده هو الذي شجع على هجرتهم المتدرجة. ما من شك أن بعضهم كانوا على الحافة الجنوبية لغانة القديمة حين هاجم المرابطون تلك الإمبراطورية، ويبدو أن انتشارهم زاد حوالى ذلك الوقت إذ وجدوا على هيئة أقليات محمية في مختلف الدول التي قامت في السافانا من السنغال إلى بلاد الهوسا، وفي أثناء الفوضى التي ارتبطت بالفتوح الراكشية في القرنين السادس عشر والسابع عشر بدأوا يلعبون دوراً هاماً في سياسة الدول الصغيرة التي قاومت الولاة من أبناء أفريقية ووجدت منهم جماعات كبيرة بوجه خاص، حوالى ذلك الوقت في فوتالون (في داخل غينيا الفرنسية الحديثة) وفي بلاد الهوسا، وفي كلا الإقليمين كانوا ما يزالون أقلية رعوية ووثنية، بالرغم من أن نسبة طيبة منهم ممن أقاموا بين الهاوسا كانوا في المدن اختلطوا بالقبائل الأخرى عن طريق المصاهرة حيث اعتنقوا الإسلام. وفي معظم الأحوال عاش الفولاني البقارة على وفاق مع أبناء البلاد اللشغلين بالزراعة.

---

Joseph H. Greenberg. *Studies in African Linguistic* (1)  
Classification, New Haven, 1955, pp. 24—32

وإذا استثنينا سكان السواحل ، فإن الكشف والتوسع الأوربيين .  
لم يكن لهما تأثير مباشر على الحياة الدينية إلا بعد اقتضاء ثلاثة أو  
أربعة قرون .

ومهما يكن من أمر ، فالتأثير الأجنبي غير المباشر بعد حوالي عام  
١٤٥٠ ، أدى إلى تغييرات عميقة حولت بشكل جوهري مجرى التاريخ في  
غرب إفريقيا .



## عالم الرق

وجد الرق — وهو اقتناء البشر كمتاع شخصي — في إفريقية كما في أجزاء العالم الأخرى — منذ عصور ما قبل التاريخ . وكان في مراحل المبكرة ظاهرة صغيرة نسبياً ، معتدلة المدى ومنطقية ، إذ كان الاسترقاق وسيلة للتحكم في المجرمين والساخطين وأسرى الحرب ، واستخدامهم بطريقة إنتاجية في مجتمع رحالة يفتقر إلى الحكومة الموضوعية والسجون الدائمة لتنفيذ القانون . ولأسباب عدة لم يكن الإنكار الكلي للإنسانية والشخصية — وهو الإنكار المرتبط في العادة بالرق — موجوداً فمن جهة لم تكن لدى المجتمعات الإفريقية فكرة دقيقة عن حقوق الملكية الخاصة ولهذا كانت الحقوق الشخصية للمبيدوا أحوالهم العامة تحميها قوة القانون التقليدي ومسئولية الجماعة . كذلك كان الرق عادة لفترة زمنية معينة تتناسب مع طبيعة الجريمة أو ظروف الأسر — بدلا من أن يكون حالة طابعها الدوام ، كما كان في الإمكان أن يكسب العبد حرته بفضل حسن سلوكه أو بالشراء . وكان المالك مسؤولاً عن المحافظة عليه وحمايته ، ومقابل هذا يؤدي العبد قدراً محدداً من العمل بغير أجر . غير أنه كان يستطيع في وقته الحر أن يفتني المتقولات التي يشتري بها حرته ويعود فينلجج في المجتمع كمضو في مرتبة طيبة .

هذه الظروف الخفيفة من وطأة الاسترقاق ظلت سائدة طالما كان العبد

لا يباع أو يتجر فيه إلا مع المجتمعات المجاورة التي تسير وفق قانون مماثل ، ونشأت الصعاب والمساوى أصلاً حين يبع العبد إلى مجتمع يدين بفكرة الملكية الشخصية التي لا تقبل الانتهاك وفكرة العبودية الدائمة . مثل هذه الأحوال فيها الزوج الذين كانوا يباعون إلى العالم القديم في حوض البحر المتوسط ، وحتى هناك كان السلوك الحسن وتجميع الممتلكات الشخصية مما يمكن استغلالهما لصالحهم . وبانتشار الإسلام قام شكل من الرق أشد قسوة نوعاً ، إذ بالرغم من أن القرآن أوصى بالعاملة الإنسانية ، فإنه لم ينص على مسئولية الجماعة عن أحوال الأسرى وحماية حقوقهم ، ممن لم يكونوا من المؤمنين بالله الحق . لقد سمح بوجود الخلاء والملكية الدائمة والإنكار الكلي لحقوق الملكية ، ولهذا تحول الاستعباد إلى نقي جذري لإنسانية الضحية .

هذا النمط من الاستعباد الكلي ظهر في شمال إفريقية ومصر الإسلامية ، عند القرن السادس عشر حين زاد حجم الاتجار في الرقيق نتيجة سيطرة المستوطنين العرب على نهاية التجارة الصحراوية على البحر المتوسط ، وانتشار الإسلام في السافانا تحت لواء المرابطين ، ويحتمل أن معظم العبيد كانوا من أسرى الحروب وضحايا الغارات الذين كانت تأخذهم إمبراطوريات إقليم السافانا من القبائل الأقل منها تنظيمياً ، والمقيمة على امتداد الحافة الشمالية لمنطقة الغابات . ويبدو أن أكبر مصدر للتوريد بعد تطبيق القانون الإسلامي في دول الهوسا ، كان الزوج وبخاصة الباتو الذين لم يهاجروا إلى حوض الكونغو الذين يعيشون جنوبي شرق بلاد الهوسا ، وكانوا يتكوتون من قبائل صغيرة تفتقر إلى التنظيم الدفاعي ويمكن حثها على الاشتباك في الحروب فيما بينها حتى يقتلن توفير الأسرى للتجار المسلمين . واشتد الطلب على العبيد في الأسواق

الواقعة فيما وراء الصحراء ، بعد انحلال الإمبراطورية البيزنطية وسقوطها في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، إذ كان الفانجون الأتراك في حاجة إلى جماعات تابعة لهم ، حتى يقسني لهم الاحتفاظ بحكمهم على السكان المسيحيين . وارتقى كثيرون من العبيد الزوج فشفلوا مراكز إدارية رئيسية في ظل السلاطين بالآستانة ، ولكن الخصاء كان مطلوباً دائماً للحيولة دون قيام مصالح وراثية قد تنازع الأتراك سلطانهم . وكان الموردون من الهوسا الذين ضمنت لهم هذه السياسة سوقاً دائماً ، نشيطين بوجه خاص في إعداد هؤلاء الخصيان للرحلة إلى الأنواق .

وكان الرق البسيط موضع الممارسة أيضاً بين البانتو الذين هاجروا عبر الغابات من الكمرون خلال العصر المسيحي . وحالت المنافسة الحادة على احتلال الأراضي الواقعة عند خط تقسيم الكونغو والسيطرة عليها ، إلى خلق سلسلة من القبائل المنظمة نسبياً ، والتي كان ينجح بعضها في اجتياح جيرانه من وقت لآخر . كان من الجائز استرقاق بعض الأسرى الذين يؤخذون في أمثال هذه الصراعات ، ولكن يَحتمل أن أعظم مورد لهذا المتاع كان يتمثل في العبيد الذين تسلمهم القبائل التي أخضعت بوصف ذلك جزية مفروضة عليها . لم تكن هناك سوق أو تجارة بالنسبة إلى هؤلاء الأسرى ، ولكن إذا أمكن إدماجهم في أهل القبيلة المنتصرة أمكن أن تعظم سلطة الزعيم الحاكم ، في داخل تلك القبيلة وفي جميع أرجاء المنطقة .

ويحتمل أن المستكشفين والتجار البرتغاليين الأوائل اشتروا أولى شحناتهم من العبيد من التجار المسلمين المقيمين على سواحل السنغال وموريتانيا في أواسط

القرن الخامس عشر . ولما مات الأمير هنرى الملاح فى عام ١٤٦٠ كان يجرى شراء الزوج من الوسطاء الزوج والبربر بين نهري السنغال وغينيا ، كما كان عدد قليل يؤسر عن طريق الغارات التى تشن كيفما اتفق عند الطرف الشمالى الغربى لمنطقة الغابات ، ولكن هذه العملية كانت تكلف الأوربيين الكثير من الرجال والمال ، بخلاف التبادل السلمى . وبعد عام ١٤٨٢ ، حين استقر البرتغاليون فى إلينا على ساحل الذهب ، وضعوا التأكيد على اقتناء الذهب ، وكان فى الإمكان إيجاد العدد الكافى من العبيد فى أما كن أقرب إلى البرتغال ، حول الرأس الأخضر ، لإشباع الطلب الأوربى . وفى إلينا عقدت معاهدات مع قبائل الفانتى القاطنة على امتداد الساحل ، وتنص على مبادلة الذهب بالملح والقماش والتطعم المصنوعة والآلات . كانت العلاقات - رة وودية بدرجة معقولة طنانا لم يحاول البرتغاليون أن يتخطوا هذه القبائل الوسيطة ليستغلوا المناجم أو ليتصلوا اتصالاً مباشراً بالمنتجين من شعب الأشانتى فى الداخل .

وزار بعض رجال الإرساليات الدينية والتجار بنين غربى دلتا النيجر ، ولكن الاهتمام بهذه الجهة كان قصير الأمد . وسار البرتغاليون بعيداً على الساحل — وكانوا الآن يبحثون عن مملكة برسترجون المسيحية التى تحدثت عنها الأساطير ، وعن طريق إلى الهند — فاتصلوا بشعب الباتو فى الكونغو . وفى عام ١٤٨٣ طلب حاكم مانيكونغو التى تصادف أن كانت القبيلة التى لها الغلبة ، المساعدة فى المحافظة على سلطته ، وأعرب عن اهتمامه بالمسيحية . وتم اكتشاف رأس الرجاء الصالح بعد ذلك بأربع سنوات ، ولكن نشاط البرتغاليين تحول إلى مانيكونغو قبل أن يتجهوا نحو الشرق . وفى ربيع عام ١٤٩١ وصل إلى الكونغو

رجال الإرساليات والبعوثون والمستشارون الفنيون ، حامنين الصور والهدايا .  
وجرى تعميد الزعيم نزينجا كـنـوـو Nzinga Knewu باسم الملك يوحنا  
الأول ، وعقدت محالفة مع يوحنا الثاني ملك البرتغال بوصفها بين عاهلين على  
قدم المساواة ، وأنشئت مستعمرة أوروبية صغيرة في مبانزا ، وهي المقر القبلي  
والواقعة على مسافة ١٢٥ ميلا في الداخل . وساعدت قوات مانيكوتفو في  
إخماد ثورة ولكن عندما أصبح يوحنا الثاني أكثر اهتماماً بالهند ، بدأت  
مملكة الباتو ترد ، فراجع رجال الإرساليات إلى الشاطئ فنع ولي المهذ  
مبيمبا أ - نزينجا ، الذي أصبح بعد عشر سنوات في المنفى ، برتغالياً متفقاً ،  
قد انقطعت صلته تماماً بأساليب الباتو .

وفي أثناء المنفى بدأ الساخطون البرتغاليون الذين أبعدهوا ، يدخلون زراعة  
قصب السكر في جزيرة ساو توميه الاستوائية غير السكونة والتي تقع على مسافة  
٦٠٠ ميل شمال غرب الكونفو . لقد جاءوا أولاً إلى البر في حوالي سنة ١٥٠٠  
لشراء العبيد للعمل في مزارعهم ، ووجدوا بين اللاجئيين من المانينكوتفو  
موردين على استعداد لسد حاجتهم ، واتخذ مبيمبا أ - نزينجا اسم ألفونسو الأول .  
بعد وفاة والده ، وأخضع الحكام الوثنيين الذين اغتصبوا ميراثه ، وأطلق على  
عاصمته مبانزا اسم ساو سلفادور . وجاء مزيد من رجال الإرساليات في ١٥٠٨  
لدعم برنامج ألفونسو في إدخال الحضارة الأوروبية ، ولكن نادراً ما جرى بعد  
ذلك تذكر ألفونسو . وتحول النشاط البرتغالي إلى غزو المحيط الهندي في عام  
١٥٠٩ ، أما رجال الإرساليات الذين كان أكبر اهتمامهم منصباً على الجواربي  
والعبيد منه على تحويل الوثنيين إلى المسيحية ، فأخذوا يموتون بالتدريج .

وفرض صاحب امتياز ملكية مزارع ساو. توميه الرقابة على الاجتجاجات والنداءات التي كان ألفونسو يبعث بها إلى اشبونة ، وأصدر إيمانويل ، ملك البرتغال الجديد ، أوامر نموذجية لتصحيح الموقف ولكن لم يتمكن من فرض إرادته على رعاياه. وظل ألفونسو يمثل إلى حد كبير الدافع على التقدم ، فأقيمت في ساو سلفادور المباني على الطراز الأوربي ، وأرسل أبناء ائمهاء للدراسة في البرتغال — ودخل ابنه في خدمة الكنيسة وأصبح أسقف الكونغو وهو الزنجي الوحيد الذي فعل ذلك حتى العصور الحديثة -- ولكن ساو توميه استرقت الكثيرين ممن كانوا قبلا من الطلاب . وحاول ألفونسو أن يقوى الإرساليات ، ولكن ظل الاستعراض التقليدي القائم على شن الحروب لاقتضاء الجزية ، يسود بلاده . كان واضحا أن الأسرى الذين يقعون في أمثال هذه الحملات ، مرشحين للشحن إلى ساو توميه ، وهو أمر لم يلق إليه ألفونسو بالابنوع خاص . كان معتادا على شن الغارات من أجل الحصول على العبيد ، وصدق بإخلاص البرتغاليين حين وعدوا بمد مرابا التحول إلى دينهم إلى هؤلاء القوم .

وظهر تجار ومبشرون برتغاليون جدد في بلاد المانيكونغو خلال الثلاثينات من القرن السادس عشر ، ولكن بسبب دسائسهم الشخصية أبقوا الملكة في اضطراب مقتعل لم يكن في وسع أي ملك كنفى أن يتحكم فيه ، وظلت الأسرة الباثوية المسيحية قائمة حتى القرن السابع عشر . كان مقر أسقف الكونغو — من الناحية القانونية — وهو الآن برتغالي أبيض — كاتدرائية ساوسلفادور المبنية على الطراز البرتغالي حتى سنة ١٦٧٦ ، ولكنه كان يقيم في المادة على ساحل أنجولا . ومن حين لآخر كانت ترسل بعثات

دينية جديدة إلى ساوسلفادور — وقامت هيئة كلية بتدريب عدد قليل من القساوسة الأفريقيين هناك. وفي منتصف القرن السابع عشر كان الملك أيدريج في عداد المسيحيين — ولكن مملكة الكونفو كانت تؤدي الجزية إلى البرتغال بعد ١٥٧٠، وارتد أهلها إلى الوثنية بحلول ١٦١٥، وزالت البقايا الأخيرة لساوسلفادور والأسرة المالكة في مانيكونفو قبل عام ١٦٩٠، واستمرت البرتغال في اعتبار البلاد حليفاً ذا سيادة حتى عام ١٨٨٣، ولكن كل ما تذكره الباتو في ذلك الوقت كان اسم ألفونسو وتجارة الرقيق، وبعض التعاويذ الغامضة ذات الأصل المسيحي.

كانت التجربة رائسة، ولكن لم تتمكن البرتغال ولم يستطع ملوك مانيكونفو فض النزاع بين القيم الأوروبية والتقليد الأفريقي. فمن جهة، أراد ألفونسو والحكام البرتغاليون أن يخلقوا دولة سياسية متمسكة ذات نظام مركزي للحكم، تعتنق المسيحية وتتولى الإدارة فيها البيروقراطية، وتسير وفق النظم القانونية والثقافية الأوروبية. ومن جهة أخرى واصل الطرفان تقبل نظام الباتو القائم على اللامركزية والمكون من دول تابعة، ينتج المبيد ويشجع الفن ويحول دون الاستقرار الدائم. وبالرغم من النوايا النبيلة في لشبونة فضل التجار ورجال الإرساليات البرتغاليون تشجيع الفن، وأسلوب الباتو في اقتضاء الجزية ونظام الرق الذي تولد بسببه، بل ولم يكن بأمر ذي بال أن تجتاح قبيلة أخرى أراضي المانيكونفو، إذ كان في الإمكان الحصول على المبيد من أي زعيم قبلي يحرز النصر، وكان المورد أوفر إذا اسم الموقف بأعظم قدر من الفوضى. ومن هنا كانت تجارة الرق الثمرة الدائمة الوحيدة التي أسفر عنها مشروع الكونفو.

وفي أوائل القرن السادس عشر ، خلال حكم ألفونسو وألمع فترة في تاريخ التجربة الكونفولوية، اقتصرت سوق الرقيق على مزارع جزيرة ساوتومييه. وكان البرتغاليون والإسبان في سانتو دو مينجو يحصلون على حاجاتهم مباشرة من قبائل السنغال وجامبيا. لكن بعد عام ١٥٣٠ ، ترتب على توسع الإسبان في كوبا والبر الأمريكي ، إلى جانب إقامة البرتغاليين في البرازيل التي كانت تعاني من الفقر في عدد السكان ، أن نشأت أسواق جديدة لتعبيد الإفريقيين ، لم يكن في الوسع إشباع حاجتها عن طريق السنغال وجامبيا وحدهما . وقبل عام ١٥٥٠ بدأت مناجم الذهب القريبة من إلينا تنضب فتحول الوسطاء من شعب الفانتى إلى توريد العبيد للأمريكتين . وكان تجار الرقيق يسدون حاجتهم أيضاً من بنين ، وإن ركزوا أعظم الطلب على المانيكونغو حيث سرعان ما طغى اعتماد اقتصاد البلاد على الرق على تأثير الثقافة الأوروبية .

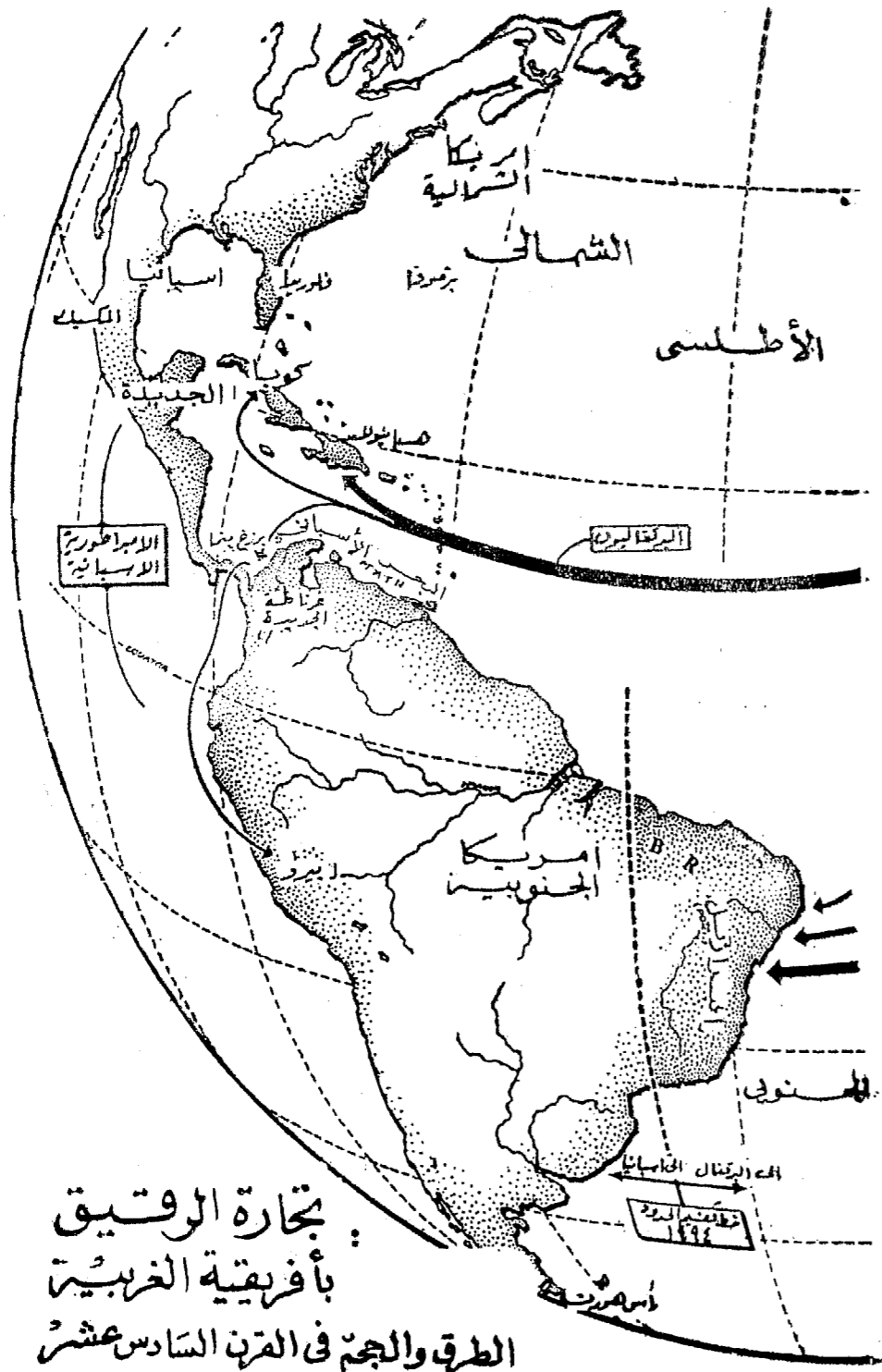
وكانت مصالح البرتغال التي تفاعرت بانتصاف القرن على شواطئ المحيطات الثلاثة، تشكل استنزافاً خطيراً لقوتها البشرية المحدودة. فكانت لها اختكارات تجارية ومزارع وإرساليات دينية في البرازيل ( السكر ) ، وفي السنغال وجامبيا وساحل الذهب والكنغو (العبيد) ، وإفريقية الشرقية والخليج الفارسي والهند والملايو وجزر الهند الشرقية والصين واليابان ( التوابل والسلع الترفية ) . كذلك كانت السفن البرتغالية تزود إمبراطورية إسبانيا في أمريكا بالعبيد ، وحاول التجار التسلط على التجارة المحلية في المحيط الهندي وشرق آسيا ، واستمرت الحملات الباهظة التكاليف توجه إلى العرب في مراکش . وفيما عدا البرازيل ، كان من الضروري نبذ معظم المحاولات من أجل التسرب إلى الداخل ، ولهذا زاد الاعتماد على الجزر القريبة من الساحل حيث كان في الإمكان



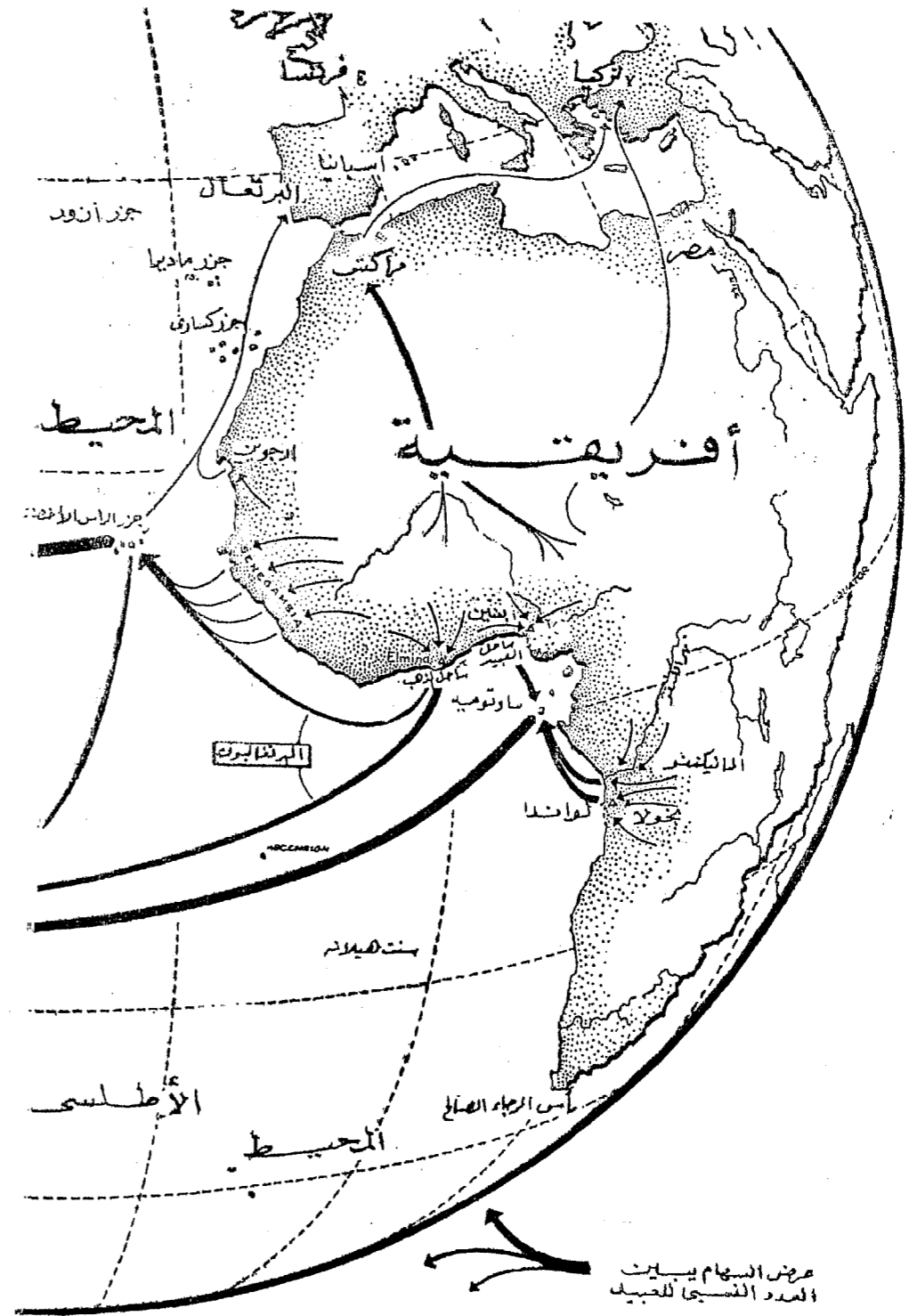
حماية الجاليات البرتغالية الصغيرة ، من الهجوم والمرض . وعلى الساحل الإفريقي المثل على الأطلسي كانت إلينا المحطة الوحيدة على البحر ، وأوقفت رسمياً الإرساليات والمراكز التجارية في الكونغو وبنين والسنغال وغينيا . وانتقل التأكيذ إلى جزر الرأس الأخضر وساوتومييه ، وأصبحت الاقناتن حظائر مؤقتة للعبيد ، ولكن ساوتومييه أقامت أيضاً اقتصاداً مجزياً يستند إلى زراعة القصب التي سيطر عليها نفر قليل من ملاك الزارع الأوربيين ممن عاشوا في بنسخ وترف . واستمر الطلب من جانب الجزيرة على العبيد ، ولكن الزارع الأكبر حجماً والملوكة في البرازيل صارت أعظم أهمية بكثير .

وكانت قسوة المناخ الاستوائي ، بالإضافة إلى الخوف من إفقار الوطن الأم من أهله ، علملاً يحول دون هجرة النساء الأوربيات ، ولهذا اعتمد بقاء البرتغاليين وتكاثر عددهم على الزواج مع الأجناس الأخرى في جميع أنحاء الإمبراطورية . والواقع أن امتيازاتهم الوراثة كانت أشد وضوحاً من ثقافتهم الأوروبية .

وبرغم أن البرتغال لم تكن قادرة ولا راغبة في التورط البعيد المدى في إفريقية ، كان من الضروري وجود شكل ما من أشكال الرقابة والاتصال بالنسبة إلى ذلك المصدر الجنوبي الذي يزودها بالرقيق . لقد درج المانيكونغو على ادعاء السيطرة على المنطقة الواقعة جنوبي ساوسلفادور . والمعروفة باسم أنجولا ، ولكن تضاؤل قوة البانتو كان قد وضع حداً لاقتضاء الجزية البشرية هناك ، وفي عام ١٥٧٦ طبق بلاط لشبونة نظام منح امتيازات التملك السائد في ساوتومييه والبرازيل ، على المنطقة الساحلية غير المنظمة ، ولكن رغبة في الحيلولة



تجارة الرقيق  
 بأفريقية الغربية  
 الطرق والجم في القرن السادس عشر



عرض الأسهم يبين  
 التمدد النسبي للعبيد

دون تبديد الجهود وإشاعة الاضطراب فيها ، طالب الملك بالحكم المباشر على قبائل البانتو المنقسمة على بعضها ، وعلى استغلال المزارع . فأنشئ في لواندا حصن ساحلي قوى يضم مخزناً يستقبل العبيد، واستخدمت الوحدات العسكرية بكثرة إما لإرغام الزعماء على بيع المسجونين أو للحصول على العبيد مباشرة ، وأخفقت في العادة المحاولات التي بذلت في سبيل تنمية المزارع إذ كانت تجارة الرقيق أوفر جزاء، وتضائل الأمل في اكتشاف مناجم لها قيمتها كلما طرد ارتياد البلاد واستكشافها . لقد حلت أنجولا في ظل السيطرة البرتغالية المباشرة ، محل منطقة الكونغو الجزية وإن افتقرت إلى التنظيم وذلك بوصفها المورد الرئيسي لتلك الشحنات من أبناء البشر .

وقتل الملك الطائش سيباستيان الأول وهو يحارب المر الكشيين ، وهنا انتقل التاج البرتغالي في عام ١٥٨٠ إلى فيليب الثاني ملك إسبانيا الذي كان اهتمامه بإفريقية والبرازيل والشرق دونه بالنسبة إلى المكسيك وبيرو . أما الأراضي الواطئة التي آلت إلى فيليب بعد تقسيم ممتلكات أبيه في وسط أوروبا ، فاعتنقت الإصلاح الديني ونالت استقلالاً فعلياً عن إسبانيا الكاثوليكية قبل انتهاء القرن . وإذا اعتاد الهولنديون طويلاً الصيد من البحر وتجفيف الأرض منه ، فقد كانوا في ظل حكم فيليب الموزعين في الشمال للمنتجات التي تستوردها البرتغال وإسبانيا من وراء البحار . نادراً ما أقرت الولايات الهولندية ذات السيادة هذه السياسة ، ولكن لم يكن ثمة تردد في تخلي الوسطاء الإسبان المكروهين ، من أجل استغلال الشرق وإفريقية والأمريكيتين لأنفسهم . وظهر الدخلاء في إفريقية البرتغالية والهند قبل عام ١٦٠٠ ، وسرعان ما طرد البرتغاليون أو أنشئت محطات تنافسهم .

ومنحت البراءات بالاحتكارات إلى شركتين كل منهما أقوى في التجارة والحرب من ولايات هولنده المنقسمة ، وهما شركة الهند الشرقية الهولندية وتمتد سيادتها من رأس الرجاء الصالح إلى اليابان ، وشركة الهند الغربية في المحيط الأطلسي . وبنيت السفن الهولندية وفق طراز بسيط وقياسي يجعل إدارتها اقتصادية ، وسرعان ما استطاعت أن تقوض دعائم الاحتكار البرتغالي دون أن تعرض للخطر الأرباح الخيالية التي يمكن اجتناؤها . وفضلت شركة الهند الغربية ساحل الذهب على إقليم السنغال وغينيا الأقل سكاناً ، كمصدر للعبيد . وعقدت المعاهدات مع الفانتى ، وظهرت محطات جديدة هناك وتم الاستيلاء على الحصون البرتغالية ، ولكن في المناطق الأبعد صوب الجنوب ، أي في أنجولا والكونغو ، لم يعبأ تجار الرقيق البرتغاليون بأوامر فيليب ، وقبلوا ذهب هولنده بنفس الاستعداد الذي كانوا يقبلون به عملة بلادهم الذهبية . وإذا حصل الهولنديون على موطئ قدم لهم في شمال شرقي البرازيل ، وعلى السيطرة على المستهلكين الآخرين من البرتغاليين والإسبان في العالم الجديد ، صار لهم احتكار فعلي في الشحنات التي تعبر الأطلسي ، وهو احتكار ظل قائماً حتى العقد الثامن من القرن السابع عشر ، وفتحت أسواق جديدة في جزر الهند الغربية البريطانية والفرنسية ، وكذلك في فرجينيا ، كما توغل المربون الهولنديون في سوق المستعمرات الإسبانية .

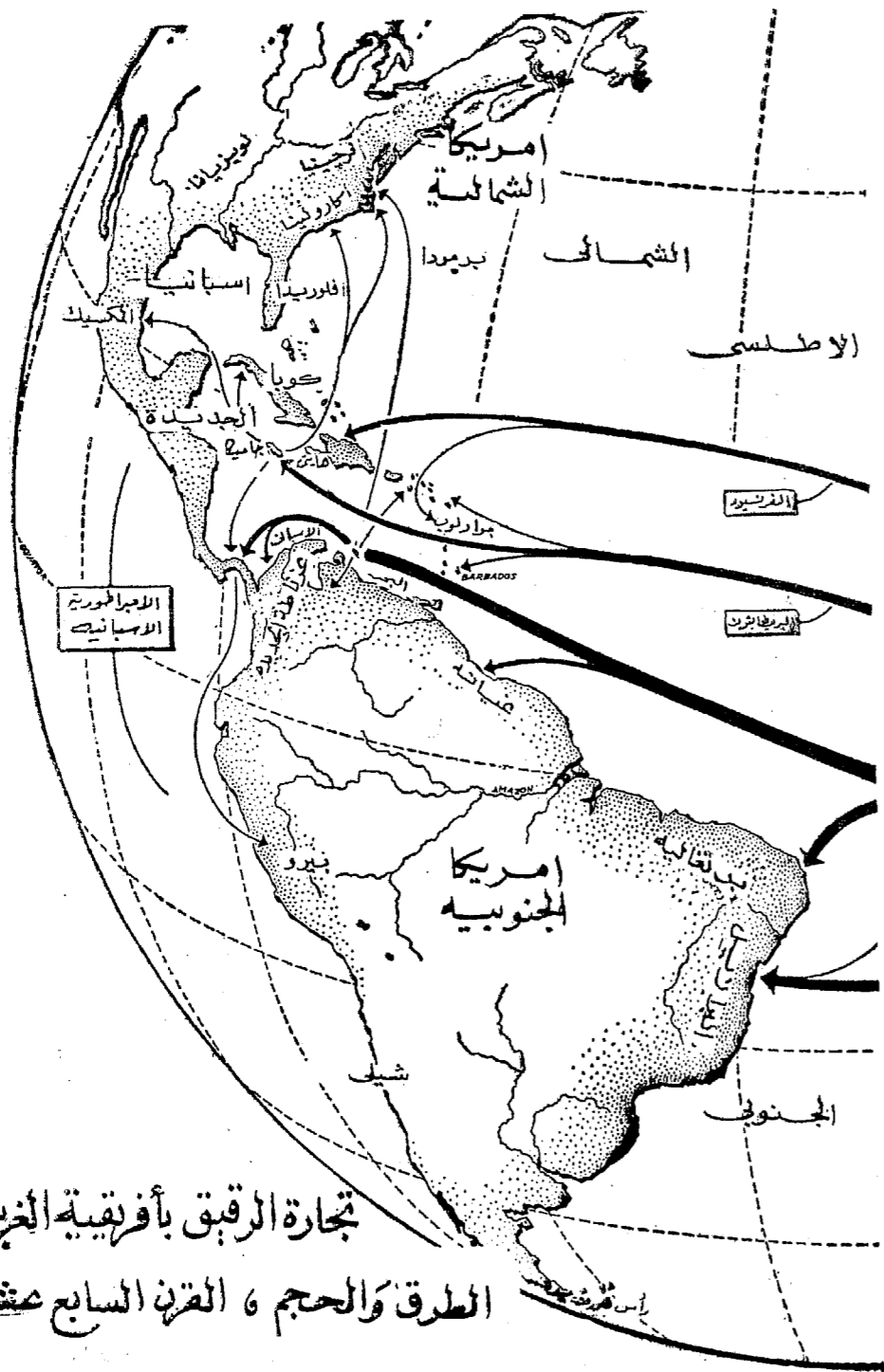
لم يكن الهولنديون يستهلكون سوى جزء يسير مما تفقه سفنهم ولذا اعتمدوا إلى حد كبير على الأسواق الأجنبية ليبيعوا فيها العبيد ومنتجات الشرق . وزاد سخط إنجلترا وفرنسا بسبب اضطرارهما إلى دفع الذهب النفيس والتعبئة نتيجة اعتمادهما على خدمات الهولنديين . وبالرغم من عجزهما عن منافسة

أصحاب السفن الهولنديين الأكفاء في التجارة الحرة ، استطاعنا إقامة الحواجز الجمركية ونحريم الاستيراد، حتى يقسنى لهما تشجيع التجار من أبنائهما. كانت هولندا أوفر عدداً وأعظم قوة من البرتغاليين ، ولكنها لم تملك من الموارد ما يكفي لتجهيز أسطول تجارى وبحرية فعالة ، وبذلك تمكنت إنجلترا من تنفيذ التنظيمات التي فرضتها لتحطيم مركز الهولنديين .

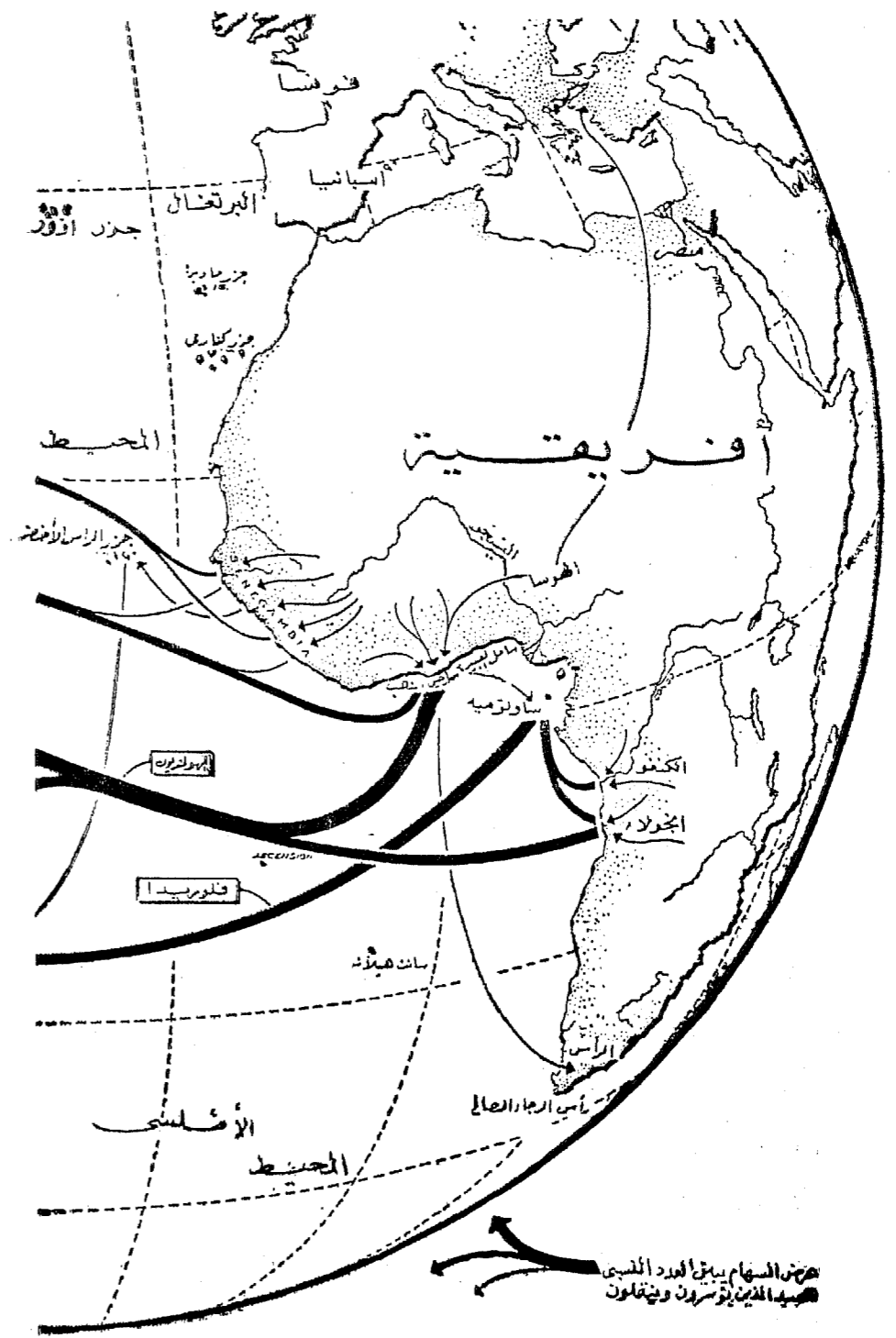
كان أصحاب السفن الخاصة من البريطانيين والفرنسيين قد عهد إليهم بصورة غير منتظمة ، ومنذ أواخر القرن السادس عشر ، بمزاولة تجارة الرقيق والهريب ، ولكن لم تكن لهم مستعمرات تابعة لبلادهم يستطيعون بها احتكار التجارة إلا بعد أن لحق الهولنديون بالسبق الذى حققه الإسبان والبرتغاليون . وعن طريق الحرب البحرية والتشريعات القيدة لتجارة المستعمرات ، فرضت إنجلترا وفرنسا سيطرة تجارية على الأقاليم التابعة لهما ، ثم انتزعا السيطرة على تجارة الشرق والمحيط الأطلسى بوجه عام . وإذ كانت إنجلترا أقل تدخلاً في الشؤون الأوروبية ، لهذا كانت أوفر حرية في التركيز على البحر ، وصارت لها اليد العليا بانتهاء العقد الأخير من القرن السابع عشر ، وانحازت عدة قبائل من الفانتى المشتغلة بتسويق الرقيق والمقيمة على ساحل الذهب إلى الدخلاء الإنجليز طواعية ضد الهولنديين المستقرين هناك ، وأبرمت العقود مع النول الزنجية من اليوروبا وداهومى التي كانت قد أخذت في الظهور وأطلق عليها جميعاً اسم ساحل العبيد . أما التجار البرتغاليون الذين ظلوا متمسكين بقدر كبير من التجارة بين أنجولا والبرازيل ، فكانوا يزودون السفن التابعة لحليفهم البريطانى القديم بالشحنات من العبيد .

وحصلت فرنسا على تلك الثروة المثلثة في الرقيق ، من النول الزنجية المستقلة على ساحل العبيد ، وعلى امتداد سواحل مختلطة ( السنغال ، غمبيا ، جابون إلخ ) مما أهملته الشعوب الأخرى . وبعد إنشاء المزارع الكبيرة الغنية في هايتي لم يعد « العهد القديم » Ancien Régime في حاجة إلى أسواق الرقيق الأجنبية ، أو إلى أرض جديدة لتنفيذ مشروعاته البحرية .

لم يشعر الأوروبيون بالكثير من وخز الضمير حول أخلاقية الاسترقاق . فبالرغم من أن امتلاك البشر ملكية خاصة كان أسوأ غير عادي للغاية في أوروبا في العصور الوسطى وعهد النهضة ، إلا أنه يمثل خروجاً على القانون . فقد تقبل معظم علماء اللاهوت والمجاملين والأشخاص المسؤولين دعوى تبحر الرقيق بأن الإفريقيين أفضل حالاً في ظل الإشراف المسيحي أفضل حالاً منهم عند الوثنيين أو الساميين من ملاك الرقيق . وقالت الحجة إنه طالما كان الرق شيئاً « طبيعياً » عند الإفريقيين فما على الأوروبي إلا أن يتأكد من أن العبد المشتري يستعبد بطريقة عادلة تتمشى مع القانون الإفريقي . غير أن هذا كان أمراً يصعب جداً تقريره ، والواضح أنه لم يكن في الإمكان الاطمئنان إلى أن العبد نفسه ينطق بالحقيقة ، إذ نادراً ما كان الأوروبيون يعرفون من الذي قام بعملية جلب العبيد ، بل ولم يقابلوا الأسرى ، وأقل من هذا كان مبلغ فهمهم للنواحي الدقيقة في قانون الاسترقاق التقليدي عند الإفريقيين . بطبيعة الحال ، كان الوسطاء أو الأسرى يدعون أن الاسترقاق له ما يبرره ، وغالباً ما كانوا يضيقون من نطاق القانون حتى يتسنى الحصول على مزيد من العبيد « بطريقة قانونية » . وكانت المنافسة بين الجماعات الإفريقية على الربح من تجارة العبيد ، عاملاً شجع على



تجارة الرقيق بأفريقية الغربية  
الطرق والحجم ، القرن السابع عشر



هذه الأسهم يبينون عدد العبيد  
الذين تم إرسالهم إلى أمريكا الشمالية

حدثت زيادة ملحوظة في الحروب وبخاصة الحروب المستميتة التي لامعنى لها ، إذ لم تمد الحرب تشن أصلاً لرفع ظلم أو اكتساب شرف ، كما لم يعد يمد منها الاتفاق المتبادل أو الشرائع الدينية . لقد تحولت الحرب في إفريقية من عملية محلية ، غالباً ما كانت ويده الطقوس ، إلى صراع مستميت من أجل غزو لامعنى له ، وللحصول على ثروة القبيلة وإنقاص عدد أفراد العدو في نهاية الأمر . لم يعد الشرف والنصر أهداف الحرب . وحتى في حالة الهزيمة في المعركة ، فإن القبيلة التي تستولى على أكبر عدد من الأسرى كانت تحقق أعظم الربح . وربما كان الأثر الناجم من هذه الثورة في الحروب أشد وقعاً على إفريقية الغربية ، حيث كانت طرق نقل العبيد وتطور التجارة قبل مجيء الأوربيين ، أشد تعقيداً ؛ ولكن الأثر كان عميقاً أيضاً في الكونغو وأنجولا بالنسبة إلى الفلاحين والرعاة البانتو الذين وصلوا حديثاً إلى هذين البلدين .

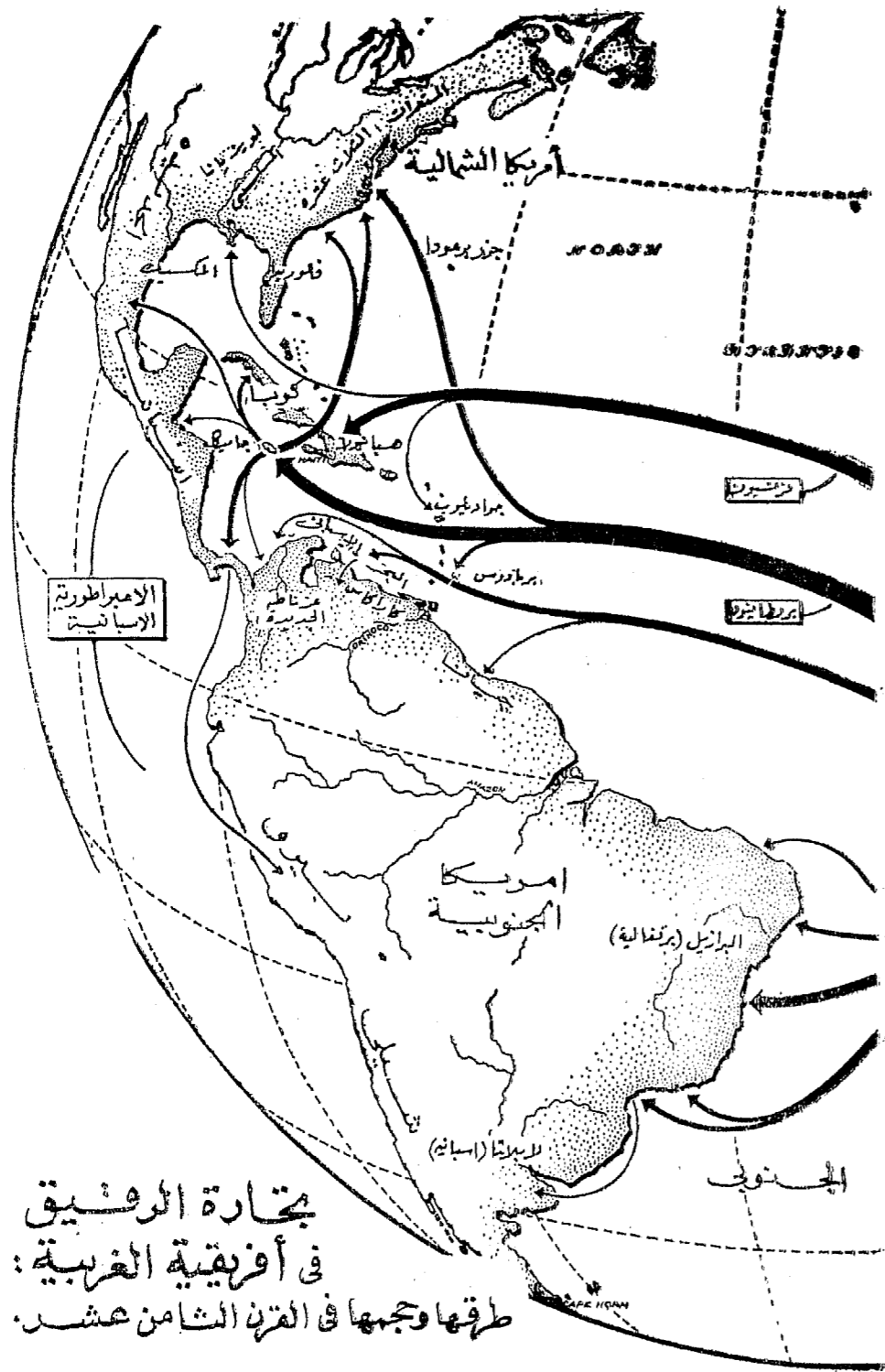
وإذا استثنينا عدداً قليلاً من الغارات في السنغال وغينيا خلال العقد الأول من القرن الخامس عشر ، فإن الأوربيين في شمال الكونغو لم يتدخلوا أبداً في اختصاص العبيد ، إذ كانت العمليات في هذه المنطقة — التي ربما ورد منها ما يتراوح بين ثلثي وثلاثة أرباع العبيد — تتم دائماً عن طريق الوسطاء الإفريقيين . وكانت تستخدم وسائل عدة في التبادل .

وفي منطقة السنغال وغينيا انتقلت المخططات الرسمية من الساحل إلى الجزر القريبة منه قبل نهاية القرن الخامس عشر ( جزر الرأس الأخضر للبرتغال ، جورجيه قرب داكار الحديثة ، فرنسا وبريطانيا ) . وعلى البر كان عدد قليل من المولدين الذين «أصبحوا من أبناء البلاد» وزعماء للقبائل المقيمة على الساحل ،

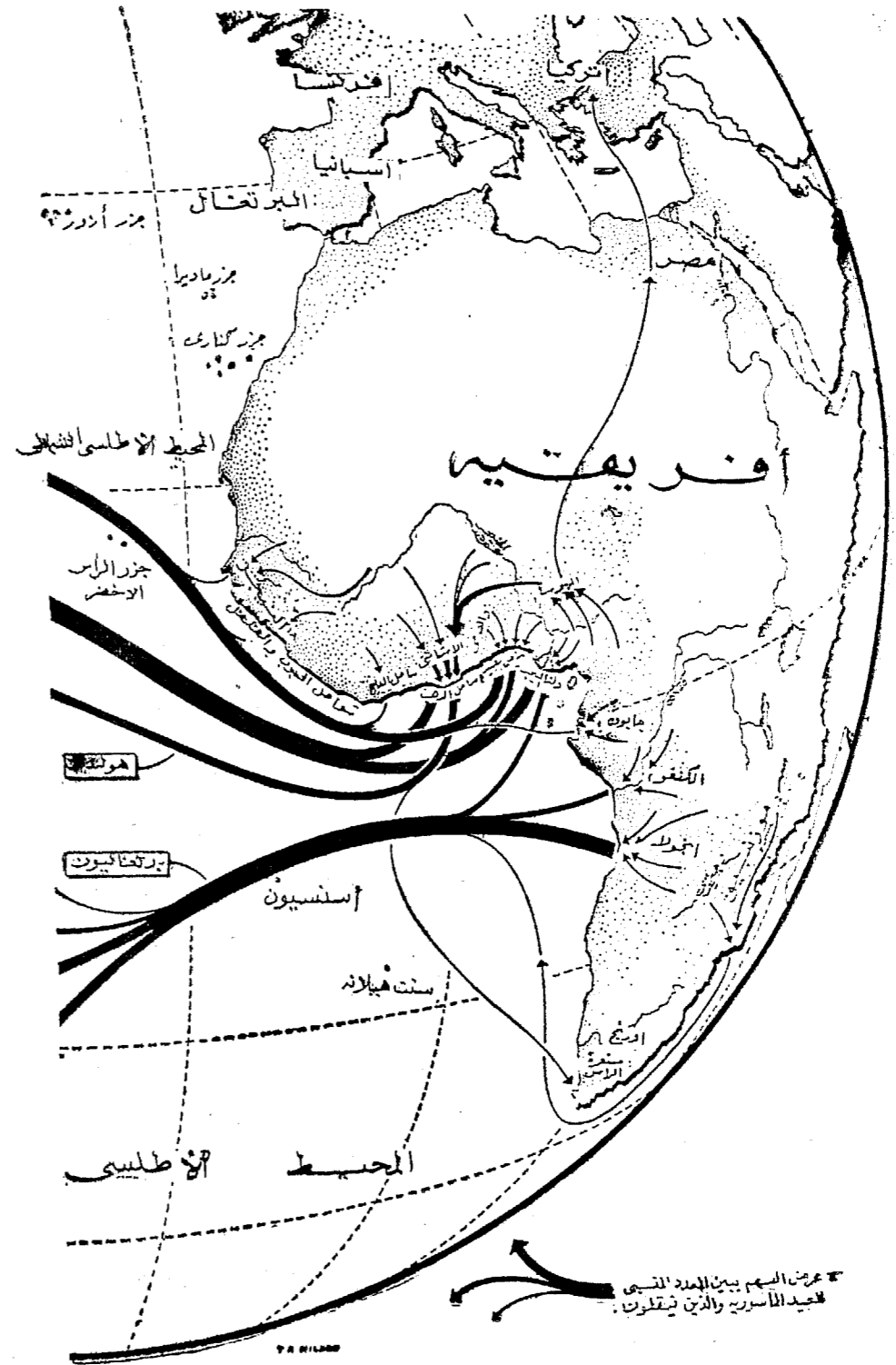


يأخذون أو يشترون الشحنات لحساب الأوربيين الذين يأتون على فترات متقطعة . وعلى طول شاطئ الحبوب والفلقل ( ليديريا الحديثة ) كانت التجارة تجرى من وقت لآخر بين قباطنة السفن الذين يأتون بصفتهم الفردية والقبائل المتفرقة هناك . وفي جميع هذه الحالات كان العبيد يؤسرون في الغارات أو الحروب في داخل مناطق تبعد حوالى ٥٠٠ ميل من الساحل ، وهى غالباً في فوتجالون أو بين قبائل المانديجو ، وذلك قبل بيعهم إلى الوسطاء القيسين عند الساحل .

وعلى طول ساحل الذهب، وإلى مسافة حوالى ١٥٠ ميلاً على كل من جانبي المحطة البرتغالية الأولى في إلينا ، أقام الأوربيون سلسلة من المستودعات التجارية ، يطلق عليها أسماء مختلفة من قبيل الحصون والمصانع والمحطات والمخازن أو المستعمرات . وفي جميع الحالات كانت هذه المحطات مراكز تجارية — لاتسلح إلا تسليحاً خفيفاً — وكانت كل منها تستأجر من القبيلة المحلية من جماعة الفانتى الذين ينتمون إلى زنوج الأجان ، وكانت المفاوضات بشأن المعاهدات أو العقود الخاصة بكل محطة تجرى بين الموظفين الذين يمثلون الأوربيين والفانتى ، بما يقرب من الإكراه الذى تلقاه فى أية علاقات ، فى ذلك الحين أو الآن ، بين دول ذات سيادة ولكنها غير متكافئة . وكان الاتفاق فى العادة ينص على تحالف عسكري بالتبادل ، وأداء إيجار المحطة على هيئة سلع أوروبية، واستئجار العدد اللازم من العمال للعمل فى أرضة الميناء مقابل أجر يدفع لهم ، واتفاق تجارى عام يتضمن العبيد . وأقامت البرتغال أربع محطات ( بما فيها إلينا ) بعد عام ١٤٨٢ ، ثم بنيت محطة خامسة على مسافة بضعة أميال فى الداخل ، كحاشية لإحياء إنتاج الذهب حوالى سنة ١٦٢٣ ، ولكن ما إن



تجارة الرقيق  
في أفريقيا الغربية:  
طرقها وجهها في القرن الثامن عشر.



عرض السهم بين المدة التي  
للعيد الماسونية والذين يتقلون.

حلت سنة ١٦٤٢ حتى كان الهولنديون قد استولوا عليها جميعاً . وحاولت البرتغال أيضاً إقامة محطة سادسة ولكنها تخطت عنها حوالى سنة ١٨٧٢ .

وأقام التجار الهولنديون أولى محطات عشر فى سنة ١٥٩٨، وظلوا بها حتى سنة ١٨٧٢ . وأعقبهم بريطانيا التى شيدت ثلاثة عشر حصناً فيما بين عامى ١٦٣١ ، ١٧٨٧ ، واتمى حكمها فى عام ١٩٥٧ . وبنت السويد محطة فى ١٦٣٢ ، وأخرى قبل طردها فى ١٦٥٧ على أيدى الدنمرك التى أضافت خمس محطات أخرى ، ظل بعضها قائماً حتى عام ١٨٥٠ . وبعد عام ١٦٨٥ أقامت روسيا براندنبرج ثلاث محطات ثم تخطت عنها بعد ذلك بأربع عشرة سنة . وحاولت فرنسا إنشاء محطة حوالى سنة ١٦٨٨ ، ولكنها نبذتها عندما رفض المشترون منها قبول عبيد ساحل الذهب . وآخر محطة أنشأها إحدى قبائل الفانتى فى سنة ١٧٩٨ ولكنها أخفقت بسبب الحروب النابوليونية، والحظر الذى فرضته بريطانيا فى المقد التالى على تجارة الرقيق . ولقد تم تداول معظم هذه المحطات من يد لأخرى عدة مرات ، بفعل الغزو أو الشراء أو التبادل . وحوالى سنة ١٨٠٠ كانت الحصون التى يجرى استخدامها هى أحد عشر لهولندة ، ثمانية لبريطانيا ، خمسة للدنمرك ، وحصن واحد للفانتى . وبحلول عام ١٨٧٢ كان لبريطانيا وهولندة ١٢ ، ٨ مخازن تجارية عاملة ، على التوالى .

وغالبا ما كان توريد الحصص المقررة لمحطات ساحل الذهب ، سبباً فى عمليات متشابكة ومنافسة حادة . وكثرت الحروب بين الزوج من حلفاء المحطات المتنافسة . وكان الفانتى الذين يحصلون على العبيد إما بطريق الحرب مباشرة

أو بالتجارة مع الأشانتي ، هم الذين يوردون العبيد بانتظام إلى كل دولة أوروبية على ساحل الذهب باستثناء هولندا ، إذ كان تجار الأخيرة في العادة يشترون العبيد مباشرة من الأشانتي ، حيث كان بين الهولنديين وخدمهم والأشانتي اتفاق تجاري بالرغم من أنهم كانوا يضطرون غالباً إلى الاعتماد على الفانتي . وكان الأشانتي بدورهم يحصلون على أسراهم إما بالحروب أو عن طريق التجارة مع قبائل الساقانا المجاورة والمقيمة بعيداً عن الشمال ، وفي السنوات للتأخرة ربما كانوا أيضاً يشترون عدداً قليلاً من صغار الجرمن والمسجونين الباتو من التجار الهوسا الذين يعبرون إلى الداخل .

وكانت بلاد الأشانتي بوصفها مخزن معظم التجارة التي تصل إلى ساحل الذهب من إفريقية الغربية كلها ، في مركز له مزاياه وخطورته في الوقت نفسه . فمن جهة نجد أن الحروب المتكررة بقصد أسر العبيد ، والدفاع المتكرر ضد الغارات التي يشنها الفانتي من جهة أخرى ، كل هذا شجع على تقدم فن الحرب ، كما أن التجارة مع الساقانا وتوفير الحماية منها كانا يتوقفان على تنظيم يمكن الاطمئنان إليه ، للتجارة والحكم . وقبل انتهاء القرن السابع عشر كان الأشانتي قد تحولوا من شعب زراعي مسلم إلى حلف عسكري اتسع نطاقه بالفتوح أولاً ، ثم بالتهديد والإغراء . وفي حوالي عام ١٧٠١ تكون اتحاد من الحلفاء الأشانتي ، تطور إلى شعب متماسك تحت زعامة أو كومبو أنوكي كبير كهنة وزعيم قبيلة كوماسي الأشانتي . وتزعم الأسطورة أنه في أثناء اجتماع سرى هام ضد أعضاء الحلف ، تلقى أنوكي من السماء كرسيًا مذهباً كانت تتجسد فيه روح القبائل المتحالفة ، وهنا أصبح الكوماشين (زعيم كوماسي) ملكاً على الأشانتي .

وتمحلت بالتدريج المنازعات بين الفانتى إلى تعاون ضد مملكة أشانتى التى كانت تسيطر على الظهير binterland ، غير أن الأخيرة استطاعت المحافظة على مركز منيع تقريباً نظراً لأن قبائل السافانا كانت تعتمد عليها اعتماداً كلياً من أجل الحصول على الملح والعدد، وغيرها من منتجات الأوروبين التى كانت أشانتى بدورها تحصل عليها من الفانتى . واشتد الطلب على العبيد من جانب أمريكا فى أواخر القرن الثامن عشر، وبذلك اشترى الأشانتى مقادير كبيرة من السلاح والذخيرة من التجار الأوربيين . وسهلت الأسلحة الجديدة الفتوح التى ضحمت عدد العبيد الآتين من الداخل . وتبين السجلات الخاصة بالعبيد ارتفاعاً ملحوظاً فى عدد الأسرى من المناطق الداخلية، والذين كانوا يضمون فى نهاية الأمر - بعد عام ١٨٠٠ - الكثيرين من النول الإسلامية مثل الهوسا . وبعد عام ١٨٠٣ حاولت جيوش الأشانتى طرد الفانتى من الساحل السكى يجعلوا اتصالهم مباشراً بالأوربيين ، وأحرزوا بعض النجاح بالنسبة إلى الهولنديين ممن كان لهم قبل ذلك اتصال مباشر بالأشانتى ، ولكن البريطانيين دافعوا عن الفانتى ، وقادوا المحطات الأوربية الأخرى فى حمل الغزاة على الارتداد .

وإلى الشرق من الفانتى كانت التجارة قائمة مع شعب « جا » الذى تحرك صوب الساحل من أجل الاتصال بالمحطات البرتغالية التى تقع فى أبعد المناطق بالشرق . ولم يتجمع المستوطنون من شعب الجا حول أكرا قبل اتصاف القرن السابع عشر ، ولم يتمكنوا أبداً من إنشاء اتصالات هامة مع الداخل ، وهى الاتصالات التى ميزت تجارة العبيد والملح بين الأشانتى والفانتى ، وهذا هو بعض السبب الذى من أجله أخفق الدنمركيون الذين كانت معظم حصونهم

في بلاد الجا شرقى أكرا ، في الحصول على مورد منتظم من العبيد كما كان الحال بالنسبة إلى البريطانيين والهولنديين الذين كانوا يتاجرون عن طريق البعثة .

وعلى مسافة بعيدة في اتجاه الشرق ، أسهمت تجارة البرتغاليين مع بينين في إفساد صناعة البرونز الشهيرة عند بينين وآيف ، ولكنها استوردت الأسلحة النارية التي سمحت لبنين بإنشاء إمبراطورية كبيرة تمتد من لاجوس إلى دلتا النيجر . وتضائل اهتمام البرتغال بعد أن استبدعت بينين وباعت معظم الشعوب التي غزتهم ؛ وتدهورت بينين في القرن السادس عشر فأضاعت ما كان لديها من الفنون والرخاء والتنظيم الحكومى الفعال ، وتحولت إلى عمليات إعتباطية من سفك الدماء ، وحكم عسكري متقلب وخراب اقتصادى ، ولم يعد من مصلحة الأوربيين المخاطرة وسط الفوضى السائدة ، كما أصبح العبيد ضحايا نظام جديد وهو تقديم الضحايا في الطقوس الدينية ، والتنجيد الرمزي للشهرة العسكرية ، والسياسة القائمة على القتل والشراسة التي لاحد لها التي كانت موضع التشجيع . واضطرت القبائل المجاورة إلى الاتحاد من أجل الدفاع عن النفس وإلا هلكت .

ووراء بينين وعلى مقربة من إيبادان الحديثة في نيجيريا ، قامت دولة اليوروبا في أويو التي ازدهر فيها ، في عصر مبكر ، فن نحت الحجارة وصناعة الحديد ثم أشغال البرونز ، منذ حوالى ألف سنة خلت . ربما أدخل الهوسا بعض الأفكار المتقدمة عن الحكم . وكانت آيف المركز المبكر وظلت المركز الدينى بعد أن انتقل الزعيم ( الأفين ) إلى أويو . وزادت أهمية التنظيم والدفاع

عندما اشتد ضغط سنغاي والإسلام من ناحية الشمال ، تم من ناحية بنين من الجنوب ، وهذا ما جعل التنظيم العسكري لازماً بحلول نهاية القرن السادس عشر ، وأصبح من العادة إرسال جيش ضد أحد الجيران في كل عام ، من أجل إحراز المجد واقتضاء الجزية والحصول على العبيد . وأنشئت مستعمرات لليوزونيا في الأقاليم المفتوحة ، وبهذا خلقت كتلة ثقافية حول أويو وآيف ، نتيجة امتزاج القبائل بعضها ببعض ، وحولت الدول البعيدة مثل داهومي في الغرب إلى دول حاضرة تؤدي الجزية ، ولا شك أنها تعلمت الكثير عن التنظيم ، ووصل الأفارقة ذروة قوته في القرن الثامن عشر ، أي بعد أن بدأ تجار الرقيق الأوروبيون في ساحل الذهب البحث عن موارد إضافية للعبيد . وكان الأفارقة يتاجرون معهم في حرية عن طريق لاجوس ، وهي دولة تابعة له اقتطعت من بنين الأخذة في الاضمحلال ، ولكنه نادراً ما سمح للأوروبيين بإقامة محطات دائمة .

وإذا استثنينا بعض النارات البرتغالية المبكرة ، فإن أول اتصالات للأوروبيين شرق ساحل الذهب ، حدثت حوالي نهاية القرن السابع عشر . وظهر أن موقفاً ليس مختلفاً عما كان في ساحل الذهب قد أخذ في النشوء ، ويتمثل في قيام سلسلة من الدول الصغيرة على امتداد الساحل ، وبخاصة دولة هويداه ، وهي دولة كانت راغبة تماماً في تأجير المحطات ، وفتح طريق الجلب الرقيق من الداخل . كان وجه الاختلاف أن الدولة القائمة في الداخل ، على خلاف الأشاتى الأوائل ، كانت الآن منظمة تنظيمياً طيباً إلى حد ما . هذه الدولة ، وهي داهومي التي تدرت على أيدي اليوروبا ، بدأت على الفور في النزو وأسر العبيد وفي مزاوله التجارة على نطاق واسع بدرجة يمكن الاعتماد

عليها ، مما كان يبعث سرور الأوربيين . وأحرك ملك داهومي أنه يجنى ربحاً  
خاصاً إذا ما سيطر على المنطقة الساحلية ، ونجح — بخلاف الأثباتي — في  
غزو الساحل . ثم عهد فيما بين عامي ١٧٢٤ ، ١٧٢٩ ، إلى تنصيب ولاية من قبله  
على الدول الوسيطة الصغيرة ، والتي جمع للماهدات . كان في استطاعته باستمرار  
أن يورد العبيد المتنازرن دائماً ، وبسرعة وعلى نحو يمكن الاعتماد عليه ، وهكذا  
استمرت التجارة ، ولسكن الداهوميين قاموا بإدارة المحطات بأنفسهم — فكان  
الأوربيون يأتون إلى الشاطئ ، كتجار صرف وتحت موافقة داهومي . كانت  
أجومي ، العاصمة القائمة في الداخل ، هي التي تحدد الثمن ، ولكن هذا  
الترتيب وفر على الأوربيين الكثير من المال والرجال إذ لم تكن هناك أعباء  
إدارية يظلمون بها .

وسيطر الملك على الاقتصاد مباشرة ، مما مكنه أن يصبح حاكماً مطلقاً  
يعتمد في إدارة البلاد وجمع الضرائب على بيروقراطية غالباً ما كان يخصى  
أفرادها حتى يحول دون قيام أية مصالح قد تقف في وجه إرادته الملكية .  
وكان كل موظف ، بما في ذلك الملك ، خاضعاً من الناحية النظرية للملكة الأم  
التي كان مفروضاً فيها أنها تمثل الضمير الناصح وإن لم تملك السلطة التنفيذية ،  
وامتدت صورة معقدة من هذه السياسة الطقسية إلى الجيش . غير أنه لأغراض  
النارات بقصد جلب الرقيق والاشتبكات الحربية الكبرى ، فضل  
الداهوميون استخدام فرقة منتقاة من « النساء المحاربات » كلهن من العذارى ،  
ولا يخضعن لأحد ؛ على خلاف الحال بالنسبة إلى الرجال . هذه الإدارة السبئية  
التي تتولى الحصول على العبيد ، كانت من الناحية الفنية دولة تابعة إلى  
الأفنين أويو الذي أثبت أنه لا يمكن أن يهزم ، ولكن الأمازونات اتجنن



غرباً لمقاومة الأتراك حيث خطت الحدود بين الجانبين في عام ١٧٥٠ .  
وتكررت الثورات من قبل دول الساحل مثل هويداه وعدرا الصغيرة وبوربو ،  
ولكنها ثورات كانت تنتهي باستبعاد القائمين بها . ولكن داهومي لم تتمكن  
أبداً من إقامة علاقات تجارية مع الدول الإسلامية على طول النيجر أو غزوها ،  
ولهذا كان مورد الرقيق أقل من الشبكة التجارية الواسعة التي أنشأها الأتراك  
على ساحل الذهب .

وفي ذلنا النيجر ، جنوب شرق ساحل العبيد ، لم تكن هناك دول قوية  
للتعامل معها . وكان العبيد الواقفون من هذه المنطقة يباعون بأثمان منخفضة ،  
إذ المرجح أنهم كانوا أقل من غيرهم دراية بأية مهارة فيما عدا الزراعة . لم يكن  
صغار ملاك العبيد يرغبون في اقتنائهم ، ولكنهم كانوا ضالحين للعمل في  
المزارع الكبيرة بالبرازيل ، وفي حزام القطن الأمريكي . وبعد اختراع حلج  
القطن في نهاية القرن الثامن عشر زاد إنتاج القطن بسرعة . وكان قباطنة السفن  
قد بدأوا يكتشفون في أوائل القرن ، أن في الإمكان اجتناء الأرباح حتى عن  
طريق نقل عبيد ذلنا النيجر ، الأرخص ثمناً وأقل مهارة ، من عظم الطلب عليهم  
الآن . كانت تجارة الذلنا تنطوي على أداء رسم صغير لكل من مئات الزعماء  
ذوى السيادة ، يعقبه شراء عدد قليل من العبيد الذين سبق أسرهم في الحروب  
الجزئية المتوطنة في هذا الإقليم . وبعد ذلك تسير السفينة بضعة أميال في اتجاه  
أعلى النهر ، وتبدأ مفاوضات جديدة وتجارة من جديد . وقد تكون الشحنة  
التي تم الحصول عليها ، في بعض الحالات ، عبارة عن السجفاء الذين أسرهم  
الجانبان المتنازبان في اشتباك وقع بينهما حديثاً ، أو قد تكون جماعة من الرجال  
اشترهم بزعم محلي أو أسرهم بينما السفينة تنتظر موعد الإبحار . ونظراً لعدم

وجود مخازن أو محطات في العادة ، ونظراً لعدم وجود معاهدات منتظمة ، أو اتفاقات دائمة في الغالب ، لذلك درج تجار الرقيق على شراء بعض العبيد ، وشحنهم على دفعات صغيرة إلى أن يتم امتلاء السفينة . وغالباً ما كانت الأحوال الصحية رديئة تماماً حتى قبل أن تطلع السفينة ، هذا الموقف بالإضافة إلى عدم توافر التفتيش قبل الإبحار وهو ما كانت تشترطه داهومي ، كان معناه أن العبيد الذين يصلون إلى أمريكا كانوا أقل سلامة من الناحية الصحية وفضلاً من عبيد القرون السابقة .

وفي خلال الجزء الأخير من القرن الثامن عشر ، حين أصبحت هاتي سوقاً لا تشبع ، زاول التجار الفرنسيون نشاطهم على سواحل جابون ، مستخدمين نفس الأساليب ، ووجدوا شحنة العبيد من البانتو شبيهة بما وجده أصحاب السفن الخاصة ، البريطانيون والبرتغاليون ، في دلتا النيجر . وظلت البرتغال تستغل مملكة الكونغو على أساس غير رسمي ولكنه محجّر ، مثلما كانت تفعل في الأيام الأخيرة لتجربة المانسيكونغو . ومن المرجح أن التجارة من أنجولا والتي كانت تخضع رسمياً للاشراف ، كانت المصدر الذي يزود عدداً من العبيد أكبر مما كان يأتي من أي جزء آخر فيما عدا ساحل الذهب ، ولكن الأسلوب المتبع كان مباشراً وبسيطاً على صورة أكثر مما كان في أي مكان آخر . وكان الكشافون البرتغاليون من المولدين ، وكذلك زعماء البانتو ممن استخدمت منهم أساليب القهر أو الخداع ، يقدمون سبلاً منتظماً من المحرمين الحقيقيين أو المقتولين ، ومن أسرى الحرب والهاربين ممن كانوا يباعون بلا قيد لكل من يأتي في طلبهم ، لا فرق بين هولنديين وبريطانيين وفرنسيين أو برتغاليين . وكانت أعظم نسبة من أهل أنجولا تتوجه إلى البرازيل . ولكنهم كانوا يوزعون

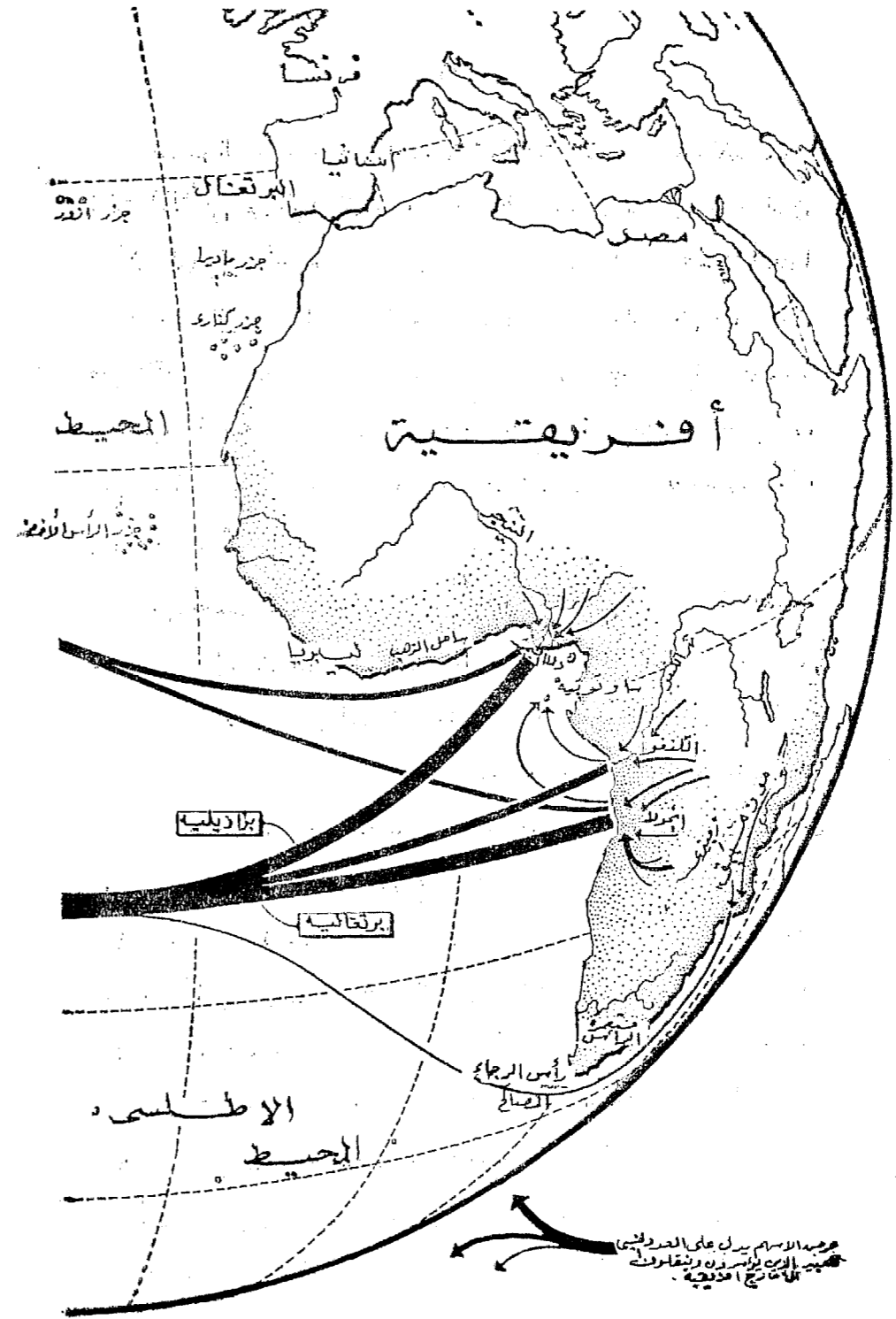
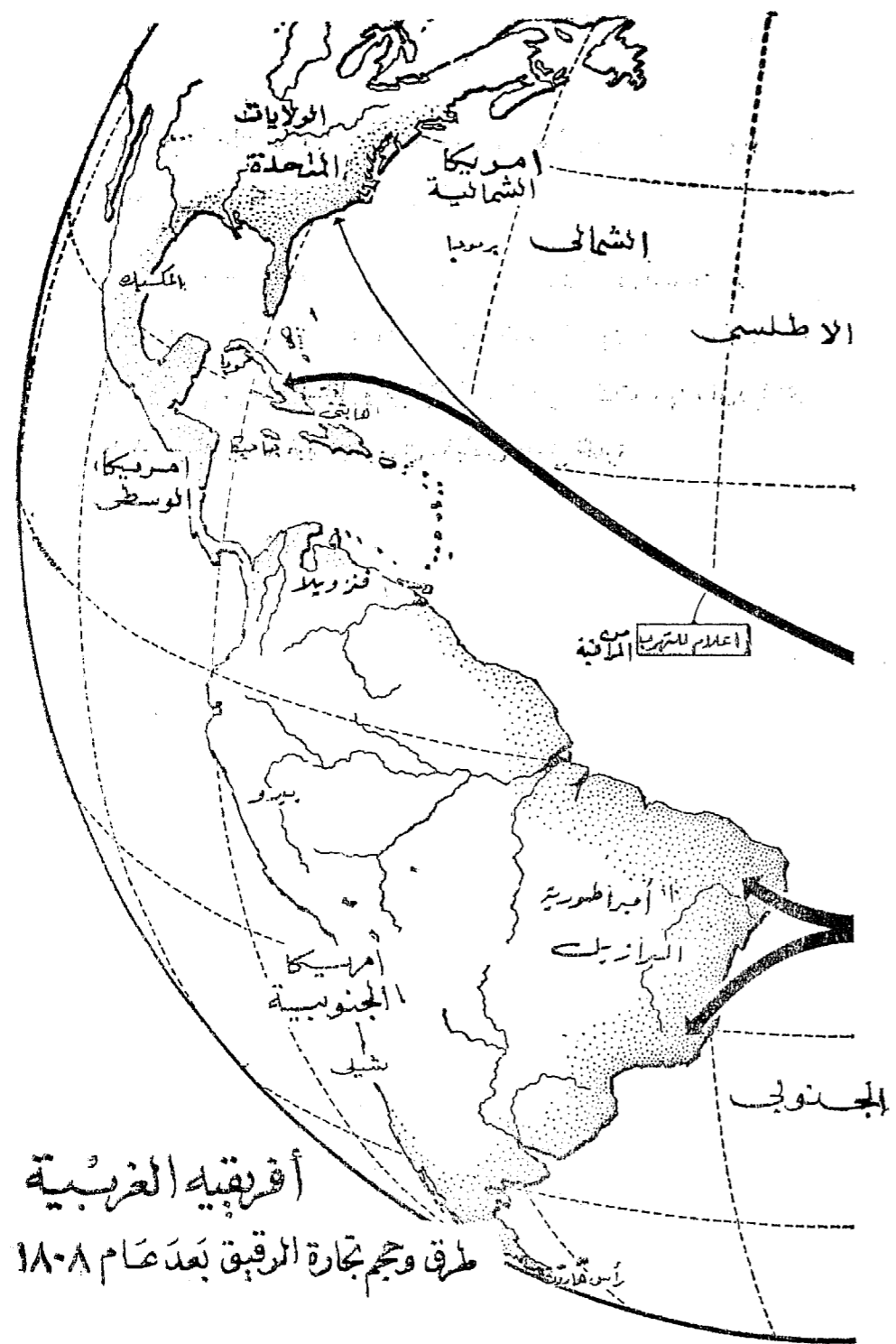
بسبب على جميع المناطق التي تستخدم العبيد في العالم الجديد . وتوغل التجارة البرتغالية في نهاية الأمر إلى مسافة في الداخل تبعد ٣٠٠ ميل عن الساحل ، وتشمل معظم أنجولا الحديثة ، وجزءاً كبيراً من حوض الكونغو الأدنى .

نُبتت هناك إحصائيات يمكن الاطمئنان إليها في معرفة عدد الأفريقيين الذين جيء بهم إلى أمريكا . إن التقديرات تتراوح بين ٣,٠٠٠,٠٠٠ وأكثر من ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ ، وربما أسهمت الحركة المصادة للرق في حدوث هذا الاضطراب لأن التقديرات ظلت تتضخم لكي تحت حركة الإلغاء خلال القرن التاسع عشر . ولقد ضاع أودمر الكثير من السجلات التجارية ، ولكن بقي منها ما يكفي لأن نعرف على الأقل نسبة العبيد الذين كانوا يموتون خلال الرحلة الشاقة عبر المحيط ، وهي حوالي ١٢ في المائة في السفن الفرنسية ، مقابل ١٧ في المائة في السفن الهولندية والبريطانية ، وبلغت الخسائر البرتغالية في القرون الأولى حوالي ١٥ في المائة ، ولكن لما أرغم الضغط من أجل إلغاء الرق ، التجار على الغامرة ، ارتفعت نسبة الضحايا إلى ٢٥ أو ٣٠ في المائة .

وفي عام ١٨٦٠ حين انتهى معظم تجار الرقيق ، كان في أمريكا الشمالية والجنوبية ما بين سبعة وثمانية ملايين شخص من أصل إفريقي . وفي المناطق التي توجد بها إحصائيات عن السكان ترجع إلى أوائل القرن ، يظهر أن نسبة تتراوح بين ثلث ونصف هذا العدد مصدرها التكاثر الطبيعي . إن عدد الذين وصلوا من إفريقية لا بد أن كان بين ٣,٥٠٠,٠٠٠ و٥,٥٠٠,٠٠٠ مليون . فإذا أضفنا عدد من كانوا يموتون في الطريق . لبدأ أنه ما بين ٤,٠٠٠,٠٠٠ و٦,٥٠٠,٠٠٠ مليون نقلوا من إفريقية فيما بين عام ١٤٤١ ونهاية عصر الرق ؛ عبر الأطلسي في الثمانينات من القرن التاسع عشر .

وبيع حوالي ٥٠٠,٠٠٠ في المستعمرات الثلاث عشرة . نصفهم قضى بعض الوقت أولاً في جزر الهند الغربية التي وصل إليها ما يقرب من ١,٥ - ٢ مليون ولكن البلاد الذي أصبح يعرف باسم الولايات المتحدة، وكذلك الإسبان أعادوا شراء حوالي ثلث هذا العدد، ولا بد أن البرازيل قد حصلت على ١,٥ مليون على الأقل ، لكن العدد لا يزيد على ٣ ملايين . بينما أوروبا وساو توميه وجنوب إفريقية وغيرها من المحلات المتفرقة كان نصيبها يتراوح بين ربع ونصف المليون . وهذا أيضاً يدل على أن ٣,٥ - ٥,٥ مليون وصلوا إلى الأسواق الأجنبية .

بل وأصعب من هذا أن نعرف من أية أجزاء من أفريقية جاء العبيد ، وهذا راجع إلى أن تجار الرقيق نادراً ما وجهوا مثل هذا السؤال ، ولكن السجلات الرئيسية دمرتها الشركات والحكومات التي يمسها الأمر . ربما جاء ثلثنا العبيد من ساحل الذهب وأنجولا بالتساوي ، ولكن هناك مناطق عدة كانت لها فترات اشتهرت فيها بتوريد العبيد، مثل الكونغو في القرنين السادس عشر والتاسع عشر ، وساحل العبيد في القرن الثامن عشر، ودلتا الفيجر في التاسع عشر . وثمة جهات كانت توردهم على فترات متباعدة أو بأعداد صغيرة على فترة طويلة . وسيطرت البرتغال على تجارة القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، وهولندا على التجارة خلال ثلاثة أرباع القرن السابع عشر ، وبريطانيا في السنوات ١٦٧٢-١٨٠٨ ، وبعد ذلك كانت الغلبة لسفن الولايات المتحدة والبرازيل وإسبانيا وفرنسا . ومن الواضح أن عدد العبيد كان يتفاوت تفاوتاً بالغاً من قرن إلى آخر ، ولكن إذا نظرنا إلى المجموع الكلي وجدنا أن بريطانيا والبرتغال كانت كل منهما تنقل حوالي ٣٢ أو ٣٣ في المائة من الشحنة .



والأراضي الواطنة حوالي ١٨ في المائة ، وفرنسا حوالي ١٢ في المائة ، والولايات المتحدة ( بعد ١٧٨٣ ) حوالي ٥ في المائة .

وبنهاية القرن الثامن عشر ارتفعت في كل بلد أوربي أصوات الاحتجاج ضد المساوي والشكوك المتعلقة بأخلاقية الاسترقاق البشري — وترتب على الأثر الفاجم من هذه المسائل وعن الإصلاحات التي تولدت عنها ، أن نشأ اتجاه جديد نحو إفريقية وتفسير جذري في الحياة في داخل القارة .

## ورطة الرق

كان الأوروبيون قبل القرن الثامن عشر ، يعتقدون أنه ينبغي الحكم على عادات الإفريقيين وفق المستويات السائدة عندهم . لقد كان الرق منتشرًا بين الشعوب الإفريقية منذ عصور ما قبل التاريخ ، ولم يشعر الأوروبيون الذين أبحروا بالعبيد إلا أن عليهم التزامًا بأن يقيموا القانون الإفريقي ، وأن ينشروا المسيحية حينما يقيس لهم هذا . لم يكن الإنجيل برنامجًا أو مستوى للعمل الاجتماعي ، ولكنه رسالة الخلاص من هذا العالم . ولذلك فخلال القرون الثلاثة الأولى من التوسع فيما وراء البحار لم يظهر سوى قدر يسير من الغضب الشعبي في أوروبا . أجل ، فباستثناء تجار الرقيق وملاك العبيد لم يشهد أوروبا أبدًا كفيلاً زنجياً أو فهم ما ينطوي عليه الاسترقاق من معنى بالنسبة إلى الإفريقيين الذين تمرضوا له .

غير أن معارضة الرق كانت موجودة دائماً ، ولقد تكرر الاحتجاج من جانب بعض رجال الكنيسة الكاثوليكية في البرتغال ضد النظام خلال فترة السنوات الأربع عشرة والخمسين التي شهدت مزاوله هذه التجارة . ومن وقت لآخر في إنجلترا وغيرها من البلاد ارتفعت أصوات شجاعة أشربت نفوس أصحابها بالروح الإنسانية ، ولكن من الذين استمعوا إليها لم يفهم إلا القليلون المشكلة التي هاجمتها تلك الأصوات .

حاول كل بلد أوروبي أن ينظم التجارة أو أن يضمن مزاواتها « بطريقة عادلة ». فكان الفروض أن جميع العبيد يؤخذون طبقاً للقانون الإفريقي السائد - أى فى حرب « عادلة » أو بوصفهم مجرمين ثبتت إدانتهم - وكان لابد من شرائهم بطريقة مشروعة . وبالرغم من ميل الزعماء الإفريقيين إلى توسيع قائمة « الجرائم » وشن حروب لا ضرورة إليها بقصد الحصول على العبيد ، لم تكن لدى الأوربيين وسيلة فعالة يميزون بها بين من استرقوا بصورة عادلة ومن استرقوا بطريقة تتنافى مع العدالة . كانوا يعتبرون من الخطأ الاستيلاء على بلاد إنسان آخر أو فرض المستويات الثقافية والقانونية الأوربية على المجتمعات الأخرى . وبهذا كان فى الإمكان عقد معاهدات مع القبائل الصديقة ، تضمن لها الحماية من الاسترقاق ، وتتضمن الوعد بشراء العبيد الذين تحصل عليهم هذه القبائل بطريق الحرب أو التجارة من جيرانها .

بطبيعة الحال ، أسهم هذا الاتجاه إسهاماً مباشراً فى تنمية التجارة إذ ظن الأوربيون أنهم يسدون خدمة للأفريقيين - فضلاً عن أنفسهم - بشراء العبيد ، إذ يكون السادة المسيحيون أكثر عدلاً من الملاك الوثنيين ، والعبد الذى يتحول إلى المسيحية يضمن الحرية والمساواة الكاملتين فى الحياة الآخرة ، كما يتعلم الإفريقيون القيمة المعنوية للعمل بينما يسهمون فى تحقيق رخاء العالم المسيحى .

وكانت إسبانيا هى وحدها من بين الدول المسيحية ، التى اعتبرت تجارة الرقيق غير قانونية ، فلم تسمح أبداً لسفنها بالاشتغال بها ، ونفذت الأمر الخاص بهذا الشأن بشدة ( وإن كان هناك استثناءان ، أحدهما استعباد كريستوف كولومبس



للهنود، وهو ما حوكم وسجن من أجله في عام ١٥٠٠، والآخر هو المهزبون في القرن التاسع عشر، وكانت البحرية الإسبانية أضعف من أن توقف نشاطهم). ومع هذا، فقد سمح بتملك العبيد - بل ولقى التشجيع - على أساس أن فيه فائدة لكل من الإفريقيين والإسبان، ولكن السفن البرتغالية والهولندية هي التي كانت تقوم فعلاً بنقل العبيد من إفريقية.

كانت محاولة أوروبا احترام وتقبل العادات الإفريقية نبيلة من الناحية النظرية ولكنها خطيرة من الناحية العملية لأنها خدمت الاقتصاد الأوربي أكثر مما خدمت الاقتصاد الإفريقي. لم يكن من التقاليد الإفريقية استرقاق الشخص بصفة دائمة، أو اعتبار العبيد ملكية خاصة غير مقيدة، أو جعلهم عنصراً أولياً في تجارة الجملة. ولم يكن من عادة الأوروبيين تملك الآدميين أو استعمالهم من أجل اجتناء الربح الخالص، ولكن جرت التقاليد بأن تكون لملك العبيد حرية كاملة في استعمال مقتنياتهم أو التصرف فيها. وفي هذه الحالة اندرجت عادة الرق الإفريقية في المذهب الأوربي عن حقوق الملكية المطلقة، وهذا الاندماج بين نظامين تقليديين ولد الاضطراب والتشوهات والخطر الناشئة عن سوء الاستعمال أو الانحراف.

وزادت الهجمات على نظام العبودية في أثناء القرن الثامن عشر لأن كتاب « التنوير » من أمثال جون لوك وفولتير وجان جاك روسو كانوا جميعاً يدعون أنه لا وجود لغير قانون عالى واحد. فابتدأ مع الأخلاق في مكان ما هو خطأ في كل مكان، لأن جميع الناس يخضعون « لحكم » العقل ويمتلكون نفس الحقوق الطبيعية. وانتشرت على نطاق واسع الروايات عن الأحوال

التي كان يعيش فيها العبيد ، وذلك في الصحف الشعبية الحديثة النشأة . وجاءت حركات اليقظة الدينية وبخاصة الحركات الجباهيرية مثل مولد الميثودية في إنجلترا - فوضعت التأكيد على الجانب الإنساني . وإذ عجز تجار الرقيق وملاكه عن أن يقنعوا أحداً بحججهم القديمة اضطروا بصورة متزايدة إلى تأكيد حقوق الملكية والضرورة التجارية وحماية الاستثمار . وكلما زاد تكرار الحجج المادية زادت قوة رد الفعل الإنساني النزعة .

وكانت جمعية الأصدقاء في عام ١٧٢٧ أول من استنكر الرق ، وبدأ الكويكرز في كل من إنجلترا وبنسلفانيا يحررون من لديهم من الزوج . وأثرت حركة جون ويزلي الميثودية التي كانت تضع التأكيد على الأخلاقية الشخصية ، في وليم ويلبرفورس ، وهو سياسي بريطاني كان على دراية بالتنكير السائد في عهد التنوير . وفي عام ١٧٦٥ ظهرت في إنجلترا جمعية معاداة الرق بزعامته وعملت على إقناع البرلمان بأن من الخطأ تملك أي فرد من أبناء البشر في أي مكان بالعالم . وعندما أقيمت الجمعية في عام ١٧٧٢ كبير القضاة مانسفيلد بأن القانون العام يضمن الحرية لجميع الناس أصبحت إنجلترا أول بلد يلغى الرق . واقتصرت النتيجة المباشرة على أن أصحاب المزارع في جزر الهند الغربية امتنعوا عن الإتيان بالعبيد الشخصيين إلى إنجلترا ، ولما كان القرار لا يسرى خارج الجزر البريطانية كان لابد من إقناع البرلمان بأن هناك مستوى أخلاقياً متجانساً حتى داخل الإمبراطورية البريطانية .

وأخيراً حرم القانون الصادر في عام ١٨٠٧ الاتجار بالرقيق في لياه البريطانية وتصديرهم إلى جميع المستعمرات البريطانية أو استيرادهم منها . وكانت البحرية

الملكية مسئولة عن مراقبة السفن البريطانية ولكن الحروب التي شنت ضد نابليون حالت دون تطبيق القانون بصورة منتظمة طيلة سنوات عدة. وواصلت الكثير من سفن الرقيق البريطانية أعمالها — كما كان حالها من قبل — وملاحوها بريطانيون وتدعى الحصانة إذا تحدتها داورية بحرية. ومن أجل وقف هذا التهرب تحت ستار العلم البريطانى، يرجع بعض السبب الذى دعا السفن البريطانية إلى بدء تفتيش السفن الأمريكية. لم تكن هناك بطبيعة الحال طريقة مؤكدة لمعرفة ما إذا « كانت السفينة الأمريكية » سفينة تجارية مشروعة أو سفينة زاول تجارة الرق ويتولاها بعض الإنجليز من الخارجين على القانون. وكانت توقف كثير من السفن المشروعة وذلك أثناء البحث عن تجار الرقيق أو لأسباب أخرى. واحتجت أمريكا وأعقب ذلك نشوب الحرب فى عام ١٨١٢. ( كان دستور الولايات المتحدة المكتوب فى عام ١٧٨٧ يطالب السفن الأمريكية بالامتناع عن مزاولة تجارة الرقيق بعد عام ١٨٠٨ ولكن هذه المادة لم تطبق إلا بعد الحرب الأهلية ).

بل وزاد من مضايقة البريطانيين وجود ثفرتين ينفذ منهما تجار الرقيق ، الأولى أنه بمجرد وصول العبيد إلى المستعمرات البريطانية يصبح مركزهم قانونياً تماماً ، والثانية استمرار قانونية مركز تجار الرق الأجانب. كانت الوسيلة الوحيدة لمنع التهريب هى إلغاء الإغراء ، ولهذا حرر البرلمان فى عام ١٨٣٤ جميع العبيد فى الإمبراطورية ولكن — بسبب استمرار نظرتة المحافظة إلى الملكية — خصص ٢٠ مليون جنيه لتعويض ملاكهم السابقين . ومن بين الدول الأجنبية كانت للبرتغال أعظم مصلحة فى الرق . فبعد عام ١٨١٥ وافقت على عدم مزاولة هذه

التجارة شمال خط الاستواء ولكنها خرقت الاتفاق لكي تشتري العبيد علماني  
دلنا النيجر وتبيعهم في الغالب في حزر الهند الغربية . وفي سنة ١٨١٨ نالت  
بريطانيا حق تفتيش السفن الفرنسية وحجز أى عبيد تجدهم ، وأجبرت البرتغال  
بالتدريج على السماح بهذا أيضاً . وكان المهربون البرازيليون والبرتغاليون  
لا يزالون يواصلون نشاطهم بشدة في صفوف قبائل اليوروبيا في عام ١٨٦١ .  
واستمرت التجارة بين أنجولا والبرازيل بصورة قانونية تماماً وبغير ما حدود ،  
بالفعل ، حتى عام ١٨٧٨ . وازدهر التهريب غير القانوني لمدة عقد آخر من  
الزمان . ولم يتوقف إلا عندما أصبحت البرازيل في عام ١٨٨٨ آخر بلد كبير  
يلغى الرق . وواصلت الداوريات البريطانية المكلفة بوقف تجارة الرقيق ، تزاول  
عملها وغالباً ما كانت تقبض على المهربين ، حتى عام ١٩٠١ .

وقد اتهم بعض النقاد الحداثيون البريطانيين بأنهم أجبروا البلاد الأخرى  
على التخلي عن تجارة الرق لكي يحطموا الاقتصاديات الأجنبية وليس بسبب  
نزعتهم الإنسانية ، ومن المحقق على وجه التأكيد أن بريطانيا كانت تسعى إلى  
التسلط على تجارة القرن التاسع عشر ، ولكن من الصعب أن نفهم السبب  
الذي من أجله قضت على تجارة الرقيق الجزية جدا — والتي كانت محتكرها  
بالفعل — لو لم تكن مدفوعة بروح إنسانية .

لم يشعر المشربون بالروح الإنسانية أن مسئوليتهم انتهت بتحريم تجارة  
الرق وتحريم تملك العبيد . فإذا كانت المستويات العالمية للعدالة قد تطلبت هذه  
الإصلاحات فإنها تطالب الأوربيين أيضاً بأن يهتموا بأمر الزنوج الذين تحرروا  
في أمريكا ، وبأنماط الاستعباد السائدة في المجتمعات الإفريقية التقليدية ووجهت

بريطانيا والولايات المتحدة معظم جهودها المبكرة إلى العبيد السابقين في أمريكا . إن المشكلة — وهي امتصاص عنصر جديد أو التصرف فيه ، في الحياة الاجتماعية والاقتصادية لمجتمع أبيض أفراد من الأحرار ، مشكلة لم تصبح ذات صلة مباشرة بإفريقية إلا عندما اقترح أصحاب النزعة الإنسانية إرجاع الزوج إلى القارة التي سبق أن وفدوا منها . وبعد ذلك بوقت بدأ الأورينيون يدركون أن المشكلة الأخطر والأهم هي التناقض بين مستوياتهم ومستويات التقليد الإفريقي . هذه المشكلة المتشابكة سوف نبجتها بعد أن نستعرض الأثر الناجم من الإلغاء بالنسبة إلى إفريقية ذاتها .

ولقد واجهت بريطانيا أول مشكلة واسعة النطاق يشكها الزوج الأحرار في أمريكا وذلك عند ختام الثورة الأمريكية . فالعبيد الذين سبق لهم الفرار من المستعمرات الأمريكية الثائرة إلى نوفاسكوشيا حصلوا على حريتهم مقابل ولائهم للتاج . وزاد عدد العبيد الذين أصبحت كندا مسئولة عنهم ، بسبب مجيء غيرهم من الزوج المعترف بهم أحراراً ولكنهم نقلوا من جزيرة جاميكا بعد ثورة العبيد الهائلة . وزاد من حدة المشكلة الزوج الذين تحرروا في إنجلترا بعد الحكم الذي أصدره اللورد مانسفيلد في عام ١٧٧٢ ، وغيرهم ممن استولت عليهم داوريات البحرية من سفن العبيد غير المشروعة في المحيط الأطلسي ، وبدا ان الحل يتمثل في « إرجاع هؤلاء الأفريقيين إلى وطنهم » .

ولما كانت معرفة الأوربيين بالفوارق القبلية في داخل أفريقية يسيرة نسبياً . ملوا إلى الظن بأن جميع « الأفريقيين » متشابهون وأن العبيد السابقين سوف يصبحون أسعد حالا في أي مكان تقريباً « بقارتهم » منهم في وسط مجتمعات

مبضاء غربية عنهم . هذا الرأي أغفل حقيقة وهي أن الكثيرين من هؤلاء الزوج اتخذوا ثقافة أوربية وأساليب أوربية .

وكانت أول مشكلة عملية واجهها الأوربيون عند بدء عملية « إرجاع » الزوج « إلى وطنهم » هي اختيار المكان المناسب في أفريقية . لم يكن في الإمكان إرسالهم إلى دول حسنة التنظيم مثل داهومي أو اليوروبا أو الأشانتي حيث يقضى عليهم أو يستعبدون بوصفهم دخلاء عليها . ولم تكن أمثال دلتا النيجر أو أنجولا أو الكنفو من المناطق التي تدعو إلى الرجاء بسبب سيطرة تجار الرقيق من البرتغاليين أو رجال القبائل ، كما اعترضت الدول الأفريقية المتحالفة مثل الفانتى . كانت هناك منطقة واحدة تقع بين السنغال وساحل العاج ، وهي منطقة تفتقر إلى التنظيم ويقل فيها السكان ، ويمكن فيها الحصول على الأرض ومنع الاسترقاق . واختار الإنسانيون البريطانيون ، ومن بعدهم الأمريكيون ، أجزاء من هذه المنطقة، وتعرف الآن باسم سيراليوني وليبيريا .

وفي عام ١٧٨٧ وصل إلى سيراليوني وتحت رعاية بريطانية ، أول المستوطنين الوافدين من نوفاسكوشيا . كانت الفكرة نبيلة ، ولكن لم تعد الخطة الواقعية لتنفيذها . فرفضت القبائل الوطنية أن تباع الأرض إذ اعتبروا المستوطنين دخلاء ، يجوز لهم على أحسن القروض استئجار منطقة صغيرة ، وهكذا اضطر المستوطنون المتأربون Europeanized إلى أن يعملوا في خدمة تجار الرقيق وأن يشتغلوا وكلاء بالموانئ لحساب شركات جزر الهند الغربية التي تزاول هذه التجارة ، ثم تحطمت آمالهم بسبب المرض أولاً ، ثم أخيراً نتيجة هجوم قبلي قضى عليهم في عام ١٧٩٠ .

ونظمت عملية التوطين الثانية في عام ١٧٩١ على أيدي شركة سيراليون .  
ومن أجل تمويل نقل المستوطنين الجدد من نونسيكوشيا ، ودفع نفقة الإدارة ،  
اعتمدت الشركة اعتماداً كلياً على أسر العبيد الوطنيين وبيعهم . ولكن بحلول  
البرلمان دون هذا منحها إعانة في عام ١٨٠٠ وأضفى عليها سلطة بوليسية أكبر ،  
وبعد ذلك بثمانى سنوات استولت الحكومة على الشركة وجعلت من سيراليون  
مستعمرة تابعة للتاج البريطانى .

كانت الأرض في هذا الجزء من أفريقية تعتبر طبقاً للتقليد الأفريقى ملكاً  
لسلالة أول رجل زرع التربة . ولم يكن في الإمكان بيعها أبداً ، ولهذا اضطر  
المستعمرون إلى أن يستأجروا الأماكن من أصحابها القبليين لكي يقيموا فيها  
مدنهم ومزارعهم . قاومت وزارة المستعمرات بشدة أى اتصال بين المستعمرين  
والقبائل وبذلك عجزت عن أن تدرك أنه إذا لم تجر المفاوضات بين الطرفين  
فسوف يضطر المستوطنون إلى القتال من أجل الحصول على الأرض ، وإلا  
واجهوا الموت جوعاً . وبعد أربعة عشر عاماً اشتد خلالها الجدل ، كان  
المستوطنون فيها يعتمدون اعتماداً كلياً على المنح من جانب الإنسانيين والبرلمان ،  
سمح بإجراء المفاوضات واستئجار أراضي القبائل . ولم يشتر أى من المهاجرين  
أرضاً حتى نهاية القرن حين حل قانون نقل الملكية الإنجليزية محل القانون  
التقليدى ، وجعلت التطورات التكنولوجية في الإمكان زراعة أراضي  
المستنقعات التي لم تستخدم أبداً من قبل .

أما اهتمام الولايات المتحدة الذي نما بعد مشروع سيراليون بجبل فكان  
كله مغامرة أقدمت عليها هيئة خاصة بالرغم من أن بعض رجال الحكومة

الاتحادية غالباً ما أبدوا اهتماماً بالأمر . ففي عام ١٨١٦ رخص للجمعية الأمريكية للاستعمار بنقل الزوج الأحرار من المجتمع الأمريكي دون اعتبار هذا وسيلة معادية للرق . وبالرغم من اتهام أهل الجنوب للجمعية بإثارة الاضطراب عن طريق إذاعة اهتمامها بالحرية فقد حصلت الجمعية على الكثير من التأييد من جانب ملاك العبيد والبيض من أهل الجنوب فضلاً عن ذوى النزعات الإنسانية من أهل الولايات الشمالية . إن التقرير الذى وضعته الجمعية عن سنة ١٨١٩ يعبر عن الروح التى سرت فى أول مشروع للتوطين فيما وراء البحار ، قامت بتنفيذه أمريكا فى أوائل القرن التاسع عشر .

وأن أشكالاً جديدة للحكم ، على غرار تلك الأشكال التى هى موضع فخر أمريكا وافتخارها ، تشهد بمدى ما يدينون به لسادتهم السابقين ، والأعداد الوفيرة من الرجال الأحرار يغنون وهم ( يطوفون بشواطئ ) نهر الكنفو .. باللغة التى تسجل دستور أمريكا وقوانينها وتاريخها ، وهى أناشيد المديح لأب البشرية المشترك .

وبعد ذلك بعامين تم شراء أرض جنوبى سيرايلوني . وأصبحت المحطة الأولية التى أنشئت فى مونروفيا وهى مشتقة من اسم الرئيس جيمس مونرو - عاصمة « مقاطعة مونسيرادو » ، وساعدت السفن البحرية الأمريكية للمستوطنين على مقاومة الهجمات التى كانت تشنها القبائل المحلية .

وبعد أربع سنوات منحت الجمعية دستوراً لمقاطعة مونسيرادو بينما أنشأت جمعيتان خيريتان أخريان مواطنى الإقامة خاصة بهما على مسافة بعيدة صوب الجنوب بحذاء الساحل ، فأقامت جمعية بنسلفانيا وميسيسيبي للاستعمار محطتها



في مقاطعة جراندي باسا ، وأقامت جمعية ماريلاندا لمحطتها في «ماريلاند بأفريقية» وكان لكل جمعية طابعها الذي يميزها — ولهذا ظلت كل مستعمرة — ومحكمها كقيلها الأبيض — منفصلة عن جيرانها . وهذه المستعمرات لم تكن تضم أكثر من ١٥٠٠٠ من العبيد السابقين وحوالي ٥٠٠٠ من الأزواج الذين حرروا في البحر ( على أيدي البحرية البريطانية في العادة ) .

وسرعان ما وضح أن موارد الإحسان المحدودة ورفض معظم الأزواج الأحرار انهجرة سوف يمنعان « التهجير » من أن يحل المشكلة الاجتماعية الأمريكية . وبحلول عام ١٨٣٤ كانت الجمعية الأمريكية قد ضمت إليها المشروعين الآخرين وأدمجت المستعمرتان تحت اسم « ليبيريا » وأعدت مدرسة القانون بهارفارد دستوراً نموذجياً ، نص على وجود حاكم للجمعية يعاونه « مجلس العشرة » ويتكون من المستوطنين ولكن احتفظ الحاكم لنفسه بحق الفيتو . ورفض أهل ليبيريا المشروع إلى أن تنازلت الجمعية عن هذا الامتياز بعد خمس سنوات من المفاوضات . وفي عام ١٨٤١ عين أول حاكم زنجي للبلاد ، فأصبحت تنعم بالحكم الذاتي فعلاً .

طلبت ليبيريا باستقلالها بعد عام ١٨٤٧ ، فلم تعترض الولايات المتحدة أو الجمعية الأمريكية للاستعمار وإن امتنعتا عن الاعتراف الرسمي إلى حين نشوب الحرب الأهلية . وخلال هذه الفترة واصلت السفن الحربية الأمريكية الدفاع عن المستوطنين المقيمين بالساحل ضد الهجمات . وظلت ماريلاندا قائمة بوصفها مستعمرة منفصلة عن غيرها ، في ظل الجمعية التي أنشأتها إلى أن ضمت إلى ليبيريا باتفاق الطرفين في عام ١٨٥٧ .

ظل الحكم خالصاً في أيدي الليبيرين الأمريكيين ونسلهم المباشرين . وكان هناك مظهر كاذب من الحضارة كان إلى حد كبير تقليداً لمجتمع الزارع في أمريكا ، بل ووصل أحياناً إلى حد تطبيق نظام الرق . ولم يجرؤ المستوطنون على التوغل في الداخل إلى ما وراء مرمى المدافع البحرية ، إلى أن فُرض النزاع مع القبائل الرطنية في القرن العشرين .

إن إعادة التوطين لم تحل مشكلة الزواج سواء في الولايات المتحدة أو في جاميكا البريطانية ، وفي أفريقية لم تؤد العملية إلا إلى خلق مشكلة استعمارية لأن المستوطنين كانوا على درجة من التشبع بالثقافة الأوروبية بحيث كان من الصعب أن يمتصهم الأهالي الوطنيون . وفي سيراليوني اضطرت بريطانيا إلى تنظيم مجتمعين زنجيين مختلفين اختلاف البيض والزوج في ممتلكاتها ذات الأجناس المتعددة . لم تصبح ليبيريا الأمريكية « نموذجاً » وإنما كانت دولة ذات طابع أوروبي تتبادل الخوف والسيطرة على الزوج القيين بالداخل . وإلى مسافة بعيدة نحو الشرق وعلى طول سواحل الذهب والبيد والنيجر وفي السافانا حيث كان الاسترقاق يجرى على نطاق واسع والأهالي أكثر تركزاً ، خلق إلغاء الرق مشكلات أحست الدول الأوروبية بأنها مسئولة عن حلها . كان الاسترقاق من أجل إشباع طلب السوق الأمريكية قد حول نظاماً محلياً إلى سباق شامل على التصدير أفض عدد السكان ، وشجع الحروب والشقاق ، وحطم بالفعل أنماطاً مستقرة من التجارة والزراعة المشروعتين ، ومقابل هذا لم يأت الأوربيون فعلاً بشيء سوى البضائع المسادية ، وكانت المسيحية والتعليم تبدوان شيئاً يَم عن التفاق حتى في نظر القبائل التي تحالفت مع الأوربيين . وبينما تعرضت أوروبا خلال عصر الرق لتغييرات اقتصادية واجتماعية وثقافية

شكلت الحضارة الحديثة فإن القدرات الأفريقية التي كان يمكن أن تكون خصبة وتقبل هذه المؤثرات ، اتجهت نحو تجارة لم يكن فيها محل لأفكار جديدة أو مختلفة ، وبعد ٤٠٠ سنة تقريباً حين غير الأوروبيون نظرتهم وحرّموا الرق استاءت دول أفريقية كثيرة قامت على تجارة الرق ، بسبب الأسواق التي خسرتها من جراء ذلك . فالتهريب ، والضغط الأوربي من أجل وقف الاسترقاق ، وموجة جديدة من الحروب التنافسية اليأسية ، والنقص في القوة الشرائية للاقتصادات المتركة على الرق — كل هذا أسهم في إحداث اضطراب بعيد المدى في داخل أفريقية . وصار واضحاً بصورة متزايدة أنه إذا كان على الأوروبيين أن ينفذوا الحظر المفروض على تجارة الرقيق عبر المحيط الأطلسي فلا بد من أن يمنعوا الرق في منبعه لأن الحصار البحري لم يستطع أن يحول دون استمرار التهريب الجزى .. ولكي يتسنى جعل الاسترقاق أمراً غير قانوني في أفريقية كان لا بد من أن تصبح للنظرية الأوربية عن القانون العالمي الأورالية والغلبة على القانون الأفريقي .

وعلى ساحل الذهب منحت للأوروبيين أفضل فرصة لتطبيق هذه الفكرة فمن طريق الحصون أو المحطات الدائمة التي احتفظوا بها بمقتضى المعاهدات المعقودة مع الفانتى ، حاولوا إدخال التجارة المشروعة لتحل مكان تجارة الرقيق ، وكانت حجة الأوروبيين أن هذه المعاهدات لا يمكن التخلي عنها لأنها تنطوى على التزام بالدفاع عن الفانتى ضد تهديدات الأشانتى من الداخل ، وكان البريطانيون قد ساعدوا في عام ١٨٠٦ على صد هجوم من هذا القبيل ، وحين توقف الاتجار بالرقيق جدد الأشانتى والذين كانوا وسطاء أقوياء في هذه التجارة — هجومهم ضد الساحل . واشتبكت القوات البريطانية

والهولندية والدنمركية. في القتال الذي استمر منذ حظر تجارة الرقيق في عام ١٨٠٧ إلى أن هدأت الأحوال بعد ذلك بتسع سنوات . وفي أثناء هذه الحرب استولى الأشانتي على المعاهدات أو « المذكرات » من الفانتى ، ومعنى هذا العمل طبقا للتقاليد السائدة أن تدفع إليهم الإيجارات من الآن فصاعدا .

وبعد صلح عام ١٨١٦ كانت المنافسة بين الدول الأوروبية من أجل التحكم في التجارة المشروعة في مثل حدة الصراع بين الأشانتي والفانتى تقريبا . وسرعان ما وضع أن بريطانيا ؛ وهي الدولة الصناعية الرئيسية ، كان لديها ما تبيعه إلى أفريقية أكثر مما لدى غيرها ، ولهذا أصبحت صاحبة الغلبة على ساحل الذهب . ثم حرضت بريطانيا والدنمرك والأراضي الواطئة حلفاءها من الفانتى ضد حلفاء الدول الأخرى . ومالت كل دولة بصورة متزايدة إلى إملأه السلوك الذي يجب أن يمتد به الفانتى وبخاصة من أجل محاولة منعهم من الاتجار في الرقيق .

من المرجح أن هذا العمل كان غير قانوني إذ لم يكن الأوروبيون سوى مستأجرين في البلاد ، ولكن الشر الظاهر الذي يمثله الرق بدا فيه المبرر لمثل هذا التدخل . وأوضح البريطانيون بصورة متكررة إنهم يعترضون مغادرة الحصون بمجرد أن يمنع الفانتى الرق منعاً فعالاً ويفقدوا صلحاً ثابتاً مع الأشانتي . ونشبت حرب أخرى مع الأشانتي في عام ١٨٢٥ واضطر البريطانيون إلى البقاء لكي يساعدوا حلفاءهم الفانتى . لكن ، بدلا من الاكتفاء بإنزال المهزيمية بالأشانتي ثم الإنسحاب ، استولى البريطانيون على « مذكرات » المعاهدات من العدو . وطبقا للقوانين المحلية جعلهم هذا الإستيلاء أصحاب الحصون التي كانوا



يشغلونها . وأرسلت مذكرات الدنمرك التي جرى الاستيلاء عليها أيضاً ، إلى كوينهاجن كدليل على الصداقة بين البلدين . ولكن ظل الأشاتى محتفظين بالمذكرات الهولندية . وبدأ أن بريطانيا أصبحت أكثر نورطا بصورة مباشرة عن ذى قبل ، ولكن حكومتها أعادت ترديد عزمها على التخلي عن الساحل ، وأنجزت وعدها بعد ذلك بثلاث سنوات ونقلت المحطات إلى أيدي لجنة من تجار لندن وانسحب المثلون الرسميون .

وإذا استثنينا سيراليون وليبيريا ومستعمرة زراعية فرنسية في السنغال ، فإنه لم تكن هناك مصالح أوربية أخرى شمالى الكنفو . وحين توقفت عملية الاسترقاق توقف الاتجار والاتصال الرسمى بدهومى وجابون . وقصرت البرتقال اتصالاتها الرسمية على أنجولا حيث استمرت مزاوله تجارة الرقيق بصورة غير مشروعة معظم القرن التاسع عشر . وتضاءلت ثروة داهومى وأهميتها بسرعة برغم أن صرحها القائم على الملكية المطلقة والبيروقراطية الكاملة والجيش ظل قوياً . وانقسمت دولة اليوروبا إلى سلسلة من الوحدات المحلية التى تنافست فيما بينها بمرارة من أجل مواصلة الاتصال المنقطع بالمهريين البرازيليين والبرتغاليين واستطاعت جزيرة لاجوس الرملية التى تتحكم فى الميناء الجيد الوحيد على ساحل العبيد ، المحافظة على استقلالها بتحرير جيرانها ضد بعضهم البعض من أجل الوصول إلى مهربى العبيد أولاحصول على الواردات من الملح والسلع المصنوعة .

وفى شرقى ساحل العبيد لم يكن ثمة وجود أبداً لمحطات أوربية أو دول إفريقية منظمة تزاوالت التجارة . ولذلك فعندما ألقى الرق لم تكن هناك أرض

للتصرف فيها أو معاهدات تحالف للتمسك بها . وشجعت التجارة في زيت النخيل والعاج لكي تحمل عمل تجارة الرقيق ، ولكن انصب الاهتمام الرئيسي على استبعاد المهربين . وكان الوحدات القبلية صغيرة ولا يمكن التنبؤ باتجاهاتها بحيث يمكن أن تشر المعاهدات المضادة للرق أو أن تجرى المفاوضات المشتركة . وفضلا عن هذا ساد الاعتقاد الثابت بأن دلتا النيجر ليس لها منفذ إلى الداخل أو اتصال به . كانت مصاب النهر الكثيرة ينظر إليها لا على أنها دلتا وإنما على أنها مجموعة كبيرة من الصخور القصيرة التي عرفت باسم « أنهر الزيت » وكلها ترتفع على هيئة سلسلة جبلية شاسعة من الجرانيت تمتد عبر البلاد حوالي مائتي ميل نحو الداخل .

ولم يكن طريق نهر النيجر الأدنى واتجاهه معروفين حتى بالرغم من أن بعض الرواد الأوربيين كانوا قد أصبحوا على بينة تماماً بالقسم الأعلى منه اندي ينساب داخل السافانا . وكانت الحكومة البريطانية تحاول التخلي عن أية مصالح لها على الساحل ، ولم تتورط أبداً بشكل مباشر في « أنهار الزيت » ، ولكنها قدمت تأييداً بالغ القدر للكشوف الجغرافية في الداخل . وكان منجوبارك قد اكتشف الكثير من مجرى النيجر الأعلى والأوسط ، ومات في سلسلة من الشلالات على مقربة من بلاد الهوسا في عام ١٨٠٥ . واستؤجر هنريخ بارت من ألمانيا كي يعبر الصحراء الكبرى وقدم بعد ذلك بوقت قصير تقريراً عن أحوالها الجغرافية والسياسية . وفي عام ١٨٣٠ عبر كلابرتون ، ر . لاندر الصحراء أيضاً وأنزلا زورقاً في نهر النيجر — ثم ظهر في « أنهار الزيت » حيث التقيا بتجار من بريطانيا — الأمر الذي أثار الدهشة الكبيرة في نفوس الجميع . لم تتابع الحكومة هذا ولكن التجار بدأوا يسرون بسفنهم

في هذه الشبكة النهرية المكتشفة حديثاً ، وبذلك خلقوا عداوة عنيفة بين القبائل المقيمة في المجرى الأدنى والتي جرى تخطيها ، ولكنهم نجحوا أيضاً في تقاليل عدد العبيد الذين كان يحصل عليهم المهربون في الدلتا ( ولم يكن المهربون ليجروا على التوغل في مياه النهر المحدودة خاصة إذا تأكدوا من وجود السفن البريطانية هناك ) . لقد حلت التجارة المشروعة محل الرق بفعل المنافسة والظروف المواتية ، ولم تكن للتجار مزايا خاصة أو مستودعات ، ولكن بعد عام ١٨٤٠ وجدوا هم والقبائل المقيمة على النهر أن تبادل زيت النضيل والعاج بالمنتجات الأوروبية أمر يعود بالنفع على الطرفين .

وكانت آثار الاتجار في الرقيق قد امتدت نحو الشمال من منطقة الغابات المطيرة ، إلى مسافة بعيدة عن الساحل ، كما تضاعف بسرعة الاستقرار السياسي والرخاء الاقتصادي منذ القرن السادس عشر . والعوامل التي أسهمت في هذا هي تحول نحارة مباداة الذهب بالملح على أيدي البرتغاليين والذي أعقبه الغزو المراكشي الشره وإعادة توجيه قبائل الغابات من تجارة السافانا إلى التجارة الساحلية . ومن بين جميع مناطق السافانا كانت بلاد الهوسا أقلها تفككاً ، إذ كان تقليدها الحكومي المستنير قائماً على الاستقلال الذاتي المنبعث عن اللامركزية كما كانت تشغل بالصناعة (مخاصة القماش والصاب) على خلاف الحضارات التي تقدمتها في إقليم السافانا .

وكان الإسلام قد دخل بلاد الهوسا خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين حيث أحدث تأثيراً بالغاً في بنیان الحكم وفي تطور أدب الهوسا ولكن تأثيره كدين شعبي كان سطحياً . وربما هذا التهاون ، وربما رخاء بلاد



الهوسا واستقرارها فقط ، من العوامل التي اجتذبت البدو من الفاتحين المعادين للإسلام في حوالى الوقت نفسه . وواصل الإسلام انتشاره ببطء في القرون التالية إلى أن توغل في صفوف الفولاني التجواين وذوى النزعات الانفصالية ، تماماً كما انتشر في صفوف مضيفهم الهوسا الحاكمين .

كان الزعيم الفولاني عثمان دان فوديو ، على خلاف معظم أتباعه المشتغلين بالرعى ، يعيش بين سكان المدن من الهوسا وعندما رجع من الحج إلى مكة في عام ١٨٠٢ أوحى إياه بالدعوة إلى تطهير الإسلام ، فشن الفولاني بزعامته اجتهاد أى الحرب المقدسة ضد دول الهوسا التى تسيطر عليهم ، وفيما بين عامى ١٨٠٤ ، ١٨١٠ سقطت أمام توسع إمبراطورية عثمان الفولانية ، دولة إثر أخرى فضلا عن أجزاء من بلاد اليوروبا المجاورة وبقية صنهاى القديمة . كان القتال عنيفاً . وفى موجة من الإرهاب القصير الآن ولكنه كان عنيفاً ولده التعصب الدينى ، حل الدمار بالكثير من الآثار غير الإسلامية فى ثقافة الهوسا بما فيها معظم وثائقهم التى يفترق إليها الباحثون الخديثون افتقاراً شديداً . ولما كان النظام السياسى مستمداً من تعاليم القرآن فقد ظل موضع الإبقاء عليه بمنأى وإن أصبح يخضع لساردونا أو إمبراطور مركزى اتخذ من سو كوتو مقراً له واتخذ عثمان دان فوديو ذلك اللقب وعين أمراء من الفولاني أى رؤساء النواحي على رأس كل دولة من دول الهوسا . والواقع إذن أن الإمبراطورية كانت تديرها مجموعة صغيرة من المنظمين الفولاني الذين اقتصرُوا على أن فرضوا أنفسهم على نظام الهوسا القديم . واستمرت كل دولة من دول الهوسا تضطلع بوظائفها كما كانت تفعل ذلك قرونًا ، وظلت بغير تغيير معظم القوانين والبيروقراطية التقليدية الكبيرة والإدارة اليومية للشئون المحلية .

كان الإسلام منذ ذلك الحين يمارس بالأسلوب السنّي نوعاً في جميع أرجاء ما يعرف الآن باسم نيجيريا الشمالية ولكن حماسة الجهاد سرعان ما هوت إلى استبعاد وتوسع شخصي ، وأتجه الغزاة الفولاني بصورة متزايدة إلى شن الغارات من أجل أسر العبيد وبخاصة في الجنوب الشرقي على مقربة من مرتفعات الكيرون حيث اعتادت دول الهوسا الحصول على عبيدها .. كانت الأسواق التي تستوعب هؤلاء الأمري تنضب ببطء — فطريق الأشانتي مثلاً أغلق حين منع البريطانيون التجارة الساحلية ، وكان الاتصال بالمهرين عند لاجوس مستحيلاً بسبب انقسام دولة اليوروبا إلى شيع متشاحنة ، واستمرت المبيعات للأتراك ، ولكن الدبلوماسيين الأوربيين في الآستانة فضلاً عن الأساطيل في البحر المتوسط حاولوا منعها . ربما كانت قوة الفولاني البشرية أصغر من أن تسمح لهم بالسيطرة على بلاد الهوسا إلى ما لانهاية . فعندما خبا التعصب سهل إفساد هؤلاء السادة ، ومال الأمراء بصورة متزايدة إلى العطف على الجهات التي يحكمونها ، وبالتوسع أخذت بيروقراطية الهوسا وتقاليدهم القانونية تتحدى سلطان الفولاني ببطء وأصبح السارد ونا رمزاً دينياً بحتاً ، وعندما حلت العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر ، عادت الدول المتمتعة بالاستقلال الذاتي ، إلى الظهور من الناحية العملية .

إلا أنه قبل أن تغير روح الجهاد الذي شنه عثمان دان فوديو حمل نائبه أحمدو لوبو حماسه إلى الأقليات الفولانية المتفرقة في جميع أرجاء أقاليم السافانا . فضلاً عن بلاد الهوسا ، كانت أقوى مجموعة هي بين الماندينجو الذين يعيشون بين نهري النيجر والسفغال على مسافة نحو الداخل من السنغال الفرنسي ، وحذا أحمدو لوبو حذو مولاه في قلب حكومات مضيقيه ، ولكن حكم « إمبراطورية ماسينا »

التي أقامها (١٨١٠ - ١٨٤٤) لم يكن ذا أهمية بالقياس إلى رد الفعل في نفوس  
جيرانه إزاء أفكاره الدينية والسياسية .

وكان اللذان سارا على نهجه عمر جاك فون تاجالون بعد عام ١٨٣٨ ، وسامورى  
أحد الغزاة العصاميين من الماندنجو في السبعينات من القرن التاسع عشر . هذان  
الرجلان وضعا حداً للقوضى والعزلة في السافانا لا بفعل حكمتها وإنما لأن  
توسعتها السريع جعلهما على اتصال مباشر بالأوربيين الذين سيطروا على  
الداخل منذ ذلك الحين .

وظالما أحست الدول الأوربية بأن مسئوليتها لا تمتد إلا إلى الدول المتحالفة  
معه والمقيمة على امتداد الساحل ، فإنها لم تهتم بما يجرى في الداخل أو بالدول  
التي لم تكن تتاجر معها . أجل ، فظالما لم تجر التجارة في الرقيق تحت أنوفهم ،  
أحس البريطانيون — وربما على نحو أشد منه عند سواهم — أن الحكم  
أو التدخل السكري إجراء غير ضرورى إن لم يكن غير سليم ، وساد الرأي  
بأن الحرية في ممارسة التجارة المشروعة تسير جنباً إلى جنب مع التقدم لكلا  
المشترى والبائع ، وأصبحت وزارة الخارجية مسئولة عن حماية مثل هذه  
التجارة ، ولكن الحكومة لن تقوم بأى عمل إيجابى خلاف القضاء على السفن  
المشتغلة بتجارة العبيد . واستطاع التجار البريطانيون طرد الأوربيين الآخرين  
في سلام ، إذا كان إنتاج بريطانيا أكبر وكانت أثمانها التي تبيع بها أقل . كانت  
بريطانيا تؤمن بالمنافسة الحرة ووجدت ذلك من صالحها ، وتقبلت الدول  
الأخرى الفكرة أيضاً ولكنها كانت تفتقر إلى المصنوعات والمصلحة اللازمة  
لوحزحة البريطانيين من مواقعهم .

لهذا كان من الأمور المنطقية كلية أن تنسحب الحكومة البريطانية من ساحل الذهب في عام ١٨٢٨ وألا تكون لها مصلحة رسمية في تجارة دلتا النيجر ، وبمجرد إقرار السلام على الساحل فسوف تؤدي « القوانين الطبيعية » التي تحكم الضرورة الاقتصادية إلى نشوء الظروف التي ترضى بطريقة آلية كلاً من الأفريقيين والأوروبيين . وبعد خروج البريطانيين من ساحل الذهب تولى شئونهم الدبلوماسية والتجارية موظفون في سيراليون أو أحييت إلى لندن ، وشغل التجار المحطات في بلاد الفانتى وأداروا شئونهم في دلتا النيجر .

كانت تجارة ساحل الذهب تتولاها لجنة تجار لندن وهي هيئة خاصة . واختار التجار جورج ماكلين ، وهو ضابط جيش قوى الشكينة ، للمفاوضة من أجل إقامة سلام فعال مع الأشانتي الذين لا يستقر لهم حال . وحتى يتسنى له حماية طرق التجارة المارة ببلاد الأشانتي وهي لازمة للعمليات التجارية الناجحة ، جعل من نفسه حكماً يفصل في جميع المنازعات التي تنشأ بين القبائل وحذرت الحكومة اللجنة من أن هذا العمل يشكل إدارة أوروبية وهو ما أرادت بريطانيا تماماً أن تتجنبه ، ولكن ماكلين واصل سياسته إذ أحسن هو واللجنة أن التجارة تعتمد على تعظيم القبائل .

إن حزم ماكلين الاستثنائي وإخلاصه غير المتخيز وصبره الذي لا ينفد ، كل هذا أوجد في ساحل الذهب عصراً لم يسبق له مثيل ، من السكينة والتعاون . كان الأفريقيون يطمثون إلى رأيه الذي ضم إلى القدرة على تقبل الكلمات العنيفة البطء الطويل الأمد الذي تتصف به المفاوضات التقليدية مع القبائل ،

وهي فهدرة كانت تعتبر شيئاً فريداً بين الأوربيين في ذلك الوقت . وكان يجب السفر في الداخل دون أن يصحبه حرس حربي ، كما أنه — على خلاف سياسة الحكومة البريطانية — لم يستخدم القانون الأوربي إلا بوصفه مكملاً للعادات الوطنية . وكانت النتيجة أن انتشر سلطان ماكلين بسرعة وأصبح موضع الاحترام الكبير من جانب كل من الفاتى والأشانتى .

وخشيت الحكومة أن تؤدي سياسة ماكلين واللجنة إلى التورط الشديد في شئون الوطنيين ، ولهذا رانخت تخرج التجار في عام ١٨٤٣ ، وبعد ذلك استأنف الموظفون البريطانيون نكهم المباشر على الحصون وأعدوا المخطط للتقليل من عدد الالتزامات السياسية التي سبق أن اتفق بشأنها التجار . وكان ماكلين خلال توسعه في عام ١٨٣١ قد عقد هدنة بين الفاتى والأشانتى أبتت عاينها الحكومة حتى عام ١٨٧١ ، ولكنها ظلت مترددة بشأن معظم المسائل الأخرى .

وإذ كانت قد تمت تهدئة الأشانتى عندما استؤف الحكم المباشر ، حول الموظفون انتباههم إلى المنازعات البسيطة التي تقسم دول الفاتى . ومن أجل تهدئة الساحل وقع « عقد » مع الفاتى يقضى بتحكيم بريطانيا وتنظيم العلاقات بين القبائل . ربما كان الغرض من عقد عام ١٨٤٤ تقوية التجارة البريطانية ، أو لعله كان خطة يراد بها تثبيت الأمور في المنطقة قبل انسحاب الحكومة . لقد ظل النقاد البرلمانيون يدعون إلى الانسحاب بقصد التقليل من النفقات ، ولكن لم يتحقق أبدا الهلوء الذي يحدث بعد ذلك .

كانت تكاليف إدارة المستعمرة تشكل مشكلة مستمرة ، وتثير استياء

دافعي الضرائب البريطانيين . كان التجار ، لا الحكومة ، هم الذين يجنون الأرباح ، ولكن لم يكن في الوسع فرض الضرائب عليهم أو مطالبتهم بأداء رسوم جمركية على التجارة لأن هذا يفتح للمحطات الهولندية والدمركية فرصة البيع بأثمان أقل مما يبيعون به ، كما تتعارض أمثال هذه التعريفات الجمركية مع سياسة حرية التجارة . كان الحل الوحيد هو الاستحواذ على المحطات الأجنبية التي تثير الانقسام في صفوف الفانتى ، وعندئذ يمكن فرض الضرائب مباشرة عليهم . وفي عام ١٨٥٠ باعت الدمرك راضية ما كان لها من مصلحة ، واستردت بريطانيا « المذكرات » التي تقرر حق الملكية ، وخفت حدة الاضطراب التنافسي . كان معنى هذا مزيداً من التورط ولكن بدا الآن أن في الإمكان تحقيق السلام والوحدة . ثم طلب إلى رؤساء الفانتى أن يتولوا جباية الضرائب من رعاياهم ، وإذا استخدم البريطانيون عقد عام ١٨٤٤ مبرراً لتصرفاتهم أدخلوا على قوانين الفانتى نصاً يقضى بفرض ضريبة على الرؤوس ولكن لم يجمع شيء منها إذ لم يكن في استطاعة الرؤساء فرض الضرائب بغير موافقة قومهم .

كانت المحطات الهولندية لانزال تتخلل المحطات البريطانية على طول ساحل الذهب . وظلت قبائل الفانتى المتحالفة مع إحدى الدولتين ، تسعى إلى تحطيم منافسيها المتحالفين مع البلد الأوربي الآخر . وفي عام ١٨٦٧ وافقت الدولتان على تبادل الحصون ، فأصبح القسم الغربي من الساحل هولندياً بينما انتقل الجزء الشرقى إلى بريطانيا ، وصار من المأمول الآن أن يسود السلام والوحدة في كل قسم ، بل ربما كان في الإمكان فرض رسم جمركي صغير لتغطية نفقات الإدارة ( وليس لأغراض الحماية ) . .

... إلا أن السلام جان. دونه نشوء سوء تفاهم كبير . لقد أحس الفاتى من أهل القسم الغربى أن خلفاءهم البريطانيين . خانوهم حين نقولهم إلى أيدى أعدائهم الهولنديين . وأبانت بريطانيا جميع الفاتى بـ سواء فى الشرق أو فى الغرب — أنها بصد الانسحاب إلى المحطات التابعة لها ولن تحاول بعد ذلك الدفاع عن الفاتى أو القيام بدور الحكم فى المنازعات التى تنشب بينهم . إن تبادل المحطات الذى تم بين الإنجليز والهولنديين بدأ الآن مشروعا للانسحاب أكثر منه إعادة تنظيم للخلفاء التقليديين . وكان من المنطقى تماما أن يتراى للفاتى أن هذا العمل يحلهم من الميثاق الموقع فى عام ١٨٤٤ ، ومن الصعب أن تعرف . ماذا كان رأى البريطانيين آنذاك فى ذلك الاتفاق .

وتصرف أحد زعماء الفاتى كما لو أن العقد أصبح لاغيا . فبعد أن اتخذ لنفسه لقب الملك جون أجرى أعلن أن الحاكم البريطانية لم تمد لها الولاية على شعبه وراح ينشئ جيشا . وعمد غيره من الفاتى إلى تكوين حلف بقصد الدفاع عن أنفسهم ضد الهولنديين وحلفائهم الأشتى فى الغرب والشمال . وأقر حلف الفاتى قانونا أساسيا يمتاز بالنضوج وهو دستور مانكسيم *Mankesim* لعام ١٨٧١ وينص على أن يرأس الاتحاد ملك يختار بالانتخاب ، وجمعية تمثيلية ، وهيئة قضائية دائمة ونظام للتعليم العام . وأرسلت نسخة منه بالطرق الدبلوماسية السليمة إلى المحطات البريطانية « للعلم » .

وإذ استعمرت بريطانيا العرب من جراء التناجح التى أسفر عنها اتفاقها مع هولنده ، عمدت إلى التصرف على نحو آثار دهشة الفاتى ، إذ طلبت أن يكون لها حق الفيئ على دستور مانكسيم ، ويظهر أنه ساورتها فكرة بأن

القائى يضمون صفوفهم من أجل طرد الأوربيين . إنفا: نعرف الآن أن المراء بين القائى والأشائى كان يزداد بسرعة ، ولكن الأوربيين الذين لم يفهموا إلا القليل من الشؤون الوطنية ، تملكهم الفكرة بأن القائى يتحالفون مع الأشائى . فلو انقلب الحكم الذاتى عند القائى إلى فرضى — وكان رأى البيض أن الزواج من الهمجية بحيث لا يستطيعون تنظيم أنفسهم — فسوف يتعين على بريطانيا أن تعود من جديد إلى تهدئة البلاد . فضلا عن هذا فالعاملين مع بيروقراطية فائقة أصعب بكثير منه مع الزعماء التقليديين المستقلين ، ولهذا فإن الحلف سوف يهدد السلام الذى أرادت بريطانيا ..

وكانت الأراضي الواطئة أشد عزوفاً عن استعمال القوة ضد القائى . كانت تجارتها تعتمد على حرية الوصول إلى بلاد الأشائى ، واضطربت تجارتهم اضطراباً خطيراً نتيجة رد الفعل الذى سرى فى نفوس القائى . بسبب تبادل الحصون . . . وبقدر ما كانت تجارة الهولنديين بسيطة نسبياً فعندما حل عام ١٨٧٢ كان رأيهم قد استقر على بيع ما لهم من مصلحة إلى البريطانيين . بدأ الإجراء الآن فى أول حلام مقبولاً للكثير من مشكلات ساحل الذهب . ولكنه أثار أزمة بالدرجة الأولى من الضخامة .

كانت بريطانيا والدنمرك تملكان . منذ عام ١٨٢٥ حصونها بسبب استيلائها من الأشائى على « المذكرات » أو حقوق الملكية . غير أن المذكرات الهولندية لم يتم الاستيلاء عليها ، ولذلك ظلت محطات الهولنديين ملكاً للأشائى ويجب أداء الإيجار عنها بانتظام . وعندما جرى تبادل الحصون مع إنجلترا فى عام ١٨٦٧ وأصلت هولنده إرسال الهدايا إلى ملك



الأشاتي ولكن بريطانيا لم تفهم هذا عندما اشترت المصالح الهولندية بعد ذلك  
خمسة سنوات . كانت إنجلترا تعتقد أن الهدايا مجرد وسيلة لتشجيع تجارة تسيير  
في طريق التدهور ، وكان ينبغي لها أن تعلم في هذا الوقت أن أمثال هذه المدفوعات  
ضرورية بدلاً من أن تظن العكس . وإذا كان الأشاتي يعتبرون الهدايا نوعاً  
من الإيجار توقفت بريطانيا عند أدائه ، لهذا قدموا احتجاجاً ثم عمدوا أخيراً  
إلى مهاجمة الأقاليم الساحلية . وظنت بريطانيا أنها يبعث الحياة في العقد وبنيل  
الاحتصاص على الساحل بأسره ، تستطيع كفاية السلام والاستقرار بدون  
التوغل في الداخل أو تحمل نفقات كبيرة .. وبدلاً من ذلك اضطرت إلى  
التوغل في الداخل على نحو لم يكن له مثيل من قبل . مثل هذا التطور الجديد  
سبب تفتيحاً حاسماً للسياسة <sup>(١)</sup> .

لم تتأثر الأحوال في دلتا النيجر بمثل هذه الأزمة فزاد الاتجار الحر بسرعة  
بعد اكتشاف النهر وارتياده ، ولهذا عينت وزارة الخارجية قنصلاً لها بعد  
عام ١٨٤٩ . كان القنصل يقيم في فوناندبو على مسافة من الشاطئ ، ولكن  
كان من السهل الوصول إليه بالأسلوب الدبلوماسي العادي لكي يساعد التجار  
في المفاوضات التي يجرونها مع الزعماء في الدلتا . وكان انعدام التنظيم القبلي  
يخلق أحياناً ظروفًا خطيرة . وكثيراً ما طلب التجار من القنصل أن يمدم  
بالتأييد الدبلوماسي ولكن وزارة الخارجية أصرت بثبات حتى عام ١٨٧٢ على  
رفض التدخل ، وبعد ذلك سمح للقنصل بالتصكيم في المنازعات التي تنشأ حول  
العقود وبتنظيم الحملات التأديبية وأخيراً انتقل إلى كالا بار على الساحل .

---

(١) عالج المؤلف هذا التطور في الفصل السادس عشر من الكتاب ، وهو خارج عن  
الجزء الذي ترجمناه .  
( الترجمة )

ولكن ظلت الشؤون أساساً داخلة في نطاق العلاقات الخارجية بدلاً من الإدارة السياسية .

وكانت المصالح البريطانية النظامية قليلة في ساحل العبيد ولكن واصلت البحرية مصادرة عدد من سفن العبيد التي تراول هذه التجارة بطريقة غير مشروعة من لاجوس إلى البرازيل . وبحلول عام ١٨٥١ كانت المنافسة على السيطرة على مثل هذا التهريب قد أصبحت حادة بين قبائل المنطقة . فحاولت داهومي القوة الاستيلاء على الميناء بقوة قوامها ١٨.٠٠٠ من محاربيها اللأئي لا يقهرن ، ولكن جنود لاجوس وإن لم يكونوا في بسالة معظم أعدائهم الداهوميين ، كانوا راغبين في القتال وكسبوا المعركة وقطعوا سبيل التجارة المشروعة إلى بلاد الداهوميين وجزء من أرض اليوروبا . وأعقب ذلك نشوب حرب بين أفراد الأسرة المالكة . وأثارت روايات الرحالة عن ازدياد الفوضى ، الانزعاج في نفوس ذوى الميول الإنسانية ، قم احتلال ميناء لاجوس ولكن دون احتلال أى أرض تتجاوزها . وفر تجار الرقيق البرازيليون وأعيد فتح طرق التجارة .

كانت بريطانيا وحدها هي التي تورطت إلى درجة لها شأنها في أفريقية الغربية خلال الثلاثة أرباع الأولى من القرن التاسع عشر . لقد حاولت تقييد مصالحها ولكنها وجدت أن النزعة الإنسانية المعادية للرق وكذلك حرية التجارة لا يمكن أن يحققا نجاحاً بغير التدخل الحكومى المتزايد . وبانتصاف القرن التاسع عشر كانت قد أرسيت الأسس التي سيقوم عليها بعد ذلك الغزو الإمبراطورى والتقسيم التنافسى والحكم الاستعمارى في أفريقية الغربية .

## من بنت إلى الزنج

عاش الأقرام حول البحيرات العظمى في عصور ما قبل التاريخ، أما البوشمن فساحوا في كل مكان آخر شرقاً وجنوباً ولا تزال نجد جيوباً من كلا الشغنين، ولكن التطور التاريخي يبدأ بسلسلة من التغيرات الأجنبية حدثت في تعاقب بدأ العلماء في توضيحه، ويظهر أن أولها كان تفرقاً رقيقاً للكوشيين الأفرو آسيويين أو شعب سيدامو الذين انقشروا نحو الجنوب بعد أن هبطوا من المرتفعات الأثيوبية قبل مولد المسيح بقرون قلائل. ويعتقد علماء الآثار أن هؤلاء المستوطنين الزراعيين جاءوا إلى الفلاحين بنظام زراعة المدرجات على جوانب التلال وبنحت الأحجار لأغراض البناء وبسلسلة من المحاصيل الجديد.

وعلى مقربة من الجحلات التي أقاموها عند بحيرة فسكتوريا، يظهر وأنهم قضوا على الأقرام، إلا أننا نلاحظ أن سكان الجحلات الممتدة بعيداً في اتجاه الجنوب تقبلوا الشعب الخوسى، ويحتمل أنهم علموه المبادئ الأولية في استخدام الحديد. وكان للغزاة الكوشيين تأثير بالغ حتى بالرغم من صغر أعدادهم وقلة الآثار التي خلفوها بعدهم.

وكان المصريون القدماء يذكرون من وقت لآخر الساحل الشمالى الشرقى والذى أطلقوا عليه اسم بنت — ولكن السبأين من أهل اليمن الحديثة كانوا أهل الأقبام المهمة الذين ثبت بصورة مادية وصولهم إلى الساحل. وفي ظل

حكمتهم بدأ الاتجار في منتجات بلاد العرب والهند وشرق أفريقية . وكانت هناك محلات قلائل للتجارة والزراعة الاستوائية في أيام الرومان بالقرب من خط الاستواء، ولكن من المشكوك فيه وجود كثيرين من الهنود أو الإندونيسيين. إن وجدوا — بين المستعمرين . ربما استخدمت الأفكار الشرقية الخاصة ببناء البيفن والجاصيل ، ولكن من الممكن أن تكون هذه قد جاء بها بنو سبأ في أثناء التجارة التي زالوها .

ولم يكن للزنج وجود في شرق أفريقية إلى أن بدأت الطليمة التي تتكلم لغات الباتو تخرج من الغابة قرب البحيرات المطى فيما بين عامي ٥٠٠ و ٨٠٠ للميلاديين . وبالرغم من أن الباتو كانوا ينشئون تنظيماً عسكرياً بسيطاً أثناء هجرتهم عبر الغابة من الكامبيرون فلا بد أنهم كلفوا من أجل اجتياح الدول القائمة على جوانب البحيرات والتي أنشأها الفلاحون الكوشيون من عرفوا قطع الحجر ونحته . وفي النهاية انتصر الزنج لأنهم كانوا يفوقون المدافعين عدداً ويقلدون التنظيم السائد لديهم .

وظهرت ممالك على شواطئ البحيرات مثل بوجندا على بحيرة فكتوريا وبنغورو على بحيرة ألبرت ورواندا وأوروندي شمالي بحيرة تنجانيقا ، وسادت لهجات الباتو واشتغل الأفزام في رواندا وأوروندي حيث لم يقصر عليهم الكوشيون من شعب سيدامو بالصيد والقتص ، واقتبست الأنماط الكوشية في التنظيم وبناء البيوت والزراعة . وواصل زنج آخرون من الباتو — ربما هم الذين خرجوا من الكنفو بعد ذلك بوقت قليل — سيرهم حتى بلغوا تنجانيقا ومنها واصلوا سيرهم إلى كينيا بعد احتلال مناطق البحيرة ، وأعتبت

ذلك موجة باثونية أخرى سارت في المر الممتد بجوار البعيرة والذي يحترق الغابة ، حتى يقضى لها الوصول إلى روديسيا الشمالية ، وروديسيا الجنوبية ، ونياسالاند . وعلى خلاف ما فعل الأقزام ، يظهر أن البوشمن فروا جنوباً أتم هذه الموجات الزاحفة أو أبدووا .

وقبيل عصر المسيح قرر التجار من بنى سبأ الانتقال من اليمن في بلاد العرب المجدبة إلى الجبال الأشد خصباً في أثيوبيا، وحوالهم المبشرون الوجدانيون إلى المسيحية في القرنين الرابع والخامس ولكن الصراع مع المدعين الآخرين في المنطقة حال بينهم وبين مواصلة نشاطهم في الملاحة والاستعمار . وكانت ردود الأفعال في نفوس من زحزحهم من الشعوب موضع الشعور بها في النهاية على امتداد البحيرات المظلمة بينما حل محلهم العرب والفرس في الصحرة الساحلية .

وظل الزنوج الذين يعيشون على طول مجرى النيل الأعلى واقفين قروياً كثيرة تحت تأثير الثقافة الكوشية ولغة أثيوبيا المجاورة لهم ، وعن طريق هذا الاتصال جاءت الماشية إلى الوادي . ولما غزا بنوسبأ المرتفعات فرالكثيرون من الكوشيين متجهين نحو الغرب كي يجدوا ملجأ لهم بين الزنوج . هذا المزيج الناتج أي النيلوتيون أوجد مزيجاً من لغات النيجر والكنغو واللغات الأفرو — آسيوية ر بعد ذلك بدأ البدو النيلوتيون ينتشرون في اتجاه البحيرات المظلمة حيث التقوا بمالك البانتو الآخذة في النمو ، وأخيراً أقام معظمهم في مرتفعات كينيا وتنجانيقا ولكن نجحت مجموعتان منهم في إجراء ترتيبات خاصة في بوجنده ونيورو ورواندا — أورو ندي .

إن ذبابة تسي تسي التي تحمل مرضاً يفتك بالماشية لا وجود لها في الجهات الممتدة بمجاء البحيرات ، وبذلك كان في الإمكان أن تعيش قطعان النيلوتيين قزيد من ثراء اقتصاد البانتو . وسرعان ما نقلت أساليب تربية الماشية إلى الجنوب عن طريق المر المرتفع الخالي من الذبابة والمؤدي إلى سهول الروديسينيين وجنوب إفريقية . وأصبح رعاة الماشية النيلوتيون طبقة ممتازة في بونيورو وبوجنده وهما أبعد الممالك القائمة في إقليم البحيرات في اتجاه الشمال ، ولكنهم نجحوا في رواندا وأوروندي في فرض سيطرتهم على الحكم بطريق التفاهم أو القتال .

وفي هذه الممالك البعيدة في اتجاه الجنوب شكل البانتوسى النيلوتيون (الواتسى) أرستقراطية منعزلة تحكم جماهير البانتو واحتفظوا بخواصهم الجنسية المميزة بما في ذلك ارتفاع قامتهم الكبيرة ، وكانوا يكونون الاحترام لسرعة الحركة والفراع . من المتوقع أن يلقى المرء هذه الصفات المتميزة في جماعة غربية نشأت في البلاد، كانت تذكر مقدرتها العسكرية وامت فيها كراهية العمل الذي يقوم به الفلاحون . وفي كل حالة حلت لغة البانتو محل اللغة النيلوتية ولكن ظلت الماشية الأساس الذي يقوم عليه النشاط الأساسي .

وساعد النيلوتيون الأغنياء في بونيورو وبوجنده زعماء البانتو الذين منحهم امتيازات خاصة حتى يصبح الأخيرون ملوكاً مطلقى السلطان تقريباً . وكانت مساحات شاسعة وجماهير كبيرة من الأهلين تحكمها بيروقراطية دائمة ومجلس يجمع بين المهام القضائية والتنفيذية .

وتوسعت بونيورو بسرعة عن طريق الغزو العسكرى خلال القرن التاسع

عشر<sup>١</sup> وقسمت البلاد إلى مناطق وضعت تحت إدارة الرؤساء المخلصين ، وغالباً ما كان الملك يقوم بالرحلات من أجل الإشراف على قطعانه المتناثرة من المشية ، وعلى الوصول إلى رؤساء النواحي . وبذلك لم يكن هناك بلاط دائم أو أبهة كثيرة . إلا أن بوجنده كانت غير ذات شأن نسبياً إلى أن توسعت بونيورو إلى الحد الذي تجاوز طاقتها في أوائل القرن التاسع عشر سببت ثورة عجلبت بفضلك الأخيرة . .

. وسرعان ما برزت بوجنده بوصفها الدولة ذات الغلبة في منطقة بحيرة فيكتوريا ، وفي هذه الدولة كانت المشية أقل أهمية من زراعة الدخن التي ازدهرت حول البحيرة . لم يكن لدى هذا المجتمع أسباب كثيرة تدعوه إلى التوسع وليكن ربما لأن بوجنده لم تكن ذات طابع عدواني - سعت كثير من القبائل في المحيط بها إلى التماس حمايتها وبدأت تؤدي الجزية بانتظام . كانت للملك أو الكابا كعاصمة دائمة أدخل فيها النيولوتيون الكثير من مظاهر الأبهة والطقوس ، كما كان له أيضاً جيش عظيم من المحاربين وعنده مئات من الزوارق الحربية التي تستخدم إما للدفاع عن حلفائه أو لإجبارهم على أداء الجزية المستحقة . ويرغم أن الكابا كاضل بمساعد النيولوتيين إلى مركز الحاكم المطلق بالفعل ظلت رعاياه زمناً طويلاً تفضل الزراعة المستقرة على الغزو ، وأصبح الأتباع الجدد رعايا مخلصين في العادة ، إذ كان يحكمهم رؤساء محليون يستأهلون الثقة بدلا من قوات الاحتلال أو عملاء بوجنده ممن قد يثيرون الاستياء في النفوس<sup>(١)</sup> . ومنح الزعماء المعينون سلطة القضاء وجباية

(١) في لغات البانتو يستدل على التغييرات التي تطرأ على الاسم الأساسي بإضافة مقادير قبله . مثال ذلك أن الكلمة الأساسية جاندا يشق منها بوجنده ( أرض جانده ) ، باجندا ( شعب جانده ) ولوجنده ( لغة جنده ) وبالتالي نجد كلمات بونيورو ، بانورو ولونيورو مشتقة من نيورو .

الضرائب وبذلك توافر الاستقلال الذاتي الجهلي إلى جانب الخدمة المخصصة للكابا كصاحب السيادة .

لم ينشب صراع بين الدولتين حتى عام ١٨٦٩ حين أحييت بونيورو نزعتها التوسعية واحتكت بشبكة من القبائل التي تؤدي الجزية. ولكن نشوب صراع حاسم بينهما حال دونه وصول الأوربيين في المقعد التالي . كان المراقبون الأوربيون يمتدنون في أول الأمر أن الكابا كأكثر ثقافة وليناً من مقابله في بونيورو ، وأكدت تقارير الرحالة الطابع المتقن والمستقر لبلاط بوجنده وأهمية الزراعة ونظام المحارين والبجارة الذي يلفت النظر وبدت دور إقامة الموك في بونيورو « قدرة » ومتأخرة ، ولكن المعروف الآن أن هذا المظهر الخارجى الهزيل كان يرجع إلى حد كبير إلى طبيعة البلاط غير الدائمة .

أما وراه فقامت حكومة تستطيع أن تحكم مساحات أكبر وكانت أقل اعتماداً من نظام الحكم في بوجنده على تبادل الامتيازات .

وفي جنوب غربى بوجنده وتورو وبونيورو قامت مملكتا رواندا وأوروندى ( رواندى ) . هذه الدول الخمس كانت تشابه من نواح كثيرة كما كانت الفوارق بينها تستحق الذكر ، ولكنها جميعاً شكلتها المؤثرات النيوليتية .

وكان للكوشيين الأوائل من أهل سيدامو تأثير قليل على رواندا ولهذا غلب الأقزام الذين قتلوا في المواضيع الأخرى على قيد البقاء . فضلاً عن هذا لم يكن للبانو في هذه الجهة أسلاف من السيدامو يمتدنى حذوهم لهذا كانوا أقل تنظيماً حين وصل النيوليتيون من الشمال الشرقى . ونتيجة لهذا لم يجلب



الغزائم إلى هؤلاء الباتو أفبكار السيد امو حسب ، وإنما أصبحوا أيضاً طبقة ممتازة في أيديها السيطرة السياسية والاجتماعية الكاملة ، ولذلك كان تأثيرهم أكثر فحائية ووضوحاً وثورية منه حول بحيرة فيكتوريا .

ولم تكن لرواندا أو أوزوندى عواضم ثابتة، واحتفظ الباتو نسبي الخاكون بيلاط ذاق ولكنّه متقل يتولى إدارة شكل من الإقطاع . أما الباهوتو الذين يتكلمون لغة الباتو وهم السكان الأقدمون، فهبطوا إلى منزلة الفلاحين المزارعين . ولم يسمح لهم بالقتال أو تملك الأرض وبذلك أصبحوا رقيقاً فعليين . وكانت ملكية الأرض والحق في جباية نسبة مئوية من إنتاجها متركزين في أيدي الملك الباتو تسمى الذى كانت سلطته مطلقة . واشتغل الأفزام المعروفون في هذه الجهة باسم الباتوا ، بصيد الحيوان والحراسة كما اشتغلوا أتباعاً وخداماً للملك وطبقته الأرستقراطية . وكانت تربية الماشية تعتبر امتيازاً ولهذا لم يكن يملك القطعان سوى الباتو تسمى الذين كانوا محاربين أيضاً . كذلك سيطرت الطبقة الحاكمة على السطات القضائية والإدارية والاقتصادية في كل بلد .

وتعلمت قبائل الباتو التى تحركت صوب الشرق من ناحية البحيرات العظمى تربية الماشية من شعب الجلا الكوشى المقيم في جنوب أثيوبيا ومرتمعات كينيا . ولم تكن المجتمعات الباتوية القاطنة بين البحيرات والمحيط الهندى تتطلب أو تتلقى تنظيماً معقداً ولكنها استعارت نظاماً قانونياً واسع النطاق . وأساليب طقسية كثيرة من جيرانها الكوشيين والسيدامو والنيلوتيين :

وبأوائل القرن العاشر كانت طلائع من الباتو قد سارت في الأرض الفضاء على طول البحيرات العظمى حتى وصلت الشاطئ الجنوبي لهرزمبزي . كانوا

في ذلك الوقت من صناع الحديد المهزلة، وأضافوا إلى هذا فن قطع الأحجار الذي تعلموه من الكوشيين المتناثرين على هيئة جماعات صغيرة في وسط البوشمن بشرق أفريقية . كذلك اتبع الباتو تقليدهم المعتاد القائم على امتصاص أو طرد أو إبادة البوشمن الذين في طريقهم ، ووجدت رواسب معدنية غنية لمسافة ٢٠٠ ميل على كل من جانبي نهر زمبيزي وازدهرت المحاصيل وقامت تجارة مجزية مع التجار العرب على طول ساحل المحيط الهندي قبل عام ١٢٠٠ الميلادي .

وكان الكوشيون قد مارسوا بعض التعدين والتجارة منذ القرن السابع ولكن التجارة لم تزدهر إلا بعد أن أقام الباتو الأول والذين يطلقون على أنفسهم اسم سوثو بأعداد كبيرة . وبعد حكم دام حوالي ٢٠٠ عام طغى عليهم الباتو المعروفون باسم شونا والذين بيدهم أنهم جاءوا بالماشية من البحيرات العظمى عن طريق المر الخالي من ذبابة تسي تسي . وبحلول عام ١٤٥٠ كان الشونا قد أنشأوا مملكة وأطلقوا على حاكمهم لقب « مونوموتابا » وبدأوا في إنشاء مستعمرات تحيط بها أسوار مبنية من الحجارة .

وكان أوسعها نطاقاً وأشدّها مدعاة للحيرة زمبابوى . في هذا الموقع وجدت قرى خشبية وطينية منذ بدء التعدين في القرن السابع ، وكانت الحجارة تستعمل زمناً طويلاً لإقامة أماكن الاحتفالات ولكن الثابت الآن أن استخدام الحجارة كان في عهد إمبراطورية اللونوموتابا في القرن الخامس عشر .

وكان النظام السياسي يعتمد على جمع الجزية من الجيران الذين يجرى غزو

بلادهم ، وربما كانت إحدى هذه القبائل هي التي قلبت حكم المونوموتابا في حوالي ١٦٠٠ ، واحتلت المدن المبنية بالحجارة ، وأضفت مباني جديدة . وبعد عام ١٦٩٣ استولى البانتو المعروفون باسم روزوي على المنطقة وأعادوا بناء الكثير من الصروح الأصلية ، ونشروا البناء بالحجارة في الأجزاء الأخرى من روديسيا الجنوبية . وفي ١٨٣٤ تحطم الروزوي على أيدي الغزاة من الزولو الوافدين من الجنوب ، وانتهت فجأة معرفة البناء بالحجر واحتلال المدن المشيدة بالحجارة . وليس ثمة شك في أن الزوج البانتو هم الذين ابتدعوا ونفذوا فكرة إقامة زمبابوي ، لقد لوحظ وجود البناء بالحجر من البانتو في عهد حديث مثل الأربعينات من القرن التاسع عشر على مقربة من شلالات فكتوريا ، وفي العشرينات في الترنسفال . وثمة تشابه مع فن البناء بالحجارة في أثيوبيا بما يدل على أن أصل هذا الفن كوشي ، ولكن الدوافع الخاصة على استخدامها للزينة ترجع إلى البانتو في حوض الكونفو . إن تصميمات ووظائف الصروح المعدة للاحتفالات تمثل ذروة الأفكار التي أمكن إرجاع أصلها إلى مرتفعات الكامبيرون .

وخلف التجار العرب روايات مكتوبة عن تطور زمبابوي ومباني المونوموتابا الأخرى ، وزارها المبشرون والتجار والمبعوثون البرتغاليون عدة مرات ، وخلفوا وراءهم روايات واضحة . إن تحديد تاريخ الكربون وخص الجاهج والحفائق الفنية والتقدم الهام في الدراسات عن البانتو — كل هذا ساعد على توضيح تاريخ المدن الحجرية . إن الاضطراب المتعلق بزمبابوي التي أصبحت «سراً غامضاً» ذا أبعاد تدعو إلى السخرية يمكن إرجاعه إلى مصادر ثلاثة ، فما من واحد من المكتشفين الأوائل فحص الخرائب قبل ذلك أبداً .

وعرقل الأبحاث . إن المنقبين وصلوا إلى الخرائب ودنسوها قبل أن يتمكن العلماء من دراستها، ولذلك كان لا بد من القيام بحفريات واسعة النطاق ، ومن التدرع بالصبر الكثير قبل أن أمكن إيجاد الحل . والمصدر الثالث أن معظم الزوار غير المدربين اخترعوا نظرية خيالية مثيرة تعبر الزنوج من « الانحطاط » بحيث كانوا عاجزين عن التخطيط والبناء بالحجارة .

هناك أشياء كثيرة غير مؤكدة ، ولكن الصورة العامة واضحة ، والاختلاف قليل حول النقاط الكبرى بين السلطات المدربة التي فحصت موقع زمبابوي <sup>(١)</sup> .

إن ساحل شرق أفريقية شقة ضيقة ورملية من الأرض ، وبحول الغابات والمرتفعات دون سهولة الوصول إلى الداخل ، ونتيجة لهذا ظل التوغل وراء الساحل قليلاً جداً حتى بدء القرن التاسع عشر . وكان السبثيون القدماء من أهل بلاد العرب قد أنشأوا تجارة بسيرة مع الكوشيين المتفرقين في أفريقية الشرقية ، ولكنها تضاءلت حيث ركزوا جهودهم على غزو إثيوبيا في فترة مبكرة

---

(١) من العمد بين المصادر الخاصة بزمبابوي نذكر :

Gertrade Caton-Thompson : The Zimbabwe Culture : Rains and Reactions ( London, 1931 ).

والملاحظات الأحمد عهداً والواردة في كتاب ج . ديزموند كلارك :

The Prehistory of Southern Africa .

( هارموندز ورت ، ١٩٥٩ ، ص ٢٨٩ — ٣١٣ ) .

وثمة خلاصة هامة من الجدل حول زمبابوي تجدها في كتاب بازيل دافيد سون :

Old Africa Rediscovered .

( لندن ١٩٦٠ ، ص ١٩٩ — ٢٣٠ )

من العصر المسيحي . ربما وجدت مراكز تجارية على امتداد الساحل ، ولكن لم يمكن لها تأثير دائم على شرق أفريقية . وأقام غيرهم من العرب والذين حلوا محلهم بالتدريج على طول الساحل تجارة غير منتظمة مع المعدنين الكوشيين في وادي زمبيري ، ولكن لم يحدث تطور واسع النطاق إلا بعد وصول البانتو . وتحالف المنظمات العربية .

وانتشر الإسلام إلى جميع القبائل في الصحراء العربية خلال القرن السابع ، ولكن التوجيه السياسي كان من الصعب تحقيقه ، واحتفظ البدو في عمان الواقعة في الطرف الشرقي من بلاد العرب باستقلالهم لأنهم كانوا يتطلعون إلى البحر بدلاً من الصحراء سعيًا وراء العيش .

وسيطرت مسقط ، وهي الميناء الوحيد بعمان ، على القبائل المقيمة في الداخل ، وحوالي عام ٧٥٠ الميلادي جعل انتشار النظرية الإسلامية في الحكم ، في الإمكان قيام حاكم مركزي اتخذ لنفسه لقب إمام عمان .

كان لدى قبائل الصحراء من العمانيين القليل من المنتجات القابلة للبيع ، ولكنهم وجدوا ربحاً يجتنبهم في القرصنة ، وفي نقل البضائع لحساب الغير ، فأنشئت المستودعات في الهند وبلاد فارس وشرق أفريقية . وقامت التجارة على أساس تبادل الذهب والعميد من أفريقية بمنتجات الهند وفارس من القماش والأدوات المنزلية وعقود الخرز . وكان النيوتيون السودانيون والزنج والذين يأسرهم أحياناً السبثيون المحاربون في أثيوبيا ، يباعون في أسواق الرقيق الفارسية .

ولكن ما نعمت به فارس في القرن التاسع من سلام ورخاء تحطم بسبب  
المغازات الدينية ، والخلافات حول وراثة العرش والثورة التي قام بها العبيد...  
واغتصب الجنود من الأتراك سلطة الخليفة ، وضغط الأشراف الفرس من أجل  
الحصول على السيطرة السياسية وإعادة النظر في التعاليم الإسلامية . ومات  
الألوف في هذه الفوضى ، والتمس غيرهم ملجأ في سفن العمانيين ، ونقلوا إلى الساحل  
الأفريقي الشرقي حيث عاونهم التجار والبحارة العمانيون على إنشاء محلات دائمة  
لهم . كانت عمان حاميهم وكفيلهم ، ولكن المدن كانت فارسية في تصميمها  
ومستقلة في سياستها .

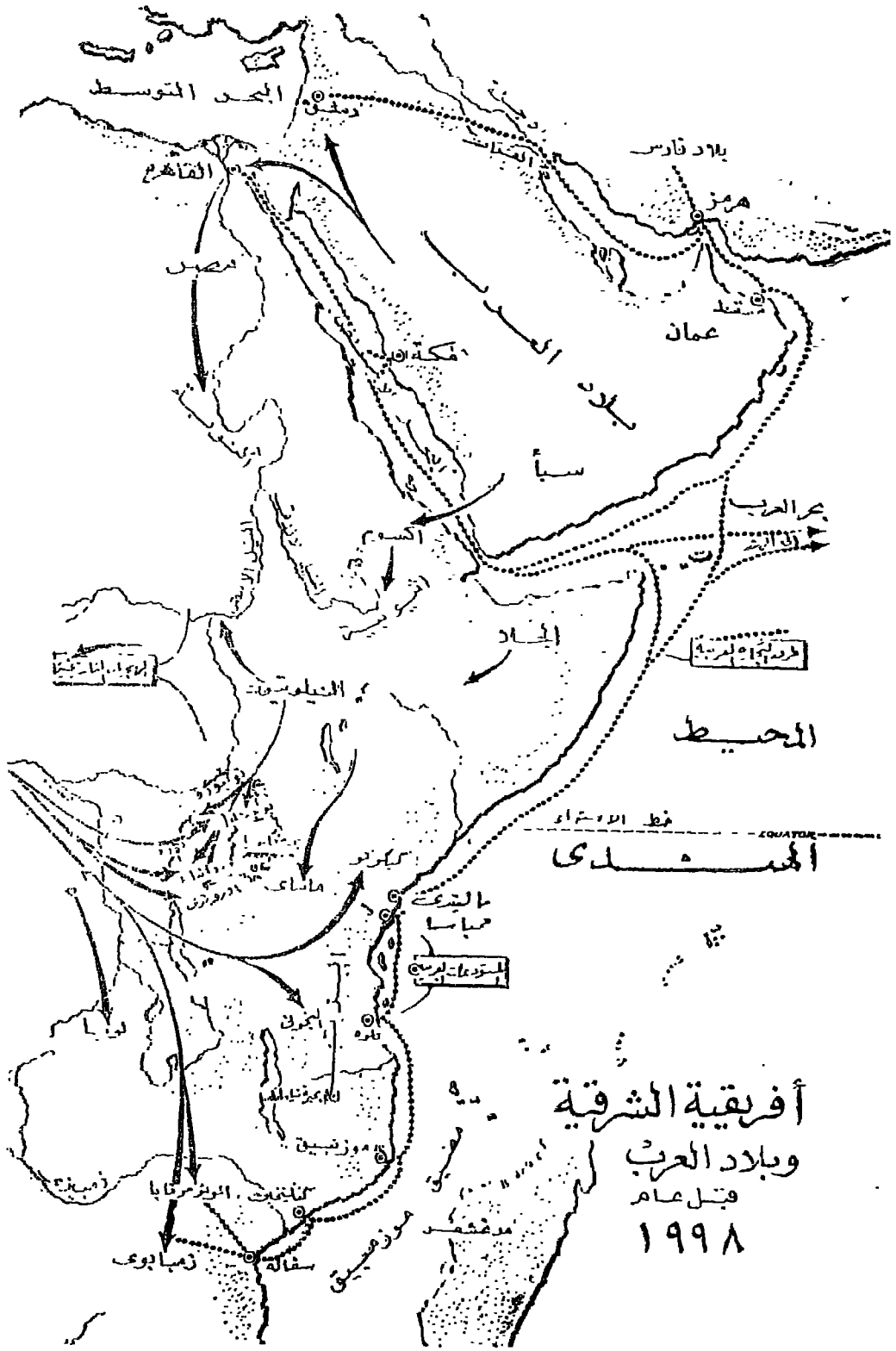
وكانت المحلات التي أنشئت على الساحل من زمبزي إلى الصومال الحديث  
تعرف في مجموعها باسم الزنج ( وهي الكلمة العربية لأثيوبيا ) ولكن لم يكن  
هناك تنظيم مركزي ، فبنت كل مدينة مستقلة على جزيرة لتكون في مأمن  
من الهجوم والمرض . وإذا استئنينا التجارة التي بدأت تنمو بعد وصول البانتو  
في القرن التالي كان الاتصال قليلا مع البر . وقامت المزارع الكبيرة لزراعة أشجار  
زيت النخيل ، وبدأت أولاً في الجزر ، ثم انتقلت إلى الشقة الساحلية الضيقة ،  
وكان من السهل الحصول على العبيد للعمل في هذه المزارع إذ كان تنظيم البانتو  
الذين وصلوا إلى الساحل ضعيفاً . وإذا استقرت أحوال بلاد الزنج ونمت  
زادت التجارة بسرعة ، وإذا وجد المنظمون من الهند الساحل مجزياً  
بدأوا في السيطرة على الملاحة والمصرفية والزراعة ، وأصبح العرب العمانيون  
والفرس طبقة حاكمة تنعم بالفرع ، وبدأت مختلف الجماعات المقيمة على الساحل  
من البانتو والعرب . والهنود ( والأخيون يعرفون باسم بنيان ) . Bunyan في  
ابتداع مزيج ثقافي سواحي جديد . كانت السواحية ، كلغة ، مزيجاً من المفردات

البانتوية والعربية، ولكنها تكتب بحروف عربية ، وغلبت التجارة على المنطقة وغالباً ما حقق الحكام المسلمون والنظمون الهنود الثراء، لكن تقافهم كانت مستعارة من فارس وعمان .

واستخدم معظم العبيد في المزارع القائمة على ساحل أفريقية الشرقى بانزغم من وجود سوق منتظمة لهم فيما وراء البحار . وكان الخدم من الزوج من المظاهر المألوفة في بلاد العرب وفارس والهند حتى أن الصين اشترت عدداً قليلاً منهم في السنوات التي أعقبت ذلك العصر .

ومع ذلك نادراً ما استخدموا في العمل الزراعى الواسع النطاق ، ولهذا كان الطلب الخارجى عليهم محدوداً دائماً. لسنا نجد اليوم الكثير من الزوج في هذه البلاد لأن تجار الرقيق من بلاد الزنج لم يصدروا سوى الخصيان من الذكور، وهذا بطبيعة الحال منع إغراق البلاد بهم، وساعد على استئناس العبيد والخدم . وكانت للزوج سوق مضمونة تزودها بالعبيد الذين يحلون محل من ينتهى أمره منهم .

وبحلول القرن الخامس عشر كانت السفن تأتي من وقت لآخر إلى مدن الزنج من كاتون، ولكن أحداً من الصينيين لم يُقم هناك بصفة دائمة. وواصل العرب السيطرة على السياسة وجباية الرسوم الجزرية ولكن سمح للأجانب بالتحكم في التجارة ذاتها : الهنود والصينيون في البحر ، والبانتو في داخل أفريقية الشرقية . وكانت المدن ذات السيادة مثل كلوة أو ممباسا تفرز الجزية من وقت لآخر ، أو تبعث الاضطراب في التجارة ، أو تمارس النفوذ العسكرى في الموانئ الأخرى ، ولكن ظلت كل محلة مستقلة من حيث الجوهر . والحق كانت كل مدينة من مدن الزنج مختلفة عن غيرها . فاليندى وممباسا



البحر المتوسط

بلاد فارس

القاهرة

مصر

عمان

بلاد الهند

سبأ

بحر العرب  
البحر الأحمر

البحر

المحيط

إثيوبيا

إريتريا

خط الاستواء EQUATOR

الهندى

السودان

إثيوبيا

أفريقية الشرقية

وببلاد العرب

سنة 1998

1998

البحر

إثيوبيا

إثيوبيا

إثيوبيا

إثيوبيا



على ساحل كينيا كانتادولتين لهما أهميتهما من ناحية المزارع القائمة فيهما، ونحمت  
مباشراً كذلك في تصدير العبيد في تلك المنطقة . كذلك تخصصت كلوة القائمة  
على الساحل الجنوبي لتجانيقا الحديثة في العبيد . وكانت تجارة زمبابوى في  
الذهب تمر عن طريق سفالة الواقعة عند مصب نهر زمبيزى . ولما كانت تجارة  
مدينة موزمبيق مع الداخل صغيرة جداً لهذا اعتمد رعاؤها أصلاً على تحكيمها  
الاستراتيجى في مضيق موزمبيق ، وعلى عدد من المزارع التى أنشئت فيها .  
كانت حظوظ كل دولة لا تعتمد على الإنجازات الزراعية والعسكرية فحسب ،  
وإنما تعتمد أيضاً على هجرات البانتو إلى الداخل ، تلك الهجرات التى لم يكن  
فى الإمكان التنبؤ بها .

فإذا انتقل الزنوج بعيداً أو تشددوا فى المساومة تضاءلت تجارة الرقيق  
والمزارع . إن تفوق العرب التجارى والسياسى الذى دعمه تدفق العمال البانتو  
ومنتجات المناجم من الداخل كان متأصلاً فى الساحل الأفرىقى الشرقى عندما  
حل القرن الخامس عشر . وفى ذلك الوقت حمل فاسكودا جاما العلم البرتغالى  
شمالاً من رأس الرجاء الصالح ، واقتصر أمر الأوربيين على أن استولوا على نظام  
الزنج المستقر الدائم وتولوا إدارته .



## إمبراطوريات ساحل أفريقيا الشرقية

في نهاية القرن الخامس عشر كانت كلوة تبسط سلطانها على المدن العربية الجنوبية، بينما سيطرت ممباسا على المدن الشمالية. وعندما شق أسطول فاسكوداجاما المتجه إلى الهند طريقه بجذاء ساحل أفريقية الشرقية في مارس سنة ١٤٩٨ كانت موزمبيق أول ميناء اكتشفه في بلاد الزنج. ظن العرب في مبدأ الأمر أن الأسطول يمثل جماعة من التجار المسلمين الجدد، واعتقد البرتغاليون أنهم اكتشفوا مملكة مسيحية لعلها مملكة بريسترجون.

وسرعان ما تبذرت الأوهام، فهاجم فاسكوداجاما المدن وخذعها واحدة تلو الأخرى، حتى بالرغم من أن بعضها أبدى نحوه الود؛ واكتفى البعض الآخر بامتياز موقف الحذر. ليس واضحاً ما إذا كان موقفه ناشئاً عن حماسة دينية أو عن خوف من قوة العرب أو مجرد نزعة إلى الفساد؛ وكانت ماليندى هي الوحيدة بين جميع مدن الزنج التي استطاعت فيما بعد أن تنسى موقفه وتعتبر نفسها صديقاً للبرتغال.

كانت الهند وجزر الهند الشرقية الهدف الرئيسي. ففي ١٥٠٩ - ١٥١٠ أخضعت حملة عسكرية برتغالية بقيادة القونسو البوكيرك وبصورة منظمة جميع المستودعات التابعة للعرب والهنود وأبناء الملايو، وتحكمت في طرق التجارة المتفرعة منها. وأصبحت موزمبيق في أفريقية وهرمز في فارس وملقا على

مضايق الملايو وجوا! في شبه القارة الهندية أحجار الزاوية في الإمبراطورية .  
وأدارت البرتغال طرق التجارة بين القارات بسفنها ، ورخصت للسفن الهندية .  
والعربية بخدمة التجارة الفرعية على طول السواحل الأفريقية والآسيوية . ولم  
تملك البرتغال من القوة البشرية ما يمكنها من الحكم ومزاولة التجارة في كل  
مكان ، ولذلك نظمت الموانئ الثانوية في البلاد عن طريق جباية الجزية بصورة .  
متقطعة ، ومن وقت لآخر استقبلت الزوار . غير أن المناجم لم تغل أبداً من  
الثروة القدر الذي كان يريد التجار ، بل كان النجاح الذي حققته البعثات الدينية .  
أقل إذ لم يكن في مستطاع البرتغال توفير عدد من المساواة بحيث يؤثر في  
نفس المونوموتابا الذي يستطيع أن يقدر حقيقة القوة .

ونادراً ما كان يسمح للأوربيات بالتوجه إلى المستعمرات ولهذا توقف .  
استمرار الحكم الأوربي على التزاوج مع الوطنيين ، وانتقلت التجارة البرتغالية  
بالتدريج إلى أيدي المولدين المخلصين خلال القرن السادس عشر .

وظل التجار الهنود يعرفون باسم « البنيان » كما كان الحال في أوائل  
العصر العربي ؛ ولكن الهنود الذين اعتنقوا المسيحية والمولدين كانوا يعرفون  
باسم « الجويين » Goans إذ كانوا في العادة من جوا وهي مقر إمبراطورية .  
البرتغال الاستعمارية على ساحل ملبار بالهند .

كان التوغل في الداخل عملية كثيرة التكاليف دائماً في الرجال والمال .  
فبالرغم من المعاهدات التي عقدها كايادو لم يكن في مقدور المونوموتابا  
السيطرة على قبائل الباتو الخاضعة لنفوذه . ولكي يقسنى الاحتفاظ بقبضة .  
البرتغال على الداخل الذي يبشر بالخير ، شجعت المغامرين الجويين من .



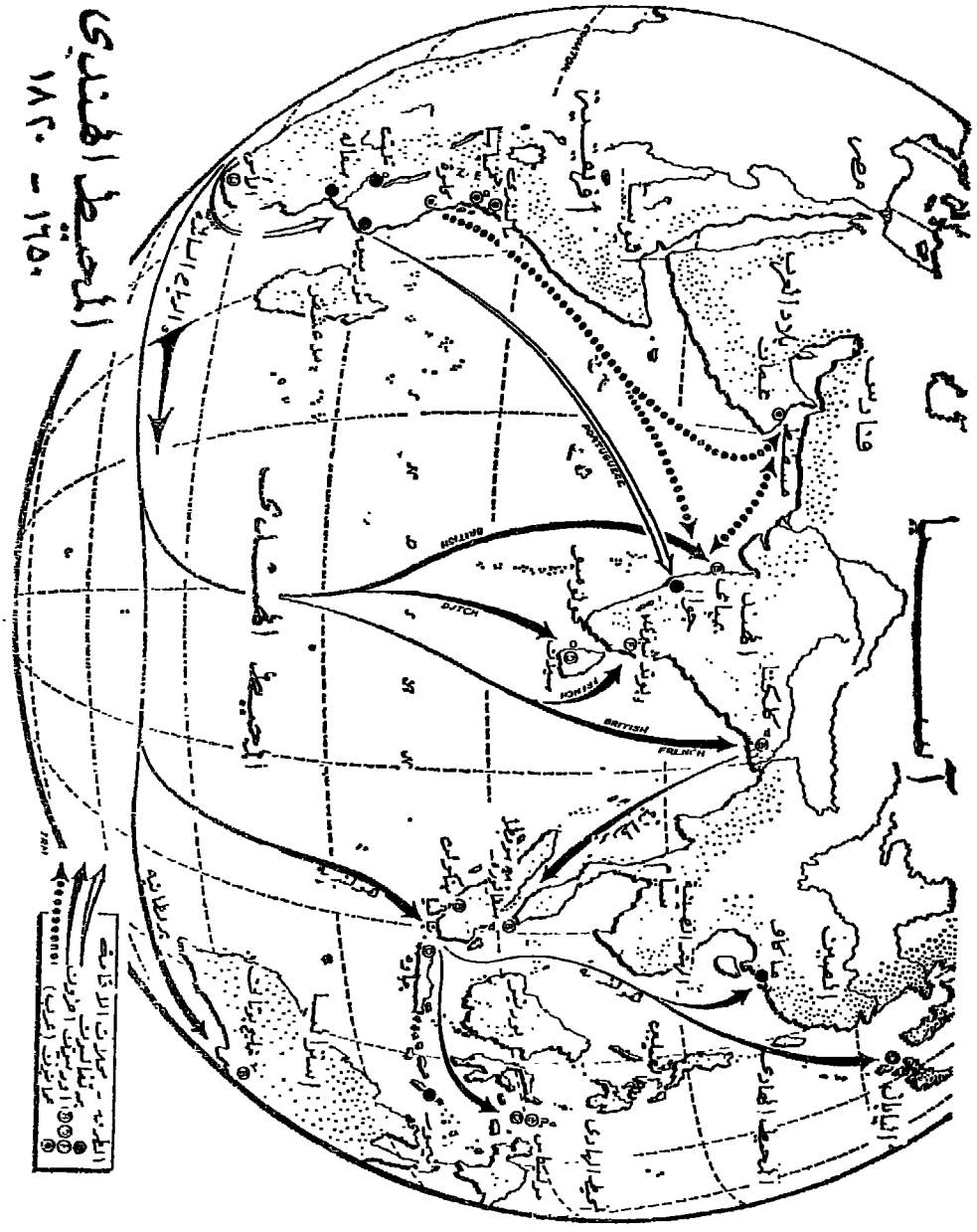
أبنائها على الإقامة على جوانب المجارى العليا من نهر زمبىزي ، ومنحت إلى هؤلاء البرازيرو Prazeros المزارع الشاسعة على انحنو الذى نجح فى البرازيل . ولكى يتمكن الآخرون من الاحتفاظ بهذه المنح واستغلالها سمح لهم بجلب العبيد لأداء العمل ولتكوين جيوش خاصة ، وسرعان ما زالت الثقافة البرتغالية ومعها الدم الأبيض والطاعة للتاج . ولكن البرازيرو الفخورين فى عنف بامتيازاتهم الإنطاعية وجنسياتهم الأوربية ، واصلوا السيطرة على ضياعهم الكبيرة شبه السلحة ، والتي تعيش فى حالة اكتفاء ذاتى عن طريق استخدام العبيد .

لم تكن أفريقية أبداً فى نظر المشروعات البرتغالية فى مثل أهمية جوا أو جزر التوابل ، وذلك باستثناء تجارة ذهب المونوماتابا عن طريق سفالة . وأصبحت جوا المستودع الرئيسى والطريق المؤدى إلى ثروة الشرق ، وجرى احتلال شرق أفريقية بقصد حماية طرق الملاحة بين الهند والبلد الأم ، ولمنع الدول الأخرى من تهديد الاحتكار البرتغالى بالحصول على موطنىء قدم فى تجارة البلاد .

ولم تكن لدى البرتغال من المصلحة أو القوة البشرية ما يمكنها من احتلال جميع بلاد الزنج احتلالاً فعالاً . ولم يحل دون بعث قوة العرب الاقتصادية أو السياسية المنافسة فى الأثناء البعيدة نحو الشمال على الساحل ، سوى قوة الأسلحة البرتغالية . وتملمت ممباسا وماليندى وكلوة برئاسة حكامها العرب التقليديين من الجزيات المفروضة عليها ، ومن القيود الخائفة التى قضت على ثرائها السابق .

# المحيط الهندي

١٦٥٠ - ١٨٢٠



وفي عام ١٥٨٠ ورث فيليب ملك إسبانيا عرش البرتغال، ففقدت الأخيرة على الفور عميلها الرئيسي أى الهولنديين الذين حاولوا طيلة ثلثي سنوات إبعاد فيليب عن عرشهم. وبدلاً من الاتجار مع البرتغال أو تقديم الرجال للمغامرات البرتغالية بدأت الأقاليم الهولندية الآن تبعث بأساطيلها إلى الهند. كان فيليب أكثر اهتماماً بالفضة الأمريكية، وبإخماد ثورة هولندا، وبإعداد الأرمادا ضد إنجلترا منه بمشكلات البرتغال الاستعمارية.

وضاعت جزر شرقية لها قيمتها الواحدة تلو الأخرى، وسقطت المحطات في الهند أو تجاوزتها السفن، وتحول الأمراء والتجار الذين درجوا على الاتجار مع البرتغال إلى القادمين الجدد. وحتى إذا تجنبت السفن البرتغالية المراكب الحربية الهولندية فإنها لم تعد تجد سوى القليل من العلاقات التجارية القديمة. وتخلصت المدن العربية بنجاح من القيود على التجارة ومن التزامها بأداء الجزية مما سبق أن فرضته البرتغال عليها.

وفي جميع أرجاء أوروبا اكتسبت أفريقية الشرقية سمعة بأنها فقيرة وغير صحية، ولم يعتبر الهولنديون أن تجارتها أو جزيتها شيء يستأهل الاهتمام. وفضلاً عن هذا اكتشف الملاحون الهولنديون رياحاً سائدة جديدة أقوى وأوفر أمناً من التي تهب على طول الساحل الأفريقي الشرقي. وإذا اتجهوا شرقاً من رأس الرجاء الصالح تجنبوا الرياح الموسمية المتقلبة والمناطق الضحلة في مضيق موزمبيق.

لم يكن من السهل دائماً تقدير الرحلة إلى الشرق عبر المحيط الفسيح إذ ظلت معرفة خطوط الطول مسألة تعتمد دائماً على الحدس الذكي إلى أن استخدم



الكرونومتر في القرن الثامن عشر — ولكن الملاح الماهر كان يستطيع في العادة أن يجد طريقه إلى الهند أوجاوة ، وكل منهما معناها ربح مؤكد (أخفاً بعض الملاحين الهولنديين تقدير المسافة فاكتشفوا أستراليا ونيوزيلندا قبل أن يجدوا الطريق المؤدى إلى جزر التوابل ) . وكذلك تجنبت الساحل الأفريقي الشرقي بريطانيا وفرنسا اللتان خلفتا الهولنديين في تجارة الهند .

وفي الوقت الذي بدأ فيه تدهور البرتغال كانت ممالك المونوموتابا تمزقها المنازعات ، فقبائل نجوني وجماعات السوثو شقت طريقها بنجاح عبر مناطق التعدين وهي تتجه جنوباً في عامي ١٥٩٠ — ١٦٣٠ ، وحررت قبائل كثيرة من دفع الجزية إلى شعب المونوموتابا وحطمت التجارة الداخلية وتدخلت البرتغال بـ استخدام الجنود من أهل جوا ، واعترفت بأحد الأتباع المتمردين حاكماً جديداً على بلاد المونوموتابا ، بل ونجحت في حمل خليفته على اعتناق المسيحية . كان الموقف شديد التعقيد والزعيم المسيحي — وهو العوبة في يد البرتغال — البالغ الضعف ، وموارد البرتغال محدودة أكثر مما ينبغي ، ولم يكن في الإمكان إعادة الرخاء والاستقرار إلى سابق عهدهما ، وحتى قبل أن يخف الاضطراب في العقد الثالث من القرن السابع عشر عاد العرب إلى تأكيد وجودهم . وفي سنة ١٦٩٣ خضع إقليم المونوموتابا تماماً للبانفو من جماعة روزوي الذين تقدموا من منطقة بحيرة تيجانيقا ، وكان اهتمام أوروبا ونشاطها في مناجم الذهب والمدن المشيدة بالحجارة قد انتهى الآن .

وفي عام ١٦٢٢ بدأت عمان الواقعة في بلاد العرب تساعد المسلمين من أهل

أفريقية الشرقية على طرد البرتغاليين، ولم ينتصف القرن حتى كان معظم الساحل عربياً بشكل واضح، ولم يستطع البرتغاليون إلا الاحتفاظ بنقطة أو اثنتين. لسنوات قلائل وذلك عن طريق تركيز قوتهم، وعادت مدن الزنج إلى الظهور من جديد كمستودعات لتجارة الرقيق والزراعة العريبتين. وبفضل ما أظهرته عمان من مقدرة في قتال البرتغاليين تمكنت من حمل بلاد الزنج على الاعتراف بالولاء الفعال لها أكثر مما كان عليه الأمر قبل عام ١٤٩٨. حاولت البرتغال اسرداد المدن الواقعة إلى شمال موزمبيق ولكن توازن القوة بين العمانيين والبرتغاليين تحقق في النهاية في رأس دلجادو الواقع بين موزمبيق وكلوة، وفي اتجاه الجنوب أمكن حماية المصالح البرتغالية بفضل وجود البرازيرو وتجارة الرقيق التي ازدهرت بعد عام ١٦٤٥، ووضع حد من الناحية العملية لقوة عمان. ولم تتدخل الدول الأخرى في شئونها لأنها لم تهتم بالأمر بالرغم من أن البريطانيين كانوا يقدمون لها بعض التأييد غير المباشر بحكم التحالف بين لشبونة ولندن، ومعاهدة الزواج المعقودة في عام ١٦٦١. وفي شمال رأس دلجادو كان العمانيون الحماة الذين لقوا الترحيب في المدن الساحلية العربية، وبحلول عام ١٧٤٠ كان الإمام قد دعم ممتلكاته العربية بحيث أصبح قادراً على توجيه اهتمامه إلى الزنج.

كانت الهند أعظم عميل يُطمأن إليه بالنسبة إلى العبيد الذين تحصل عليهم. عمان من شرق إفريقيا، فقد كان في وسع دول الأمراء أن تدفع فيهم أثماناً تربو على ماقد تدفعه فارس أو بلاد العرب. وكان قماش الهند وأدواتها المنزلية تباع بأثمان عالية في بلاد الزنج، ولذلك كانت عمان الوسيط في تجارة أهلها الدول الأوروبية منذ انحطاط شأن البرتغال، طالما نشب العراك بين الأوربيين.

حول الهند ظل مركز العمانيين آمناً ، إلا أن بريطانيا أخرجت الفرنسيين في عامي ١٧٦٣ ، ١٧٩٩ ، وهزم تيبو صاحب آخر أمير مسوال للفرنسيين ، وأصبحت بريطانيا الآن تتحكم في طرق التجارة بين الهند وعمان ، ولكنها لم تحتل دول الأمراء ، ولذلك لم يطبق القانون الذي أصدره البرلمان في ١٨٠٧ بتحريم تجارة الرقيق على أسواق عمان . واستمر العرب يتحدون الحظر البريطاني ، ولكن وزارة الخارجية عمدت إلى الضغط الدبلوماسي على سعيد الإمام الحاكم في ذلك الوقت ، فوافق بتمتضي معاهدة مورسباي في عام ١٨٢٢ على قصر الأتجار في الرقيق على إمبراطوريتهم في بلاد العرب وشرق إفريقيا ، وعلى السماح للبحرية البريطانية بمراقبة شواطئها ، واستمر قدر بالغ من التهريب ولكن موالي الزنج بدأت تفقد بعض رخصتها السابق .

وثارت ممبسا ، أقوى هذه المدن ، ضد السلطان وطلبت من الكابتن ولين أولين من رجال البحرية الملكية إعلان الحماية عليها . اتعد اعتقد العرب أن في الامكان إحياء تجارة الهند إذا ضمت ممبسا إلى الإمبراطورية ، غير أن الوزارة البريطانية كانت مصرة على الابتعاد عن شرق إفريقيا كما سبق لها أن خرجت من ساحل الذهب .

وبعد أن ظلت ممبسا محمية تابعة لأولين لمدة عامين أصبحت رسمياً إلى السلطان سعيد في عام ١٨٢٦ .

لكن أبت ممبسا النظر في العودة إلى الإمبراطورية العمانية الآخذة في الانحلال ، ولم يحل عام ١٨٣٥ حتى تمكن الإمام سعيد من إخضاع المدينة التي تحدته ، وهو لم ينتجح في هذا بفضل القوة العسكرية وإنما نجح باستخدام

الرشوة والخيلة والحداع . ففى أثناء الحصار الذى دام تسعة أعوام أقام قواعد أمامية فى زنجبار ، تلك الجزيرة الخضراء ذات المناخ البارد نوعاً فى بلاد الزنج . وبعد انتهاء القتال عاد إلى عاصمته فى مسقط ببلاد العرب . كانت مسقط حارة وجافة ، وبدأت زنجبار أكثر أمناً وأدعى إلى البهجة من الميناء الصحراوى ، كما كانت مكاناً أنسب يستطيع عن طريقه استقلال شرق إفريقيا ولذلك نقل السلطان العمانى عاصمته من مسقط إلى زنجبار فى عام ١٨٤٠ .

كان سعيد قد وصل إلى الحكم عن طريق قتل منافسيه فى عام ١٨٠٦ ، ثم تمكن بعد ذلك من الاحتفاظ بسطوانه وتوسيع نطاقه بطريق الدسائس التى لا تنتهى ، ولكنه حرص دائماً على التقرب إلى الدبلوماسيين الأوربيين الذين يشغلون مركزاً طيباً ، ولم يكن يستخدم جيوشه إلا كحل أخير بعد أن تحقق كل سبل المحادعة والمجابهة . كان الإمام مقتصداً فى نفقاته كما خلا من مظاهر الأبهة بالرغم من الزيادة السريعة فى الثروة الملكية ، واعتقد زوار سعيد أنه رجل كريم ونبيل على نزاهة حقيقية وإخلاص يتصف بإنكار الذات .

وبعد أن نقل سعيد عاصمته إلى زنجبار بوقت قصير بدأ فى تنفيذ برنامج واسع النطاق للتنمية فى ممتلكاته بشرق إفريقيا ، فأسع نطاق زراعة الكاكو وأشجار زيت النخيل ، وغرست فى زنجبار أشجار القرنفل التى جىء بها من إنلونيسيا . وإذ تقدم تنفيذ المشروعات عظم الطلب على العبيد فاستغلت إلى أقصى حد الطرق القديمة التى كان يستخدمها تجار الرقيق ، وفتحت مسالك جديدة إلى الداخل ، وسارت القوافل المسلحة فى مواعيد منتظمة إلى بحيرتى نياسا وتنجانيقا . وإذا استثنينا بعض المراكز الحربية والتجارية التى أقيمت على امتداد

طريق القوافل فلم تصم أرض جديدة ولم ترغم قبائل جديدة من البانتو على الخضوع لحكم الزنج .

كان الكثيرون من البانتو يؤسرون بنصب الكائن لهم أو بطريق الخداع ، أو بشن الهجوم المباشر ، وكان غيرهم يشتركون من القبائل المتحاذية مع التجار ، وغالباً ما كان المال يدفع إلى قبيلة لملها على مهاجمة جارة لها .

لقد ظل العرب قرييين من الساحل طيلة ألف عام حتى سنة ١٨٤٠ ، وخلال ثمانية عشر عاماً تقدمت قوافلهم ومراكبهم وعملاؤهم حتى وصلوا إلى أعلى الكونغو في منتصف الطريق عبر أفريقية . وحمل تجار الزنج اللغة السواحلية إلى الداخل وجعلوا منها لغة مشتركة في شرق أفريقية ووسطها ، ولكنهم ولدوا سلسلة لم يسبق لها مثيل من الحروب القبلية الوحشية ، فتحطمت الزراعة المستقرة . واستعبدت قرى بأسرها من البانتو ، أو ذبح أهاليها وتناقص عدد السكان بسرعة . ووجد الأوربيون الذين احتلوا إفريقية الشرقية فيما بعد أن بعض المناطق كانت ما تزال تسودها الفوضى في القرن العشرين .

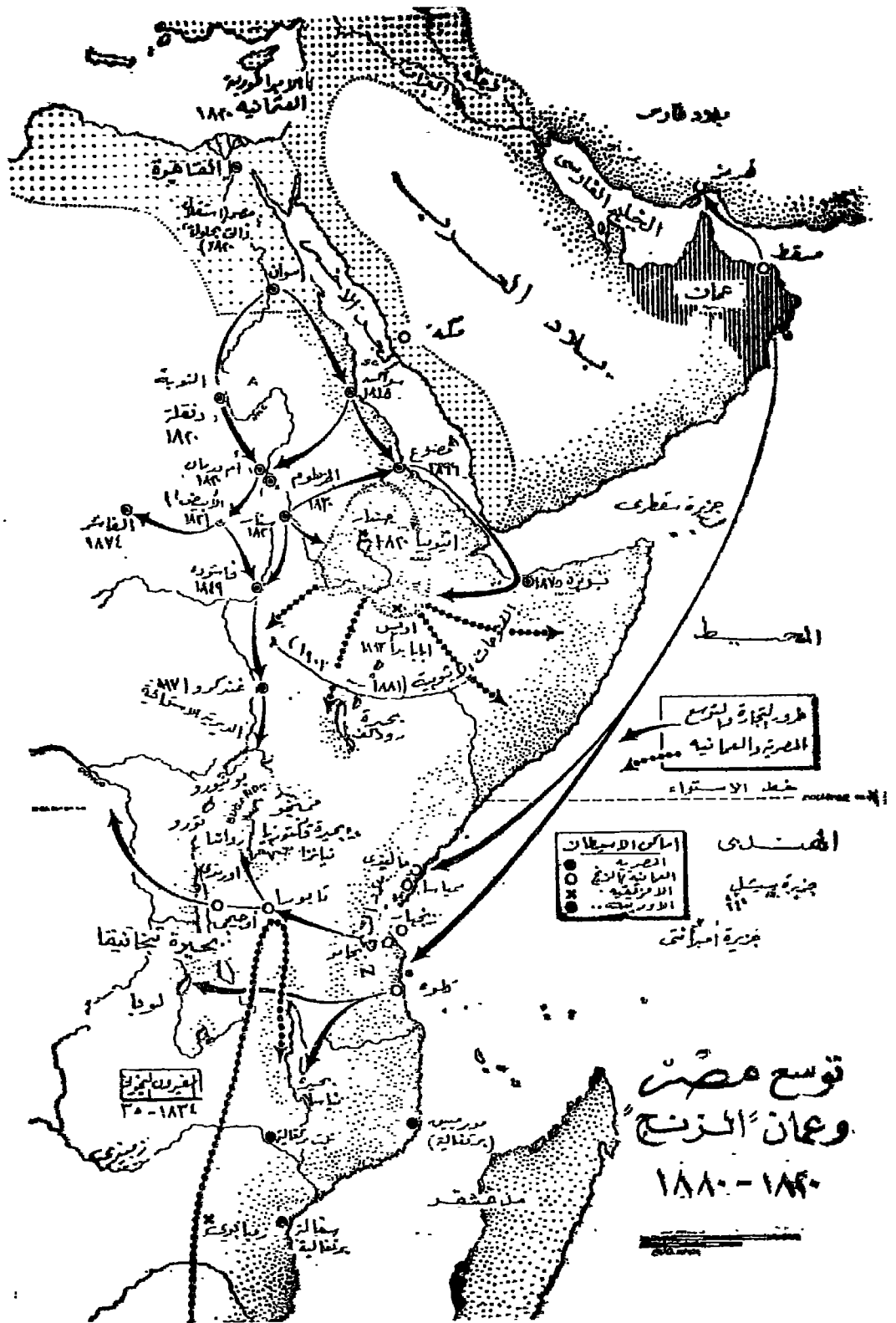
ونجحت زنجبار في ظل حكم السلطان سعيد المطلق في بسط سلطانها على الساحل من موزمبيق إلى الصومال ، فضلاً عن عمان وبعض الموانئ في بلاد فارس وبلوخرستان . وشاع الاضطراب في جزء كبير من الأقاليم الداخلية في إفريقية ، واستطاعت زنجبار بفضل الاستغلال المنظم للمزارع أن تحتكر الإنتاج العالمي بين القرنين ، وزاد حجم تجارتها عشر مرات في مدى عشرين عاماً .

وحرمت معاهدة هامرتون في عام ١٨٤٧ تصدير العبيد من إفريقية وبذلك

فقدت عمان مورد العمل لمزارعها ، ولكن ظل يسمح لسفن العبيد بالسير بجوار ساحل الزنج ، وعجزت الداوريات البريطانية في أعلى البحار عن التفرقة بين تجار الرقيق للسموح لهم بمزاولة تجارتهم على امتداد الساحل ، وبين أولئك الذين يقومون بتهرب العبيد بطريقة غير قانونية . وبعد عام ١٨٦١ لم يكن مفروضاً أن تحمل السفن العبيد ولكن قباطنة الزوارق المانية سرعان ما تعلموا كيف يمتنون الشك في نفوس البريطانيين بالإصرار على أن شخصاتهم من الزنوج لا تتكون من عبيد وإنما من رجال يقومون بإدارة المجازيف .

ومات سعيد في عام ١٨٥٦ ، وبعد سنوات خمس ثارت عمان إذ غضبت للخسارة التي عانتها في العبيد ، ولأنها هبطت إلى مركز ضئيل ثانوي في إمبراطورية الزنج . وأيدتها بريطانيا في المطالبة بالاستقلال مؤملة بذلك إضعاف الحافز على خرق المعاهدات التي تحرم الرق — واضطر مجيد سلطان زنجبار الجديد إلى قبول التقسيم . أصبحت إمامة عمان منصباً منفصلاً عن سلطان الزنج ، غير أن تجارة الرق لم تمت ولذلك بعثت بريطانيا في عام ١٨٧٣ بالسير بارتل فريير Frere لإجراء المفاوضات بشأن عقد اتفاق لتحرير العبيد . أغلقت سوق الرقيق ولكن لم يعقبه التحرير إلا في عام ١٨٩٧ في زنجبار نفسها ، وفي عام ١٩٠٧ في كينيا ، وفي عام ١٩١٩ في تنجانيقا .

وخلال توسع تجارة الرقيق في عهد السلطان سعيد وصلت بعض فروع طرق القوافل شمالاً إلى الحدود الجنوبية لبوجندة والحافة الشرقية لرواندا — أورندي ، وفي نفس الوقت كانت سلسلة أخرى من تجار الرقيق تقترب من حدود بوجندة الشمالية آتية من قواعد لها في مصر .



ظلت مصر قرونًا خاضعة اسمياً لسيادة الأتراك العثمانيين في الآستانة ، وكان العبيد منذ الأزمنة القديمة ينقلون بطريق النيل . وأدى الفتح الإسلامي لمصر إلى عزل سلسلة من الممالك المسيحية القائمة في حوض النيل الأوسط . استمر الرق قائماً ولكن التجارة كانت قليلة .

وفيما بين القرنين الحادى عشر والخامس عشر حدث تسرب إلى هذه الممالك انتهى باعتمادها الإسلام ، وخلال الفوضى كانت الدول القائمة في حوض النيل أضعف من أن تشن غارات كبرى من أجل الحصول على العبيد .

وبدأت مصر غزواً منظماً لأعلى النيل في عام ١٨٢٠ ، ذلك أن محمد على -وهو قائد عثمانى أثارهياج كل أوروبا بسبب معاملته للمسيحيين اليونانيين- أصبح «خديوى» على مصر فجعل منها دولة ذات سيادة مستقلة عن الإمبراطورية العثمانية<sup>(١)</sup> . وجاء التوسع بالجدد كما أدى إلى بعث الحياة في تجارة الرقيق ، وسدت بريطانيا الطريق البحرى في وجه هذه التجارة ، ولكن محمد على أنشأ طريقاً تجارياً في الداخل يمكن أن يعتمد عليها ، وقبل وفاته كان قد تم تخيط أفريقيا وغزائها ، ووصل المصريون إلى الحافة الشمالية ليوجنطة الاستوائية أو إلى مسافة بعيدة في اتجاه الجنوب ، كانت قوافل زنجبار القائمة بأسر العبيد تثير أعظم الذعر .

عند هذه النقطة بدأ اهتمام أوروبا يشتد ، وراحت التقارير الواضحة الواردة

---

(١) كان محمد على والياً على مصر أمماً لقب خديوى فم بدأ استنظامه إلا أن عهد إسمايل . كذلك من الخطأ القول بأن محمد على جعل مصر دولة مستقلة ذات سيادة ، فظلياً لفرمان الصادر في عام ١٨٤١ ظلت ولاية تنقرت بسيادة الدولة العثمانية ، وإن حصلت بمتصله على بعض مظاهر الاستقلال الداخلى ؛ للترجم .



من الداخل تبين الطابع غير المستحب لعمليات الاسترقاق ، ووضح أن الدائريات البحرية لم تحم من المساوىء بشكل فعال .

وعندما فتحت قناة السويس في عام ١٨٦٩ تدخل الأوربيون في شئون مصر إذ كان هناك طريق جديد وقصير إلى بلاد الزنج ، وسرعان ما أبدت بريطانيا وفرنسا وألمانيا اهتماماً نشيطاً بالمناطق الداخلية شرق أفريقية .



## فروجونب أفريقيا

بعد أن اجتاحت الفيرون من جماعات السوثو والنجونى أراضي المونوموتابا، وحطموا موزمبيق البرتغالية فيما بين عامى ١٥٩٠ ، ١٦٢٠ ، عبروا نهر ليمبوبو إلى جنوب أفريقيا ، وسرعان ما نشقت الخوسيون المتفرقون وذوو التنظيم الضعيف ، والذين كانوا السكان الوحيدين فى البلاد منذ عصور ما قبل التاريخ ، وقتل البوشمن أو فروا إلى صحراء كلهارى غربى السهل المرتفع المغطى بالحشائش ، وتحرك الكثيرون من الهوتنتوت جنوب رأس الرجاء الصالح وامتزج غيرهم بالغزاة البانتو .

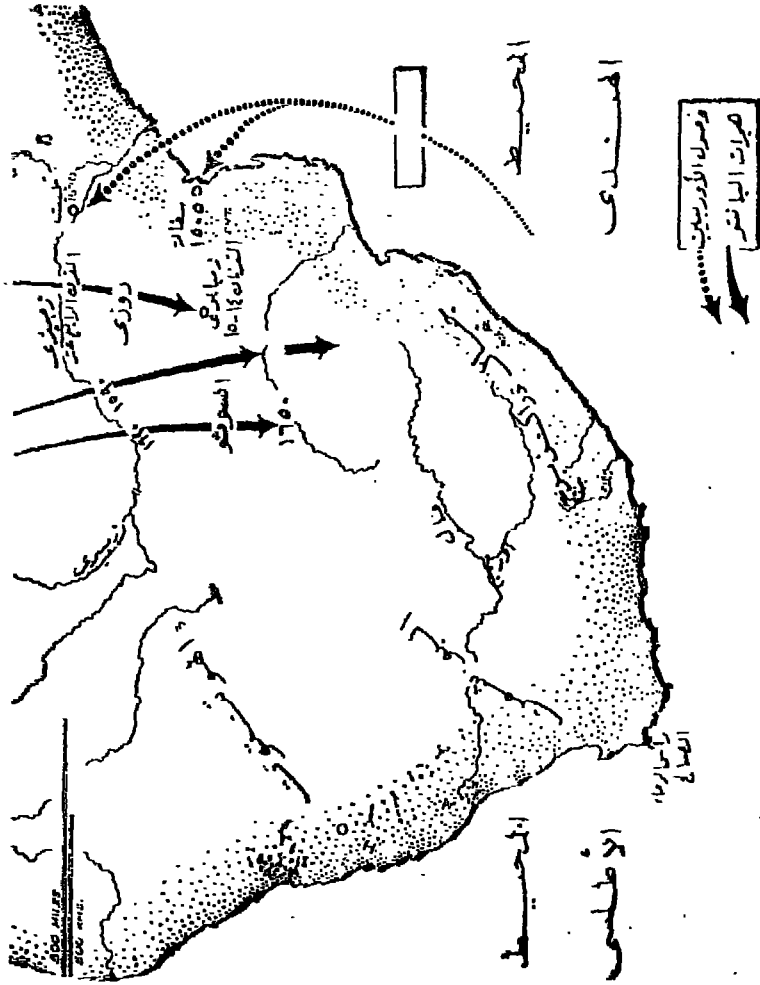
واستولى النجونى - وهم أول الغزاة وأشدهم وحشية - على الأراضى الساحلية شبه الاستوائية فى ناتال الحديثة ، وبعد أن عبروا جبال دراكنزبرج من ترنسفال افتقرتوا بمجموعات أربماً لاحتلال البلاد الجديد ، فأقام السوازى فى الشمال الشرقى ، واستوطن الزولو والبوندو والأكوسا على امتداد الساحل فى اتجاه رأس الرجاء ، وعندما وصلوا إلى نهر كى Kei حوالى عام ١٧٠٠ كانوا قد تشبعوا مؤقتاً بحافزهم على الغزو .

وبقى السوثو فى الداخل بين جبال دراكنزبرج وصحراء كلهارى ، ووصل الفرع الجنونى منهم خلال القرن السابع عشر إلى ولاية أورنج الحرة الحديثة ، وظل السوثو الشماليون فى ترنسفال .

وبحلول القرن السابع عشر كان الخوسيون قد أخرجوا من معظم أفريقية باستثناء صحراء كلهارى وأفريقية الجنوبية الغربية الحديثة ومقاطعة الرأس . وعاش البوشمن على الصيد ، بينما كان الهوتنتوت متفوقين في تربية الماشية ، وكانت الأراضي التي ظلوا محتفظين بها ملائمة تماماً للحرف التي يزاولونها .

وكان البرتغاليون المتجهون إلى الهند يتوقفون عادة في مكانين وهم في طريقهم بين أوروبا والشرق في القرن السادس عشر ، وذلك في البرازيل ، أو أفريقيا الغربية وفي موزمبيق . ولم يكن رأس الرجاء الصالح مكاناً مناسباً للتوقف فيه ، وفضلت السفن الهولندية والإنجليزية التي حلت محل البرتغالية الطريق للفتوح والتجسس شرقاً من الرأس ، ولذا تعين عليها أن تجد موضعاً جديداً فتزود منه بالثؤونة بفصل الرحلتين الطويلتين عبر المحيط الأطلسي والهندي . واحتلت شركة الهند الشرقية الهولندية جزيرة سنت هيلانة فيما بين عامي ١٦١٧ و ١٦٤٥ ، بينما توقفت السفن الإنجليزية في المحطة الهولندية ، أو توقفت وحدها في جنوب أفريقية سعياً وراء الماء واللحم وربما لتدريب بحارتها .

غير أن سنت هيلانة لم تكن مكاناً يدعو إلى الرضا إذ كانت تقع في منطقة نفوذ شركة الهند الغربية الهولندية وكان مفروضاً في رجال الشركة الأخرى أن يتجنبوها . وكانت الجزيرة من الصغر بحيث لا توفر كل المطلوب منها ، وغالباً ما كانت بعيدة عن الطريق بالنسبة إلى سفينة تحاول أن تجد أفضل الرياح التي تساعد . وحدث أن غرقت سفينة على مقربة من الرأس ، ونجح ملاحوها في قضاء شتاء عام ١٦٤٧-٤٨ في جنوب أفريقية ، فقرر مديرو شركة الهند الشرقية الهولندية أن ينقلوا محطتهم إلى البر .



اختلاف جنوبي | فرنسيه قبل عام ١٩٥٢

وفي ٦ أبريل ١٦٥٢ وصلت إلى تيبيل باي Table Bay ثلاث سفن تحمل المستعمرين والمؤن ، وفي اليوم التالي أنشأ الحاكم جان فان ريبك Jan van Riebeeck مدينة الرأس ، وبدأ بعد الخطط لفرس المدائق وتربية قطعان الماشية والقيام بقدر يسير من التبشير . لم تكن محطة رأس الرجاء الصالح تعتبر مركزاً للاستعمار أو قاعدة لفزو البرية وإنما اعتبرت مجرد محطة للخدمة ملحقمة بمشروع التنمية الواسع النطاق الذي يتركز على جزر الهند الشرقية .

كان الوطن الهولندي مجرد اتحاد تماهدي من ولايات ذات سيادة ، سبق قبل ذلك بأربع سنوات أن نالت أخيراً استقلالها عن إسبانيا . وكان مجلس طبقات الأمة في الأراضي الواطئة المتحدة ضعيفاً وليس في وسعه اتخاذ أى عمل دون الموافقة الإجماعية من جانب المقاطعات الأعضاء ، إلا أنها جميعاً وافقت على منح الشركة امتيازاً في عام ١٦٠٢ يجعل منها ممثلاً لها ذا سيادة في تجارة الهند الشرقية وفي شئون الدبلوماسية والحرب ، وربما ظل الاتحاد الهولندي طيلة ٢٠٠ عام دون شركة الهند الشرقية الهولندية قوة والتي كان يدير شئونها من أستردام «السبعة عشر مديراً» أو السادة الكبار الذين يمثلون جميع الأقاليم التجارية الكبرى . وأصبحت باتافيا في جزيرة جاوة مركز العمليات في الشرق ، وأقيمت المحطات التجارية في اليابان والهند والملايو وفورموزا وسيام ، كما أنشئت المزارع الكبيرة في إندونيسيا وسيلان ، ومن باتافيا أيضاً تدار شئون مدينة الرأس التي تخدم السفن التي تربط هذه المراكز بأوروبا .

ومنذ بدء عصر الكشوف لم يكتشف الأوروبيون قوماً في غرابة البوشمن وأحققتهم بالثناء . كانوا يبديون عاجزين عن فهم أى تنظيم اجتماعي أكبر من

الأسرة، ولم يشعبوا بأفكار الأوربيين الدينية أو التجارية، وسرعان ما شكّل البوشمن والهوتنتوت مشكلة كبرى. بدأت الحرب في ظرف أربعة أيام ولجّ تحرز أى من المحاولات الضعيفة من أجل تنصير الخوسيين تقدماً، ونشأ التوتر منذ البداية بينهم وبين الأوربيين الذين بدأ تاريخهم والأسباب التي جاءت بهم إلى جنوب أفريقية أموراً غير مفهومة. وبالرغم من أن فان ريبك كان تواقاً إلى الحصول على الماشية فإن الهوتنتوت لم يتجرروا معه إلا بصورة غير منتظمة، ولم يكن في الوسع الاعتماد عليهم إلا بعد انقضاء أجيال عدة من الاجتماع والاختلاط العنصرى تنشأ خلالها علاقة دائمة بينهم وبين المجتمع الهولندى .

وتعين على الشركة أن تقوم بتربية حاجتها من الماشية لتزويد السفن للارتد في طريقها إلى الهند . ولم تنجح المحاصيل كما كان مأمولاً ؛ وكان الجنود والفلاحون الذين جيء بهم على أساس التعاقد لفترات معينة من فقراء الفلاحين . وحاولت الشركة أن تستغل أراضيها في زراعة المنتجات الأوربية ولكنها لم تناسب مناخ منطقة الرأس . ولتصحيح الموقف جيء بالمستعمرين الأحرار في عام ١٦٥٧، كما جيء بالعبيد وهم الزوج من ساحل الذهب والملاويون من باتافيا .

وبرغم أن الشركة أرادت الإبقاء على المستعمرة الصغيرة متماسكة بدأ الفلاحون الأحرار (ويقال لهم « البوير » في اللغة الهولندية) يتحركون في اتجاه الداخل سعياً وراء أراض أفضل لأغراض الزراعة والرعى . وخشيت الشركة من أن تؤدي مثل هذه الهجرة إلى رفع تكاليف إدارة المستعمرة

وحرمانها من عنصر الكفاية ، وجمالها عاجزة عن الدفاع عن نفسها ، ولم يأت به المهاجرون بالتنظيمات الرسمية placards لأنهم فضلوا إشباع حاجياتهم على أداء الرسوم والضرائب العالية التي تتقاضاها الشركة . ومهما يكن من أمر ظلت مدينة الرأس السوق الأساسية لمنتجاتهم .

كانت الهجرة أسهل وأرخص من التنمية الرأسمالية ، فكان نقل المحاصيل البستانية من الداخل كثير التكاليف ، ولكن كان في الإمكان سوق الماشية مسافات طويلة إلى أسواق الميناء حيث تباع في العادة بأثمان مجزية ، وبذلك كانت الهجرة عملاً مربحاً إذ يمكن إنشاء مزارع تربية الماشية عند الحدود بدون الحاجة إلى رأس مال كثير ، وكان في الإمكان تجنب حكم الشركة العنيف ، وسرعان ما أصبح التوسع وراء الحدود هو التقليد السائد .

بل إن نسبة كبيرة من المستوطنين أخفقت في فهم الغرض من المستعمرة . كانوا راغبين بطبيعة الحال في الأتجار حيث يتوافر الطلب على منتجاتهم ، ولكن لم يشعروا بالتزام يقضى عليهم بالبقاء داخل اختصاص الشركة الفعال ، وكانت أغليتهم قد وفدت من الأقاليم الداخلية في الأراضي الواطئة ، وتعود الكثيرون منهم على أن يكونوا أقلية بروتستانتية في المناطق الريفية الجنوبية التي تغاب عليها الكاثوليكية ، وقليل منهم من كان يفهم أو يعنى بالعماليات التجارية المركبة التي تراولها الشركة . وكانوا معتادين على الاعتماد على النفس وعلى سلطان أقليتهم بدلا من القيود التي يفرضها رجال الإدارة الرسميون ، وعلى الحياة بعيداً عن المتاجرة أو التجارة ، ووقع بعضهم الاتفاقات الخاصة بهجرته عن طريق الإغراء أو الخداع وظن الكثيرون أنهم وقعوا على اتفاقات بشأن



توجههم إلى جزر الهند بقصد الإثراء السريع ، ولذا استاءوا عند إنزالهم في رأس الرجاء الصالح حيث تعين عليهم الاعتماد على منظمة تجارية احتكارية من أجل أية عملية يقومون بها ، وبهذا بدت الهجرة أفضل علاج لخيبة الأمل التي أحسوا بها .

وتماثلت طبيعة حياتهم السابقة مع الضرورات التي تفرضها حياة الفلاح للمهاجر فخالقت شعباً متميزاً . كانت الحياة عند الحدود تتطلب الاعتماد على النفس ، وليست شديدة التعقيد ، فابتدع البوير لأنفسهم نظاماً مستقلة تماماً عن جهاز الشركة . في هذا النظام كان الأب يرأس الأسرة التقاليدية ، ويختار موظفي الجهة أو الحاكم المدني أو قائد « الفدائيين » من الجيران والذين يمكن أن تدعوهم أية أسرة ، كما كان يختار الأمناء ومنهم ستة يعاونون الحاكم المدني في إدارة شئون الجهة ، وبالتدرج تقبلت الشركة هذا النظام إذ كان يمتاز بالكفاية والوفاء في النفقات .

كانت جميع الأرض أينما توجه المهاجرون — تعتبر من الناحية الفنية ملكاً للشركة ، ويستطيع الفلاحون استئجارها لقاء حوالي عشرة دولارات في السنة وتصبح الإجارة منحة دائمة ومعفاة من الإيجار بعد انقضاء خمس سنوات ، وجرت العادة بأن تأخذ الأسرة مساحة قدرها حوالي ٦٠٠٠ فدان (٩٠٥٠ أميال مربعة) لأنها تستطيع أن توفر الغذاء لما تملكه من الماشية .

لم تكن مدينة الرأس سوى مركز أممي في مشروع ضخم ، وكانت الجهات الرسمية لا تشجع الهجرة ، ولهذا نادراً ما توافر رجال الدين والعلمون واختلطت اللهجات الهولندية الريفية ، وتقبلت مؤثرات لها شأنها من التجارة المارين بالمنطقة

واستوعبوا كلمات كثيرة من الوطنيين الخوسيين والعبيد الملاويين ، وسرعان. ما ظهرت لهجة خاصة بمدينة الرأس عرفت باسم تال Taal ولكن أخفقت القواعد النحوية وأساليب الهجاء التقليدية نتيجة عدم وجود المدرسين وانعدام الدافع المنبثق من ثقافة خارجية . وكان الدين يدور حول الأسرة ، فكل أب إنجيل للأسرة مطبوع بالهولندية الأدبية ، ولكن بعد أن تغيرت اللهجة وتضاءلت المعرفة بالقراءة والكتابة أصبح من الصعب أن يطالعه . ونظراً لعدم وجود المفسرين المدربين في الداخل أصبحت النظرة الشعبية إلى المذهب المسيحي بصورة متزايدة نظرة بسيطة وقائمة على اليقين . كان إيمان أهل الريف بأوروبا في القرن السابع عشر بسيطاً وخشناً ، ولكن عقيدة البوير كانت جامدة بصورة غير عادية حتى قبل مغادرتهم الأراضي الواطئة ، وبوصفهم أقلية في ولاياتهم الأصلية كانوا منعزلين بشكل ملحوظ عن التيارات الفكرية الجديدة . كانوا من أتباع كلفن ولكنهم مالوا إلى تفسير الأقلية الخاص لهذا المذهب الديني .

ويرجع جانب من هذا المذهب الفريد إلى الجدل الأرمني الذي نشب في الأراضي الواطئة في أوائل القرن السابع عشر. كان كلفن مؤسس للمذهب المصلح قد حذر من الإفراط في الثقة بخلاص اللوء .

« لكن إذا وقع علينا الاختيار في المسيح فسوف لأنجد تأ كيداً باختيارنا في أنفسنا بل ولا في الرب الأب . . . على من يظن أنه واقف أن يحذر خشية أن يسقط<sup>(١)</sup> . » وزعم جاكوب أرمنيوس بعد ذلك أن جميع المؤمنين سوف

. (1) John Calvin : Institutes of the Christian Religion, 2 vols., Grand Rapids 1949, vol. 11, .pp 223,225

يشملهم الخلاص، وقرر المجمع الكهنسي المنعقد في دوروت Dorot والذي استنكر رأى الرجل في عزم ١٦١٩، أن الخلاص لن يشمل إلا عدداً محدوداً جداً من المسيحيين، وقال المجمع إن هذه الجماعة سوف تعرف أنها الشعب المختار. لم يمش المذهب الذي بشر به المجمع إلا أمداً قصيراً في أوروبا، ولكنه أصبح مذهباً دائماً بين الفلاحين الذين هاجروا إلى مدينة الرأس بعد ذلك بسنوات قلائل. لذلك ساد الاعتقاد في جنوب إفريقية بأن «المختارين» هم أولئك الذين استمسكوا بالديانة التقليدية والأسرة والإنجيل الهولندي، وبطيعة الحال كان هذا الاعتقاد يشمل جميع البوير بالفعل، ولكنه استبعد البوشمن والهوتنتوت الذين صعب حملهم على اعتناق المسيحية.

ربما من سوء الحظ بوجه خاص في فترة التكوين الباكورة أن حدثت الاتصالات إلى حد كبير مع البوشمن والهوتنتوت، فالأوثن مختلفون بشكل واضح والأخرون تجار خاملون بحيث لم تكن هناك سوى فرصة يسيرة للتبادل الثقافي، ولم يكن ثمة سبب يدعو إلى تعديل الأفكار الدينية. كانت ماشية الهوتنتوت مصدراً هاماً لتزويد الكاب باللحم، ولكن غالباً ماتمين إجبار القبائل، على الاشتغال بالتجارة وسرعان ما اعتقد البوير أن القدر قد حكم بأن يبقى الأوربيون منفصلين عن «الوطنيين» وأرق منهم، ومع ذلك لم تمنع هذه الاتجاهات الفلاحين من استخدام منتجات الوطنيين والأبدى العاملة الوطنية.

وسرعان ما أصبحت أصول عنصرية عدة ممثلة في مجتمع جنوب إفريقيا. كان العبيد للملاويون يقومون أصلاً بالخدمة المنزلية، ونادراً ما كانوا يؤخذون بعيداً

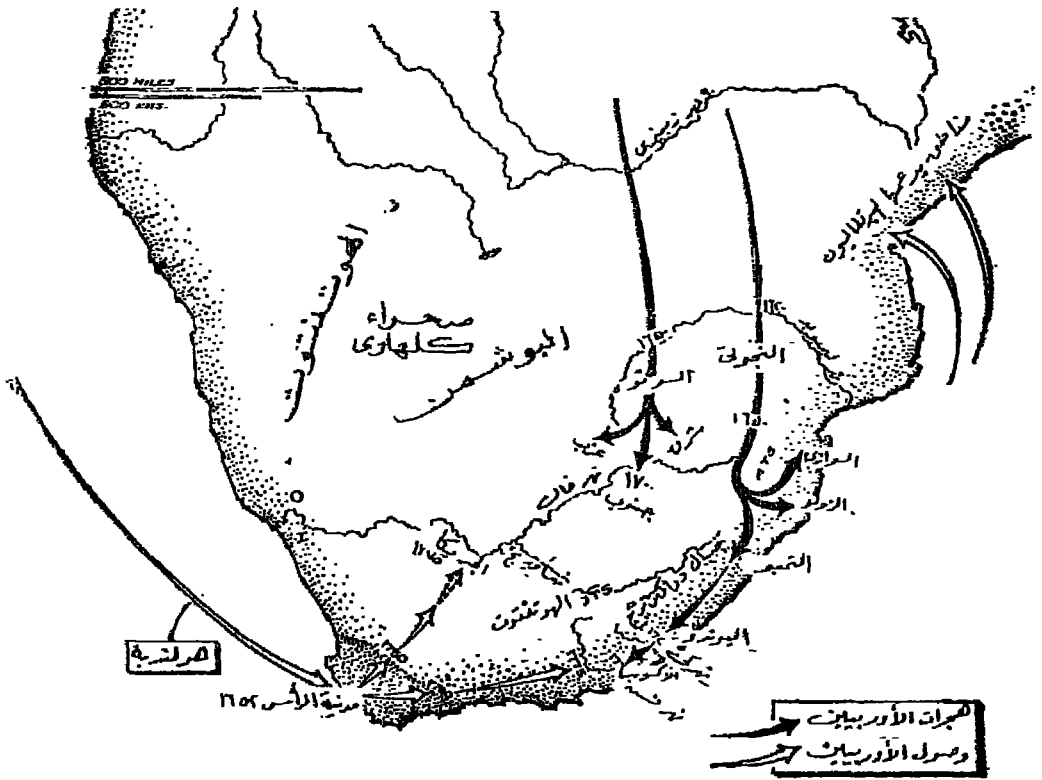
عن مدينة الرأس ، وواصلوا في العادة ممارسة شعائر الإسلام ، وظل البوير دائماً متميزين عن جميع الجماعات الأخرى في جنوب إفريقيا .

وبعد سنوات قليلة كاد عدد العبيد الزنوج أن يعادل عدد الأوربيين وكلهم ممن استوردوا من ساحل الذهب وموزمبيق . ونقل عدد كبير منهم إلى الحدود ، ولكن معظم ملاك العبيد كانوا يملكون من رأس المال ما يكفيهم للبقاء على مقربة من مدينة الرأس . وبالرغم من أن البوشن والهوتنتوت كانوا أكثر العناصر أجنبية إلا أنهم كانوا لا يزالون قوماً أحراراً ، وكان الاتصال الجنسي SEXUAL مع الأوربيين كثير الحدوث بسبب عدد قلة النساء الأوربيات بالنسبة إلى الرجال ، ولم يكن ثمة ما يشين في انتهاك حرمة قوم زعم الأوربيون أنهم من جنس منحط ، وبذلك ظهرت جماعة كبيرة من المولدين كان يطلق على أفرادها في مبدأ الأمر اسم « أبناء الحرام » ثم عرفوا فيما بعد باسم الجريكا أو اللونين ، وكانوا في العادة يشكلون طبقة من العمال الأحرار في الرأس ، ولكن الكثيرين منهم هاجروا فيما بعد إلى الحدود ليقبوا حكوماتهم شبه القبلية .

وفي عام ١٦٨٥ ألغى لويس الرابع عشر ملك فرنسا مرسوم نانت الذي ظل يحض البروتستانت طيلة سبعة وثمانين عاماً . وإذ تعرض الهيجونوت الآن للاضطهاد في بلادهم ، هاجر ألوف منهم إلى الرأس عن طريق هولنده . لقد جاموا بحثاً عن الحرية في ممارسة مذهبهم الكلفني وللإقامة بصفة دائمة . لم ترغب شركة الهند الشرقية الهولندية في استنجاارهم ، ولكن البوير رحبوا بهذه الزيادة في عدد السكان الأحرار . وزادت الحماسة الدينية ، وساعدت حدة النظم

السياسية عند الهيجونوت على تفويض سلطان الشركة عند الخدود، ودعموا إحساس البوير بأنهم شعب فريد، ذلك الإحساس الذي كان قد بدأ يتكون فيهم. كان الهيجونوت قد قطعوا صلاتهم بوطنهم الأصلي، وخلال جيل أتحدت الجماعات بحكم الشعور بتائل الأغراض ضد غير البيض والشركة والعالم، واتخذ الكثيرون من البوير أسماء هيجونوتية وسرعان ما ساد الجميع شعور بأنهم مواطنون من أهل جنوب إفريقية بدلا من أن تكون جنسيتهم هولندية أو فرنسية.

وإذ هاجر البوير نحو الشرق متفرقين في ربوع الداخل شرق مدينة الرأس تحولت الشركة نحو الموظفين الألمان للبقاء على التموين والتجارة في المدينة. مثل هؤلاء البروتستانت من إقليم الراين جاءوا إلى المستعمرة بالموسيقى والفن والرقعة، ولكن نظراً لعدم شعورهم بالولاء للأراضي الواطئة أسهموا أيضاً في نمو جنسية جنوب إفريقية. وظل رجال مناطق الحدود مضطربين إلى أن يسوقوا ماشيتهم إلى مدينة الرأس حيث يتمكنهم الحصول على ما يلزمهم من الذخيرة والبن والملابس وغير ذلك من المواد، ولم يفعل التجار الألمان الذين تعامل معهم البوير شيئاً لمقاومة أفكار البوير الانعزالية أو إحساسهم بالانفصال عن الأراضي الواطئة. كانت مثل هذه التجارة سبيل الاتصال الوحيد بالعالم الخارجي، فيما عدا الاحتفال الديني الذي يقام في أقرب كنيسة عشية عيد الميلاد. وكان هذا هو الحقل الاجتماعي الوحيد، وغالباً ما كان الاتصال الوحيد بالدين المنظم أثناء السنة، وكان لابد من إجراء عمليات التعميد والزواج والعشاء الرباني في ذلك الوقت، ولهذا لم يتح لتأثير الأفكار الواطئة من العالم الخارجي الفرصة كي يتغلغل في أعماق النفوس.



احتلال جنوب افريقيه 1702 - 1770

وبعد أن زاد الميجونوت من أعداد البور ودعموا أفكارهم، انتشر سكان منطقة الحدود إلى ما وراء الجبال الساحلية. لم يكن في الإمكان نقل المنتجات الزراعية لمسافة تزيد على سبعمين أو ثمانين ميلاً، ولكن كان في الإمكان تسويق الماشية مع تحقيق ربح، ولهذا سعى المهاجرون في القرن الثامن عشر إلى اقتناء مساحات كبيرة لإنشاء المزارع لتربية الماشية. ففي عام ١٧٥٠ كان جميع الأوربيين لا يبعدون سوى خمسة وخمسين ميلاً عن مدينة الرأس، وبانتصاف القرن ابتعدوا إلى مسافة ٢٢٥ ميلاً، وبحلول عام ١٧٧٥ كان عدد قليل منهم قد انتشر على طول نهرفش Fish، أي إلى مسافة ٥٠٠ ميل تقريباً نحو الشرق. وكان جزء كبير من أحدث الأراضي التي حازوها وهي هضبة كارو الداخلية، من الجفاف بحيث لا تصلح لغير الرعى. ولم يكن من الأمور المحزنة سوق الماشية إلى سوق المدينة من هذه المراكز البعيدة، ولذلك لم ينتقل الحد ثانية خلال نصف القرن التالي.

وكان أصحاب الأراضي في هضبة كارو التاسعة يعانون مشكلات خاصة بالأيدى العاملة لم تكن معروفة في الأقاليم الأقرب إلى مدينة الرأس. كان العبيد أصلح لأعمال الزراعة. ولكن لم يكن في الإمكان الاعتماد عليهم بالدرجة الكافية لرعاية الماشية وهي ترعى في أمثال هذه المناطق الفسيحة عند الحدود، ومع هذا توافر العمال من ذوى الدراية بتربية الماشية من صفوف الهونتوت الذين أخذ نظامهم القبلي في التداعى عندما أخذت الأرض منهم، وزاد اعتماد سكان منطقة الحدود من البور على هذا المصدر الذى يزودهم بالعمال المدربين للتسكين، وأصبح الهونتوت يعتمدون من الناحية الاقتصادية على الأوربيين.

وعلى الحدود كانت أزمة في تاريخ أفريقية توشك أن تقع ، إذ أصبح القلعة  
الداخلي. وساحل ناتال ومنطقة الرأس الشرقية موطن الزنوج البانتو ذوى  
النظام الطيب ، والذين سبق أن دخلوا جنوب أفريقية فى أوائل القرن السابع  
عشر. ونظراً لتفوق تنظيمهم دفعوا الخوسيين من البوشمن والهوتنتوت أمامهم  
صوب الرأس حيث نزل البوير فيما بعد. وكانت قبائل البانتو تملك قدرات  
تكنولوجية جعلت منهم فلاحين ومحاربين أعظم كفاءة من الشعب الخوسى ،  
وزاد عددهم بسرعة، ولذلك تقدم حد أرضهم بالتدريج حتى اقترب من حدود  
أرض البوير فى أثناء القرن الثامن عشر .

كان الصيادون الهولنديون الذين توغلوا بعيداً فى الداخل قد التقوا  
بأزنوج لأول مرة فى عام ١٧٠٢ ولكن الاتصال بين موجتى الغزو —  
البانتو من روديسيا والبوير من مدينة الرأس — لم يتم حتى عام ١٧٧٥ حين  
تقابلت قبيلة الأكوسا مع المهاجرين البيض عند نهر فش . كان كل من  
الطرفين قد حل فى جنوب أفريقيا منذ أكثر من قرن وكلاهما من «مواطنى»  
البلد ويملك الماشية بوصفها قاعدة اقتصاده ، وإذ تقدم الاثنان راحا يعطاردان  
الخوسيين. كان اللقاء بالغ الخطر والأهمية إذ أدى إلى الصراع بين طرفين قويين  
كل منهما يدفع حده إلى الأمام . إن التاريخ الذى يعقب هذا اللقاء تسيطر  
عنه الطريقة التى واجه بها كل من الجانبين الموقف وتخطى حدود الآخر .



## البوير والبساتو والبريطانيين

كان حتماً أن يقع الصدام بعد أن التقى البوير القوقازيون ، والآكسوسا الزنوج عند نهر فتش في عام ١٧٧٥ . كان كلاهما يشتغل بتربية الماشية ونسكن اتجاهاتهما وعاداتهما كانت متباينة ومتصلة في أعماق نفوسهما ، وكل منهما كان يريد التوسع على حساب الأراضي التي ترعى فيها ماشية الآخر . كان البوير يسعون إلى دعم مراعيهم وتوسيع نطاقها حتى ينسحب لهم إشباع المطالب الآخذة في الازدياد من جانب سوق مدينة الرأس ، وكان الباتو يضغطون من أجل الحصول على أرض جديدة تتسع لأعدادهم التي تسير في طريق الازدياد ، ولم يكن في وسع أى من الطرفين أن يدفع حده إلى الأمام دون أن يمتدى على حدود الآخر .

والزنوج الذين بدأوا يتاجرون في الماشية مع الفلاحين البوير سرعان ما عملوا على زيادة موارد مدينة الرأس من اللحم ، وبدأ فريق آخر من البوير يتحرك في الداخل إلى هضبة كارو، حتى وإن كانت الأرض أشد فقراً .

كان الباتو أوفر عدداً ولهم تقاليدهم التي تأخذ تيمناً بالملكية الجماعية لكل شيء ، عدا الأدوات الشخصية ، أما البوير - وكانوا يملكون أسلحة أرقى تموض الفقص في عددهم - فواصلوا الإبقاء على التقليد الأوربي الخاص بحقوق

الملكية الفردية . هاتان النظريتان المتباينتان عن ملكية الماشية لم يكن يفصل بينهما سوى نهر فش، ولم يكن في الإمكان تجنب المصادمات . وكانت الماشية قيمة اجتماعية عظيمة عند الأ كوسا إلى جانب قيمتها الاقتصادية ، إذ كانت الثروة تقاس بعدد رموس الماشية بحيث كان ينتظر من العريس الذي يعتمز الزواج أن يبين مركزه الاجتماعي وحسن نيته بأن يودع بعضها لدى أسرة العروس، وهذه العادة — ويقال لها لوبولا Lobola — كانت نوعاً من القرض أو التأمين وليست تمناً لشراء الزوجة ، كما ظن أحياناً البوير ورجال الإرساليات الدينية الذين جاؤوا فيما بعد .

وكان البوير في العادة يتمغون ماشيتهم بالنار لإثبات الملكية الفردية ثم يطلقونها للرعى في البرج الذي لا تحيط به الأشجعة ، غير أن الأ كوسا ، كانوا يحتفظون بقطعاتهم في قرى Corrals أو تحت إشرافهم عندما تخرج للرعى، وكانوا يعتبرون الماشية التي لا يرعاها أحد ملكية عامة إلى أن يأمرها أحد ويكبح جماحها . وعندما طبق الأ كوسا هذا المبدأ على ماشية البوير التي كانت تسرح على طول نهر فش أنهموا بالسرقة . وإذا زادت حدة الاستيطان على جانبي النهر ، واشتدت دعاوى كل من البوير والأ كوسا اتسع نطاق السرقة بسرعة إلى أن نظم البوير فرقاً تأديبية من « الفدائين » بقيادة أدريان فان جار سفلد . حاكم منطقة حدود الفلد ، وهذا العمل اعتبره الأ كوسا حرباً بطبيعة الحال . وكانت المناوشات التي ترتبت على ذلك في سنة ١٧٧٩ أول « حروب الكفار » المتكررة التي كانت لعنة أصابت جنوب أفريقية مدى قرن من الزمان ( كان لفظ Kaffir باللغة العربية معناه في الأصل غير المؤمنين، ولكن ما لبث أن أطلقه المسيحيون على الزنوج وكذلك على المسلمين ) . وأشاع زعيم

الكوماندوفان جازفلد الاضطراب في صفوف فرق الأكوستا باستخدام الخيلة  
واكتسب سمعة البطل حين عاد إلى حدود البوير وهو يسوق أمامه عدة آلاف  
من المشاة التي استولى عليها .

ونظم الهولنديون الذين كانوا قد توغلوا بالداخل في إقليم كارو ،  
مستعمرتهم drosdy في جرافرينت Graff-Reint في عام ١٨٧٦ . ولم تهيئ  
شركة الهند الشرقية الهولندية أية مائة ضد السرقة من جانب الكفار ، وبعد  
تسع سنوات قرر المستوطنون أن يتولوا الأمر بأنفسهم بإعلان استقلالهم ،  
وكان من المنطقي أن يصبح فان جازفلد بطل الحدود زعيمهم ، ولبس الفلاحون  
شارات مثلثة الألوان شبيهة بما لبسته جيوش الثورة الفرنسية .

وأصبح المجلس heemraden جمعية وطنية ، وتمول الفدائيون إلى جيش  
وطني راح يتعقب اللصوص من الكفار . إن نحو ١٤٠٠ من الأشخاص البالغين  
و ١٧٠٠ من الأطفال و ٦٠٠ عبد أنشأوا جمهورية تتحدث عن الديمقراطية والحرية  
والساواة والإخاء ؛ ولكن هدفها كان مجرد استقلال الحدود ، أما التأثير  
الفرنسي فلم يتجاوز الشعارات وعدداً قليلاً من المظاهر السطحية . كانت جمهورية  
المهاجرين الأولى التي ولدت بقصد الدفاع عن النفس ثورة ضد السلطة . كانت  
مدينة الرأس مازال هولندية ، ولكن البوير لم يشعروا بأى ولاء للوطن القديم .

وفي السنة ذاتها أي ١٧٩٥ تدخلت الثورة الفرنسية بالفعل وبصورة مباشرة  
في شتون جنوب أفريقيا عندما احتل البريطانيون مدينة الرأس . كانت فرنسا  
قد غزت الأراضي الواطئة وطلبت شركة الهند الشرقية الهولندية من بريطانيا  
العظمى أن تحمي مستعمراتها من جيوش الثورة ، وحاولت قلة من المستوطنين

بالقرب من الرأس مقاومة البريطانيين، ولكن قوات الشركة ورجال الحدود لم تحذوها .

جاءت بريطانيا لتسبق غزواً يقوم به الفرنسيون، وتوقعت أن تدير شئون المستعمرة الرأس بطريقة روتينية ومنظمة، بينما تطارد العدو في البحر، وأسّرت جراف ريفيت الفتية فأقترحت مبادلة ماشيتها بالأسلحة البريطانية بشرط أن تترك وشأنها عند الحدود، ولكن بريطانيا كانت تعزم أن تضطلع بالإدارة بصورة كاملة متقنة . وبعد سلسلة من المناوشات فيما بين عامي ١٧٩٧ ، ١٧٩٩ قضى على جراف ريفيت، وجببت الضرائب منها وزج بزعمائها في السجن .

ولأول مرة بدأ النشاط التبشيري على نطاق واسع بين غير البيض عند الحدود . كان التنوير العلماني والإحياء الديني في أوروبا والذنان أديا إلى ظهور حركة النظامية *methodism* قد خلقت اهتماماً جديداً بحماية الأجناس الأجنبية فيما وراء البحار، وتحويلها إلى المسيحية، وتصادف أن وصلت هذه الحركة التبشيرية إلى مستعمرة الرأس خلال احتلال بريطانيا لها .

إن الصلة بين الاثنين من قبيل التوافق الزمني، ولكن البوير اعتقدوا أن الفكرة اخترعت، وشجعت عمداً بقصد إخضاع إقليم الحدود الثائر . وقررت الجمعية التبشيرية بلندن أن تجعل محطتها الرئيسية في جراف ريفيت، وأن تركز جهودها على تحرير الهوتنتوت الذين كان البوير يعتمدون عليهم لتوفير الأيدي العاملة . وتولى أمر الإرسالية القس جوهانز فان در كيب، وهو هولندي . استخدمه المبشرون الإنجليز . كان رجلاً متهاوناً من الناحية الأخلاقية — إذ سبق أن تحول إلى خدمة الكنيسة في أوطان العمر ولكن لم تروض نفسه —

وكانت له أفكار عن نيل الهمج مستمدة من قراءة غير واقعية لمؤلفات روسو، وانتقد اتجاهات البوير إزاء الهونتوت والباتو، وغالباً ما كانت التقارير الفارسية التي يبعث بها إلى الجمعية في إنجلترا تتضمن قصصاً مختلفة أو مبالغاً فيها عن أعمال القسوة التي ترتكب ضدهم. وسرعان ما كره البوير بسبب الأفكار الثورية التي يبنها في عقول من يعتقدون المسيحية، وبسبب الأشياء التي كان يقولها ويكتبها، ولكن الجمعية استخدمت تقاريره لإثارة الرأي العام والتأثير في سياسة الحكومة. وحاولت وزارة الخارجية في العادة أن تتخذ موقفاً محايداً ولكن غالباً ما اضطرت إلى الاعتماد على المعلومات التي تصلها من إقليم الحدود متناقضة وغير منتظمة.

لم يفهم البريطانيون الأصل الخاص للعلاقات بين الأكوسا والبوير عند الحدود وطبيعتها الفريدة. كانوا يتوقعون أن يقوموا بالإدارة خلف حدود ثائثة، ومضمين على تجنب تكلفة ومسئولية الإشراف على الباتو. ومن أجل تقوية يد السلطة عند الحدود قرر الحاكم تجنيد الهونتوت في قوة البوليس. وكان الذين يقيمون منهم في إرسالية فإن دركب صالحين بوجه خاص لهذا العمل، ولذلك سلحوا وألحقوا بالقوة.

اعتبطت اللجنة بهذا القرار، ولكن البوير احتجوا عليه بشدة، وإلى عهد قريب قبل ذلك كان الهونتوت خدماً تابعين لهم، ولذلك اعتبروا فكرة الخضوع لبوليس مسلح من غير البيض، أفراد من رجال الإرساليات التي تثير الاضطراب، فكرة مهينة.

أحدثت معاهدة أسيان في عام ١٨٠٣ فترة سكون في الحروب النابونونية

وأعيدت الرأس إلى الجمهورية البتافية، وهي حكومة هولندية مستقلة سياسياً عن فرنسا، لكن لم يتغير الكثير، فقد ذهبت شركة الهند الشرقية الهولندية، وتشبعت الجمهورية بالكثير من حماسة الثورة الفرنسية وفلسفتها الليبرالية. وصمم الموظفون الجدد — وهم المثلثون المباشرون لحكومة أمستردام — على أن يضطلعوا بواجباتهم على الوجه الأكمل، فأبقى على البوليس المكون من الهوتنتوت وزيد عدد أفرادها، وقدم التأييد إلى الإرساليات وجمعت الضرائب بانتظام. لم تكن الإدارة الإصلاحية التي تولتها بتافيا أكثر تقبلاً لدى البوير من الإدارة البريطانية الغربية عنهم. كان من الواضح وجود اختلاف بالغ القدر في العادات والاتجاهات والأفكار بين جنوب أفريقية والأراضي الواطئة. إن إصلاحاً واحداً أدخلته بتافيا هو الذي ثبتت جنوره في إقليم الحدود، ذلك هو أنها أسندت إلى الحكام في مستعمرات القلد دوراً شديداً بدور قضاة الصلح في عهد النورمانديين مع منحهم سلطة فرض ضرائب وجبايتها وإقامة العدل على وجه السرعة، وبصورة بدائية، وقيادة الجماعة.

لم يقنع نابليون بالصلح فاستؤنفت الحرب في أوروبا وانهارت جمهورية بتافيا، وعادت بريطانيا إلى مستعمرة الرأس في عام ١٨٠٦، وفي هذه المرة لتبقى أكثر من قرن من الزمان.

وتأييد تملك بريطانيا الدائم للمستعمرة في عام ١٨١٥ في مؤتمر فيينا، ولكن الإدارة العسكرية استمرت حتى سنة ١٨٢٣. كان البوير قد أصبحوا بطريقة أوتوماتيكية من رعايا المستعمرات البريطانية. ومنذ البداية كانت مصالح الحكومة متباينة عن مصالح رجال الحدود الذين لا يخضعون لإدارة مركزية. وواصلت الإرساليات إرسال التقارير عن الفظائع التي يرتكبها البوير، ووجد

المحققون الإنجليز بعض حقائق تستند إليها الشكاوى ، ولكنهم أحسوا أيضاً أن رجال الإرساليات كانوا يشجعون الهونتوت على مضايقة البوير . كما البوير يعتبرون في نظر أهل بريطانيا قوماً « خلوا من الروح الإنسانية » بينما بد غير البيض القوم الأبرياء المضطهدين ، وأصبحت أعداد متزايدة من الهونتوت من رجال البوليس المسلحين ، واعتبرهم البوير إهانة ، وغضبوا لذلك لأنه يهدد المورد الذي يزودهم بالأيدى العاملة . وزادت حدة المشكلة بعد أن حرم البرلمان في عام ١٨٠٧ تجارة الرقيق ، إذ جعل التحريم مناطق الحدود تعتمد اعتماداً كاملاً على العمال الهونتوت .

وفي عام ١٨٠٩ صدر مرسوم في مستعمرة الرأس يعرف باسم « المناجفة الكبرى » للهونتوت « زاد من التوتر بسبب ما نص عليه من تحريم العقود الخاصة بتشغيل المدنيين كما ضمن حرية العمال . إلا أنه حاول منع التشرذم بأن طاب الهونتوت بتسجيل أسمائهم وحمل جوازات للورور .

وكان الزحف من جانب الهونتوت في المستعمرة مشجعاً للأكوسا الذين اشتد الضغط على مؤخرتهم بسبب توسع الزولو ، فزادت الغارات التي شنوها عبر نهر فش عدداً وجرأة . وطلب البوير عند الحدود السماح لهم بتنظيم فرق من الغدائين فرفض البريطانيون الطلب ، وبدلاً من الاستجابة إليه أمر البوير بالتجمع وراء خط من الحصون غربى نهر فش بقصد الجيولة دون أى اتصال بالكفار .

وكان لقانون الأراضي الصادر في عام ١٨١٢ تأثير عميق على التوطن في منطقة الحدود ، لأنه حاول إضفاء طابع الشرعية على هذا الخطر المفروض على

الاتصال بين الفريقين ، فألغى معظم قانون الأراضي الهولندي القديم : كان المفروض أن النظام الجديد الذى يودى إلى زيادة سلطان بريطانيا المباشر نظام زراعى ، فيمنع وجود الماشية وبذلك لا يجد الأكسوسا ما يغيرهم بشن الغارات على الحدود .

وطبقاً لهذا القانون لا يحصل المستوطنون الهولنديون إلا على ١٣٠٠ فدان بدلاً من التنظيم القديم الذى كان يجعل المساحة ٦٠٠٠ فدان . وطبقاً للنظام القديم كانت الضياع الكبيرة تصبح ملكية خاصة بعد أن يودى أصحابها إيجاراً سنوياً قدره عشرة دولارات لمدة خمس سنوات ، أما فى التنظيم فإن المتلكات الأصغر مساحة فرض عليها إيجار دائم قدره حوالى ١٠٠ دولار فى السنة ، وكان المفروض أن تقسم بين الورثة .

كان رد الفعل من جانب البوير سريعاً وعنيفاً فأعلنوا أن الرسوم أعلى مما ينبغي ، وأنه ينبغي أن تبقى مزارع تربية الماشية دون تقسيمها ، على أن يحصل الورثة على أراض جديدة ، وأن الرعى أكثر جزءاً من الزراعة . من الناحية العملية كان النظام القديم القائم على الإجارة مدى الحياة يجعلها دائمة ، ولهذا فإن المنح البريطانية لم تتضمن أية مزايا . كان جوهر الخلاف بطبيعة الحال هو محاولة القضاء على تربية الماشية ، ولكن البوير كانوا يعرفون أن الحد الشرقى كان قليل الصلاحية للزراعة وأن الرعى أوفر ربحاً ، وأن إعادة التوطن سوف تزيد من المؤثرات الأجنبية فى حياتهم .

وأغفلوا قانون الأراضي إلى حد كبير ، فتمسك المستوطنون بمساكنهم الأكبر مساحة والتي يستأجرونها مدى الحياة ، وواصلوا تربية الماشية لتسد حاجة



أسواق مستعمرة الرأس التي لا تشبع . كان البريطانيون قد عجزوا عن إدراك الحقيقة، وهي أن الماشية وليست المنتجات الزراعية هي الأساس الذي يقوم عليه اقتصاد الحد الشرقي، وأن المدن الغربية تعتمد في غذائها على قطعان البوير .

وبينما ثارت هذه المشكلة بدأ رجال الإرساليات يشجعون الهونتوت على مقاضاة رجال الخلود بسبب سوء المعاملة المزعومة . وعينت الحكومة محكمة سوداء متجولة لسماع الاتهامات ، وإذا اتهم أحد من الفلاحين حتى به أمامها لمحاكمته ، وغالباً ما كانت لجنة التبشير بلندن تقدم المحامين للدفاع عن المدعين ، وهنا اتهمها البوير بالتهاون و « عدم المسؤولية » إذ ساءهم أن يعاملوا على قدم المساواة مع غير البيض .

إن بعض الأحداث التي شهدتها تلك المحاكم ارتفعت إلى منزلة الأساطير الخيالية القومية في جنوب أفريقيا الحديثة ، ومنها قضية بوير الخادم الهونتوتي الذي اتهم بخدومه فردريك بزويد تهوت بأنه أساء معاملته . وربما فعل بوير هذا تحت الإغراء من جانب الإرسالية ، ورفض بزويد تهوت المثول أمام المحكمة مدعياً المرض ، ولكنه راح في صبر يبعث بالردود على اتهم الوجهة إليه ، وحاول أحد رجال بوليس الهونتوت إرغامه على الحضور إلى المحكمة فرفض السماح لغير البيض بالقبض عليه وقاوم البوليس وتمت .

وهناك أقسم أخوه جوهانز على الانتقام لقتله وكتب جاز عطوف هو هندريك بريسلو إلى جايبكا زعيم الأكوسا يقترح عليه عقد تحالف يمنع

بمقتضاه القبيلة أرضاً إذا ساعدت البوير على إقامة جمهورية مستقلة . اعترضت السلطات البريطانية الخطاب الطريق في وقبضت على برنسلو بتهمة التحريض على الفتنة وحاول الفلاحون الآخرون إنقاذه ولكنهم أخفقوا في إثارة ما يكفي من التأييد العملي من أجل قلب الحكومة العسكرية . وقتل جوهانز في المعركة ولكن معظم الفلاحين التمردين قبض عليهم في سلاخترز نك Slachter's Nek وحكم عليهم بالإعدام في عام ١٨١٥ .

أجريت محاكمتهم طبقاً للقانون الهولندي الروماني وكان جميع القضاة من الهولنديين أو البوير وكانت الأدلة قاطعة . لم تكن الثورة بالتأكيد فريدة في تاريخ منطقة الحدود ، ولم تنل الحركة تأييداً واسع النطاق في صفوف الفلاحين . ولكن الظروف الخاصة التي أحاطت بالإعدام أصبحت جوهر أسطورة كبرى .

فقد طلب من عائلات الثوار شهود الشنق فأنهزت المشائق ، وهو حاد مؤلم فسرتة الأسطورة بأنه « من فضل الله » لإنقاذ المحكوم عليهم ، ولهذا اضطرت السلطات إلى إعادة نصب المشائق وتكرار عملية الشنق . وتروى أسطورة لا يؤيدها الدليل أن الجلاد البريطاني كان يحمل في جيبه قراراً بالعفو ولكنه لم يبرزه ، وظل هذا الحادث يطارده حتى دفعه إلى الانتحار . وسرعان ما أصبحت سلاخترز نك رمزاً للمظالم التي عاناها البوير على أيدي الإرساليات ، والسياسة المتبعة إزاء الوطنيين والعدالة البريطانية ، وأصبح الثوار أبطالاً تحدىوا الحكم التعسفي والليبرالية التي أسىء توجيهها . ولقد بيعت في السنوات الحديثة بعض الشظايا من الخشب قيل إنها من بقايا مشائق الشهداء . وبالرغم من أن

الأحداث الحقيقية كانت ضئيلة الشأن، إلا أن الأسطورة التي بنيت حولها كان لها تأثير كبير على تاريخ جنوب أفريقية .

وتولى حكم المستعمرة بقية العقد الثاني من القرن التاسع عشر للورد شارل سمرست، وهو موظف واثق بنفسه ويعرف كيف يفرض سلطته . كان متفروض في سياسته القائمة على « نشر المذهب الأنجليكاني » أن تحقق الاندماج في صفوف البيض ولكنها ولدت الكثير من المرارة . أصبحت الكنيسة المصلحة الهولندية السائدة هناك تخضع لسلطان الحكومة ، ولكن الأخيرة برغم أنها أنجليكانية درجت على أن تبعث إلى المستوطنين في مستعمرة الرأس برجال الدين من البريستاريين الأسكتلنديين، وكان على الهولنديين أن يقبلوا التساوية الأسكتلنديين في إجراء مراسم التعميد والزواج والقداس ، ولكن البريستاريين كانوا موضع الاحتقار لأنهم كانوا يعارضون فكرة البوير عن القضاء والقدر ، ويستخدمون اللغة الإنجليزية بدلاً من الهولندية، ويبدون العطف على رجال الإرساليات . من ناحية الشكل كان الأسكتلنديون يتحكمون في ديانة البوير ، أما من حيث الواقع فقد نشأت هوة تفصل بين أفكار البوير والكنيسة الرسمية .

وظهر عمق هذا الانقسام حينما تقرر بعد عام ١٨٢٨ استخدام اللغة الإنجليزية في الكنائس ، ولكن نادراً ما كانت تسمع في البيوت .

وثمة نوع آخر من المشكلات كان قد بدأ في الظهور وراء الحدود في المناطق الداخلية وشمالى الأوكوسا ، ففيما بين عامي ١٨٠٣ و ١٨١٣ شجع رجال الإرساليات أعداداً كبيرة من المولدين، أى الملونين، على مغادرة المستعمرة، فأقاموا

حول محطات الإرساليات على طول نهر أورنج، وأقاموا سلسلة من دول الجريكا شبه القبلية أخذت تسطو على البوشمن والحيوانات البرية والماشية الضالة ، وأعدت جمعية لندن القوانين والمحاكم والمستشارين لمساعدة « جمهوريات » الجريكا هذه ، واستطاع ووتربور — وهو من زعماء الملونين — أن يفرض حكماً مركزياً بسيطاً على عصابات الجريكا المتفرقة .

ومد سمرست حدود الإشراف البريطانى بحيث يشمل حدود الجريكا حيث قامت تجارة فى الجلود بين الوسطاء البوير ووتربور ، ووقع الجريكا بطريقة غامضة تحت تأثير المقيمين البريطانيين ، ولكن الحد الشمالى الشرقى كان بعيداً عن الاستقرار . كان فى الإمكان فى الأجل الطويل أن يصل الجريكا والبوير إلى اتفاق بشأن الحدود يحول مقدماً وبشكل فعال دون وقوع الصراع بينهم ، والواقع أن تلك المناطق كانت بعيدة عن أسواق الماشية فى مستعمرة الرأس ، وقاحلة بحيث لاتجذب أعداداً كبيرة من البوير للإقامة فيها . كان الطرفان يستفيدان من التجارة ، وكانت المنازعات على الأرض قليلة جداً . وظل رجال الإرساليات مبعث الخلاف ، ولكن المشكلات الملحة ما زالت المشكلات القائمة فى المناطق البعيدة نحو الجنوب .

كانت الأحوال على امتداد الحد الذى يشكله نهر فش قد تدهورت ، وكانت الخطة التى وضعها البريطانيون فى عام ١٨١٢ لإعادة التوطين وللتحصين خطة غير ذات أثر فعال فاستمر البوير يتمسكون بدعاويهم الأصلية وراحوا يدافعون بأسلوب الكوماندو ، ولهذا اشتبك المستوطنون والكفاز فى صراع حر خارج عن ولاية السلطات .

وزاد الضغط من جانب الأكموسا بشكل ظاهر على امتداد الحد في الربع الأول من القرن التاسع عشر، واشتد الطلب على الأرض بسبب ازدياد عدد السكان. ولكن الأسباب المباشرة وراء الصراع كانت كامنة في المجتمع البانتوى، فعلى غرار الكثير من قبائل البانتو الجنوبية مال الأكموسا إلى الانقسام إلى قبائل فرعية عند موت زعيم من زعمائهم. مثل هذا الانقسام إلى قبائل شرقية وغربية حل قبائل الأكموسا الغربية على الهجرة صوب نهر نيش في عام ١٧٧٥، وبعد ذلك لم تعد هناك أرض خالية وبذا لم تتمكن القبيلة من الانقسام، وبدلاً من ذلك نشأ التوتر في داخل مجتمع الأكموسا وأسهم في زيادة الغارات على الحدود.

ووجدت اتجاهات مماثلة في داخل القبائل الأخرى، وبخاصة الزولو. تدين احتوا الجزء الشمالي من ناتال. ففي أثناء المائتي عام منذ وصولهم في أوائل القرن السابع عشر كان النجوني الزولو قد انقسموا إلى مجموعة من الدول المستقلة، وكان يحيط بهم السوازي من الشمال والوثو من الغرب، أما من ناحية الجنوب فإحاطت بهم تلك السلسلة من التيمبو واليونديو والأكموسا، والتي كانت تمتد حتى حدود مستعمرة الرأس. وفي عام ١٨١٦ انتقلت زعامة إحدى جماعات الزولو إلى تشاكا، وهو أمير ذكي بصورة غير عادية ويمتاز بمقدرة عسكرية خاصة. وبعد أن وصل عن طريق التفاهم والقتال إلى مركز الزعيم الأكبر في عام ١٨١٨ شن سلسلة من الحروب ضد جيرانه من السوازي، وأثناء تشاكا جيشاً ميدانياً كفتاً يتكون من فرق ذات اكتفاء ذاتي، ومتماسكة تماماً ومسلحة بالرمح الخشبية assegais، وتحارب على هيئة هلال متماسك (كثيف في الوسط وله جانبان خفيفان يطبقان على الملوك).

كانت بلاد الزولو كلها تدين بالولاء « لنابليون الأسود » ، وكانت بلاد السوازي قد تعرضت للكثير من الأذى . وكانت الآثار المترتبة على ذلك والتي عمت أرجاء بلاد التيمبو واليونندو ، سبباً في دفع الأكسوسا نحو للمستعمرة البيضاء الواقعة غربي الحد الذي يتثله نهر فش .

وأبي بمصر قواد تشاكا أن يكون المجد كله من نصيب الزعيم الكبير ، فتخذى زويدى ومزيليكا زى سلطته للطلقة عند نهاية حروب السوازي ، ولكن تشاكا لم يرحمهم ، ففرت عصابات زويدى المعروفة باسم النجوى اللاجئين صوب الشمال إلى الإقليم المعروف اليوم باسم ترنسفال ، وذلك حوالى ١٨٢٠ - ١٨٢١ . هنا خلف زويدى ابنه زوانجندابا ، ولكن الحارين اللاجئين ظلوا أقوياء . وكان السوثو الشماليون الذين يقطنون الجهة مشقتين - ونظمت بقاياهم باسم قبائل باييدى ولوفدى وفندو - وسرعان ما استأنف النجوى مسيرهم نحو الشمال . وفي حوالى عام ١٨٣٤ عبروا نهر ليمبوبو ودخلوا روديسيا الجنوبية حيث قضوا على الروزوى ، آخر من كان يعرف سربناء زمبابوى وغيرها من المدن الحجرية . وحاول عدد قليل ممن بقى من الروزوى أن يتجمعوا وأن يبنوا لهم مدينة على مقربة من شلالات فكتوريا ، ولكن معظم المنطقة بما فيها زمبابوى ، ظل مهجوراً . وانتشر النجوى من أتباع زوانجندابا في اتجاه الشمال حتى كادوا يصلون إلى بحيرة فكتوريا قبل أن يعودوا للاستيطان على طول بحيرة نياسا . من المؤكد أن زوانجندابا خلف وراءه بعض الدمار ، وقبل أن يستقر قومه كانوا قد أسهموا أيضاً بقدر كبير من العوضى والاضطراب اللذين كانا يميزان شرق أفريقيا في منتصف القرن .

وبذلك كانت الأرض مهددة أمام تجار الرقيق للعرب الذين بدأوا غلباتهم في الداخل بعد ذلك بسنوات قلائل .

أما الثوار الزولو الآخرون الذين يتولى قيادتهم مزيبكازى ، فقد عبروا جبال دراكنزبرج في عام ١٨٢٣ . وإذا توغلوا كثيراً في دولة أورنج الحرة ، بعيداً عن بلاد الزولو ، فإنهم فروا من وجه دكتاتورية تشاكا ومنطقة نفوذه . وجعل مزيبكازى من نفسه زعيماً لقبيلة جديدة هي نديبيلى (والتي أطلق عليها السوثو والبور والجريكاسم « ما تايبيلى » ) . وكان تشاكا من حين لآخر ، يشن الهجمات ويجبر اللاجئين على الفرار أمامه عبر القلد ، ولكن مزيبكازى كان يستطيع دائماً إيقاع الهزيمة بالسوثو الجنوبيين الذين كانوا يشغلون المنطقة طيلة مائتى عام . وهرب بعض بقايا السوثو إلى حافة صحراء كلهارى حيث رحبوا بالحماية أو النصيحة من رجال الإرساليات التابعين للجمعية ، وكانوا سلسلة من القبائل الصغيرة ( بشوانا ، بامانجاتو ، بازولونج ، بانجواكتسى ، وغيرها ) . واحتسب غيرهم من بقايا السوثو في جبال دراكنزبرج ، ولكن نظراً لافتقارهم إلى زعيم تقليدى قبلوا بدلاً من ذلك أن يتسلط عليهم رجل عسكري من العامة يقال له موشيش . فنظم وسائل الدفاع ، وخلق دولة الباسوتو الجديدة التي كونها من ذلك الخليط الذى يفتقر إلى التنظيم ، ونجح في إعادة احتلال جزء صغير من الأرض الصالحة للزراعة الواقعة عند سفوح التلال حول حصونه الجبلية . وظل معظم القلد بين كلهارى ودراكنزبرج خالياً من السكان إذ لم يكن في وسع أحد أن ينظم مقاومة فعالة لاتباع مزيبكازى من المانايبيلى ، أولئك البدو الرحل الذين يعيشون على السلب والنهب .

وعندما انتقلت أزمة البانتو في الداخل إلى الأكوسا في عام ١٨٦٩ء . كان رد الفعل المبدئي من جانب بريطانيا بسيطاً . فمن أجل الحيولة دون وقوع الاتصال والحوادث الوخيمة العواقب بين البوير والأكوسا ، جعلت من الشاطئ الغربي لنهر فشر أرضاً محايدة . فطرد البوير ، وأنشئت منطقة حرام ، ووضعت داوريات يفترض فيها حفظ النظام في المنطقة . ولم تكن الضغوط من جانب بلاد الزولو ، مفهومة بطبيعة الحال . ومنيت السياسة بالإخفاق ، فقد استبد الغضب بالبوير ، وتدفق الأكوسا في حرية داخل الأرض الخلاء . وتصادف عند تنفيذ هذه السياسة أن كان الحاكم سمست يقضى إجازته في إنجلترا ، ولكنه قلبها رأساً على عقب أثر عودته في العام التالي ، ومنح الحد السكون من نهر فشر ، والذي أصبح الآن خالياً إلا من القوات البريطانية ، إلى مجموعة من المهاجرين الإنجليز الجدد في عام ١٨٢٠ .

كان القروض فيمن استوطنوا عند خليج ألباري « أن يعملوا على تثبيت الحد بأن يكثر فيه السكان من الزراع المخلصين » . غير أن قلة منهم هي التي سبق لها مزاوله الزراعة ، وكانت التربة فقيرة لاتصلح لتسير الرعى . وتعرضت المحصولات التي زرعت فملاً للدمار بفعل الآفات أو الفيضان أو غارات الأكوسا ، مدة سنوات ثلاث على التعاقب . وساعدت أموال الإخسان الواردة من الهند وبريطانيا على الإبقاء على حياة القوم الذين امتلأت نفوسهم بالمرارة ، غير أن معظم الممونة التي تلقوها كان مصدرها البوير الأذكياء . المقيمين على مائة بيعة في الداخل ، والذين غالباً ما جمعوا ثروات طائلة عن طريق بيع الفئاد والمؤن إلى خليج ألباري بالرغم من بعض مشاعر العطف التي



كانت تحركهم أحياناً . ومن بين الذين جنوا الأرباح الفاحشة بيت ريفين الذى أصبح فيما بعد من زعماء البوير السياسيين .

وعلى غرار ما فعل الهولنديون من قبل ، اشترك الفلاحون الإنجليز أيضاً فى القتال ضد المغيرين من الأكوستا . كانوا يشكون ، كما سبق أن شكوا البوير ، من افتقارهم إلى الحماية من جانب الحكومة . إن احتجاجات الإنجليز والالتماسات التى رفضوها فى ١٨٢١ — ٢٣ أكثر بلاغة ، ولكنها فى أساسها شبيهة بالالتماسات التى كان يتقدم بها الهولنديون فى العقود السابقة . ورد سمرست على المظالم بأن حرم الاجتماعات السياسية ، وهى حركة أغضبت أهل إقليم الحدود من كلا الشعبين . وبعد أن أخفقت محاصيل المهاجرين ثلاث مرات ، هجروا الزراعة ليشغولوا بالتجارة والتجارة . وانتقل بعض المستوطنين الإنجليز إلى مدينة الرأس . وعلى مقربة من الحد أنشئت بورت إليزابث — وإيست لندن بعد ذلك ، وحل الميناء محل مدينة الرأس بوصفها أسواقاً لمناطق الحدود والوفاى التى ترسو بها السفن . وأصبح المستوطنون فى منطقة ألبانى الوسطاء مع العالم الخارجى من جهة ، ومع اقتصاديات الماشية عند الأكوستا أو البوير من جهة أخرى .

كان للثورة التجارية تأثير عميق على اقتصاد الحدود . كان القيود الرئيسى على توسع البوير بدمهم عن أسواق مدينة الرأس ، ولم يكن من الجزى للتوسع وراء نهر فوش أو إلى الأورنج فى الداخل ، إذ لا تستطيع الماشية أن تعيش بعد أن تساق تلك المسافة الطويلة إلى مدينة الرأس . وبعد عام ١٨٢٣ ، حين ظهرت المستودعات الجديدة حول خليج ألبانى ، دخلت منطقة شاسعة جديدة فى نطاق

الأسواق المحزبة . وبدأ البوير يتوغلون في الداخل حتى بلغوا نهر أورنج . هنا كان المنظر موسمياً وشحيحاً ، وظلت المستعمرات الرئيسية قائمة جنوبي النهر ، ولكنهم كانوا يضطرون أحياناً إلى أن يسوقوا قطعانهم إلى الشاطئ الشمالي حيث تجد الكلاً اللازم لها . لم تكن المنطقة في مثل خصوبة إقليم نهر فوش ونكتها كانت واسعة الأرجاء وخالية من السكان . وظل الجريكا مقيمين في الشمال الغربي ، بينما كان الأكوسا بطبيعة الحال على مسافة بعيدة نحو الجنوب ، على مقربة من الساحل . وخلال الفلد من جميع الباتو باستثناء الماتابلي النهائيين الذين أملت عليهم الحكمة أن يرتدوا إلى القال . وبذلك لم تكن ثمة عقبة تحول دون توسع البوير وانتشارهم طالما كان في إمكانهم الوصول إلى أسواق الماشية ، ولذلك السبب توقفت محلاتهم فجأة عند نهر أورنج وحدود بلاد الجريكا الغربية .

وفيما بين عامي ١٨٢٣ ، ١٨٢٥ أمر البرلمان بإجراء تحقيق واستعراض واسع النطاق بخصوص شؤون مستعمرة الرأس . وتعرض سميرست للنقد الشديد بسبب أساليبه العنيفة ، كما كان استقرار المستعمرة المالي موضع الفحص والتمعن . وانهى الأمر بإعفاء الحاكم من منصبه ، وأقيم مجلس استشاري من موظفين معينين ليتولى معظم مهام الحاكم التنفيذية والتشريعية ، وجرى إصلاح النظام النقدي .

كانت الحكومات الهولندية قد أصدرت نقداً ورقياً لايدعمه سوى شرف السلطات ، وظل موضع التداول أثناء الاحتلال البريطاني ، وكان في استطاعة المضاربين تحقيق ربح عن طريق خصم هذا النقد ، كما كان الفلاحون

يستخدمونه في أداء الضرائب ، ولكن لم يكن في الإمكان استعماله في سد النفقات العسكرية والإدارية للمستعمرة ، ولكي يتسنى تمويل عمليات الحكومة ، كان سمرست قد عقد قروضاً باهظة تعرضت للنقد من جانب لجنة التحقيق . وكجزء من الإصلاح سحب النقد الورق الهولندي من التداول بعد تخفيض قيمته كثيراً . كان رجال الحدود في العادة يلجأون إلى المقايضة بدلاً من استخدام النقود ، ولكنهم اعتقدوا أن إلغاء النقد كان محاولة متمردة للقضاء على الرخاء الذي يعمون به ، وفضلاً عن هذا فإن أوراق النقد الهولندية كانت قد أصبحت رمزاً لتمييز البور ومشاغهم الانفصالية .

وأخطر من هذا بكثير الإصلاحات التي أدخلت على القانون . والحكم المحلي ومركز الهونتوت واللغة ، وفي معظم هذه الشئون كانت سنة ١٨٢٨ هي الحرجة بالرغم من عدم تطبيق السياسات فجأة أو بصورة منتظمة .

كان موضوع اللغة قد أثير قبل ذلك فيما يتعلق بالكنيسة المصلحة الهولندية التي سيطر عليها رجال الدين الأسكتلنديون منذ عام ١٨٠٦ . فقرضت العناصر الإنجليزية على جميع الوظائف الحكومية بالتدرج فيما بين عامي ١٨٢٣ ، ١٨٢٨ ، ولم يعد في الإمكان استعمال اللغة الهولندية في أعمال الحكومة أو المحاكم أو المدارس ، وكذلك تعين على الكنائس بوصفها أحد أجهزة الحكم أن تتخذ اللغة الإنجليزية في الصلوات والمجامع المقدسة . وكانت النتائج بالتأكيد أقسى مما كان متوقفاً ، فابتعدت الجماهير عن مؤثرات التجديد وعن لاهوت كينانها ، وسحب ثلثا الآباء أطفالهم من المدارس كي يتجنبوا التعليم باللغة الإنجليزية .

. وقرر أعضاء لجنة التحقيق أن النظام القضائي الهولندي الروماني القديم .  
كان قاسياً ومجافياً لروح العصر، وأنه يجب أن يحل محله قضاء بريطانيون.  
ونظام المحلفين والقانون الإنجليزي واللغة الإنجليزية . لكن رجال الحدود  
البور وجدوا جميع هذه المستحدثات مقيته إلى نفوسهم . وفي الأجل الضويل  
ظل القانون الهولندي الروماني متبعاً في المنازعات المدنية ، ولكن القانون  
الجنائي والتجاري أصبح إنجليزياً . ومن المشكلات المتعلقة بالقانون الهولندي  
كان اختقاره إلى التقاليد المتصلة التي يستند إليها ، وكانت هولندا نفسها قد  
أقتبست قانون نابليون في أثناء الثورة الفرنسية ، وكانت منطقة الحدود في  
مستعمرة الرأس تنقصها هيئة تشريعية متماسكة ، أو سلطة قضائية تستطيع تجديد  
القانون القديم .

والنهي الحكم المحلي إلغاءً تاماً . فجرد ضباط الغلا من سلطاتهم العسكرية  
ومن سلطاتهم المؤقتة بوصفهم من قضاة الصلح ، ونقلت جميع السلطة الفعالة  
إلى أيدي شبكة من مفوضي النواحي الذين أصبحوا مسئولين فقط أمام المجلس  
الاستشاري في مدينة الرأس .

ربما كانت الإصلاحات في اللغة والقانون والحكم المحلي ذات كفاية  
وتقدمية ، ولكنها كانت تحدياً لتقليد المسئولية المحلية والمشاركة المحلية ، الذي  
كان سائداً منذ القرن السابع عشر . وبذلك أدت التغييرات إلى تفكيك المستعمرة ،  
إلى جانب إدخال الروح الحديثة فيها . إلا أنه بالرغم مما أثلرته تلك الإصلاحات  
من الانزعاج في نفوس المستوطنين البور ، طفت عليها وحجبتها الإصلاحات  
التي أدخلت على مركز الهوتنتوت .

كانت لجنة الإرساليات في لندن قد مدت شبكتها في جميع أرجاء إقليم الحدود وما وراءها في السنوات التالية لسنة ١٧٩٩ حين أنشأ فان در كيب المحطة الأولى . وأنشئت الإرساليات بين الهوتنتوت في جراف ريفت ، وفي أماكن إقامة الملونين في بلاد الجريكا ووادي نهر أورنج ، وأخيراً بين الباتون من جماعة السوثو والذين كانوا ينتشرون صوب الشمال من بلاد الجريكا على طول حافة صحراء كلهارى . وفي عام ١٨١٨ استبدل فان در كيب بالدكتور جون فيليب الذى كان من أنصار المساواة والفصل بين الأجناس . وكان للتقارير التى بعث بها في العشرينات تأثير عظيم على تفكير اللجنة في لندن ، وعلى الرأى العام الإنجليزى ، وتأثر بها البرلمان ووزارة المستمرات . وزعم فيليب أن الهوتنتوت والجريكا يستطيعون أن يخلقوا حضارة إذا توافر لهم الإشراف من جانب الإرساليات الدينية ، ومنحوا مساحات واسعة من الأراضى ، وحرم الأتجار فى المشروبات الروحية .

لم يكن فيليب يدعو إلى قلب المستوطنين البيض أو طردهم ، ولكنه أراد منعهم من استغلال العمال غير البيض . ومن أجل تحقيق هذا الغرض اقترح فصل الجنسين كلية . لكل من المجتمعين المتباينين أن يتجرع مع الآخر ، ولكن لكل جماعة أن تملك وتستغل الأرض الخاصة بها . كان قدر كبير من نواياه الأصلية معقولا وتقدمياً بالنسبة إلى ذلك العصر ، ولكن يبدو أن موقف المستوطنين البيض — من الإنجليز والبوير — وسلوكهم ، قد أرهاق حكمه على الأمور . وكان يقول إن القوانين التى تجارب السرقة والتشرد هى قوانين تتعارض مع حرية العقيدة وحقوق الإنسان . وهاجم بقوة القوانين التى تقضى بحمل جوازات المرور لأنها تمنع الهوتنتوت الذين لا يملكون أرضاً من الفرار

من مظلوميهم . وأحس الكثيرون من أهل جنوب أفريقية أن فيليب تجاوز حدود النزعة الإنسانية والاهتمامات الدينية ، وبدأ لهم التأكيد الذي كان يضعه على هذه الأمور وسيلة يريد أن يستفيد منها في تحقيق أغراض سياسية في إنجلترا . وأخيراً ، انتصرت وجهة نظره حين أصدرت لندن في عام ١٨٢٨ أوامرها إلى حاكم الكاب بإصدار الرسوم رقم ٥٠ الذي أثار الجدل .

كان في إمكان الهونتوت والبوشمن والجريكا ، لأول مرة ، أن يملكوا الأرض . وألغيت قوانين حمل جوازات المرور ، ولم يعد في الإمكان بعد ذلك القبض بتهمة القشر على العاطلين من غير البيض . وضمنت حقوق مدنية مساوية التي يتمتع بها المواطنون البيض ، وبخاصة الملونين في بلاد الجريكا ، وبدأ المستوطنون البيض يحتجون في مرارة على الخطر الذي يتعرضون له من قبل قطاع الطرق الذين لم يكن في الإمكان التحكم فيهم ، وراحوا يشكون من أن الهونتوت أو الملونين لا يريدون العمل عندهم ، ومن أن الدمار أحاق بنظام العمل عندهم وبمعاشرهم ، ولم يدع لهم إلا عدداً صغيراً نسبياً من العبيد لزراعة الأرض أو رعى الماشية . ظل الرسوم رقم ٥٠ نافذ المفعول في مستعمرة الرأس حتى سنة ١٩١٠ ، وكانت الضمانات التي نص عليها بالنسبة إلى الملونين مدرجة في دستور جنوب أفريقية طوال جيلين .

ووزع الدكتور فيليب قطعاً من الأرض ، وخطط القرى لحسالى ريع الهونتوت الذين جرى تحريرهم ، ولكن معظمهم هجرها بعد شهور قليلة . ولقد اتهم بأنه زور عقود ملكية الأرض ، وهي مهمة أيدتها لجنة تحقيق فيما بعد ، ولكن القضية لم يفصل فيها أبداً . وعلا معظم الهونتوت إلى مظلوميهم ،

ولكن حوالي ٢٥ في المائة منهم تحولوا إلى قطاع طرق بسرقة المحاصيل ، أو أصبحوا يملكون بغير دعوة على أقرانهم الذين يشتغلون بصورة منتظمة . وشك الكثيرون من رجال منطقة الخلود في أن فيليب والهونتوت والكفار تواطأوا على رفع الأجور ومضايقتهم ، ولكن الجمعية التبشيرية بلندن أقنعت وزارة المستعمرات بأن هذه الشائعات ليس لها أساس من الصحة .

وألقى الرق بقتضى القانون الذى أصدره البرلمان فى عام ١٨٣٤ ، وكانت جزر الهند الغربية تضم معظم العبيد فى الإمبراطورية البريطانية . وكان أصحاب المزارع الكبيرة فى العادة يعيشون فى لندن حيث يدفع التعويض الذى قرره البرلمان . وكان عدد كبير من البوير يملك عبيداً ، ولكنه كان صاحب ثراء ونفوذ . وبعد تحرير الهونتوت كان عبيدهم هم مصدر العمل الوحيد الذى يمكن الاعتماد عليه . وحتى ينسى للبوير الحصول على التعويض المقرر لهم اضطروا إلى الاعتماد على وكلاء فى لندن كانوا يتقاضون عمولة تعادل ثلثى مدفوعات العتق . إن فقدان الأيدي العاملة ، والعمولات الزائدة عن الحد ، والاضطراب النقدى الذى ساد مستعمرة الرأس — كل ذلك زاد من الضيق الذى استشعره البوير .

كان جزء من المشكلة المترتبة على التحرير هو بطبيعة الحال طريقة التصرف فى العبيد . وكان الترتيب الموضوع أن يشتغل ٣٩,٠٠٠ من العبيد السابقين لمدة أربع سنوات تحت التمرين ، ولكن لم يمض شهر حتى شن الأكواسا حرباً على منطقة الحد حطمت كلاً من نظام التمرين وجباية مدفوعات العتق . وفى هذه المرة أعدت الحكومة قدراً من الدفاع القدير . كذلك نظم بيت :

ريثيف فرقة من الفدائيين تتكون من المستوطنين البور والإنجليز . وأسهم الكثيرون من الفلاحين في فترات الحرب الدفاعية التي دامت سنتين ، كما قتلوا أيضاً محاصيل سنتين ومواردهم من الأيدي العاملة ، ومعظم المال الذي حصلوا عليه ثمناً لتحرير عبيدهم ، وهوت أعداد كبيرة منهم إلى الإفلاس ، ووقع الحجز على مقتنياتهم المرهونة . ولم يتمكن الذين قتلوا ممتلكاتهم من التوجه إلى أى مكان آخر بالمستعمرة ، وكانت الحكومة تعرض كل الأراضى غير الملوكة لأحد في الزاد لمن يدفع فيها أعلى ثمن ، وذلك بدلاً من توفيرها للإقامة الساكن الرخيصة .

وحاول الحاكم دربان D'urban الذى وصل حديثاً من إنجلترا ، أن يضع حداً لمنازعات الكفار بضم أجزاء من بلاد الأكوسا . وكان يأمل أن يجعل زعماء الأكوسا مسئولين أمامه عن الأعمال التخريبية التي ترتكبها القبيلة . غير أن البور فسروا مشروعه على أنه تحالف بين الإنجليز والباتو ، يهدد أمنهم . واحتج قوو الفرزة الإنسانية ومعظم رجال الإرساليات على مشروع دربان بشأن الاستيلاء على بلاد الأكوسا وسط سيطرته عليهم . ولم يمض عام حتى اضطر دربان إلى الانسحاب نحو الحد الذى كان قائماً من قبل على امتداد نهر فش . ومرة أخرى ترك الأكوسا لوسائلهم الخاصة ، وعاد جميع المستوطنين عند الحد فأصبحوا بغير دفاع . وثار غضب رجال منطقة الحد من الإنجليز والبور على حد سواء ، واستأنف الكفار هجماتهم التي لا تلتين .

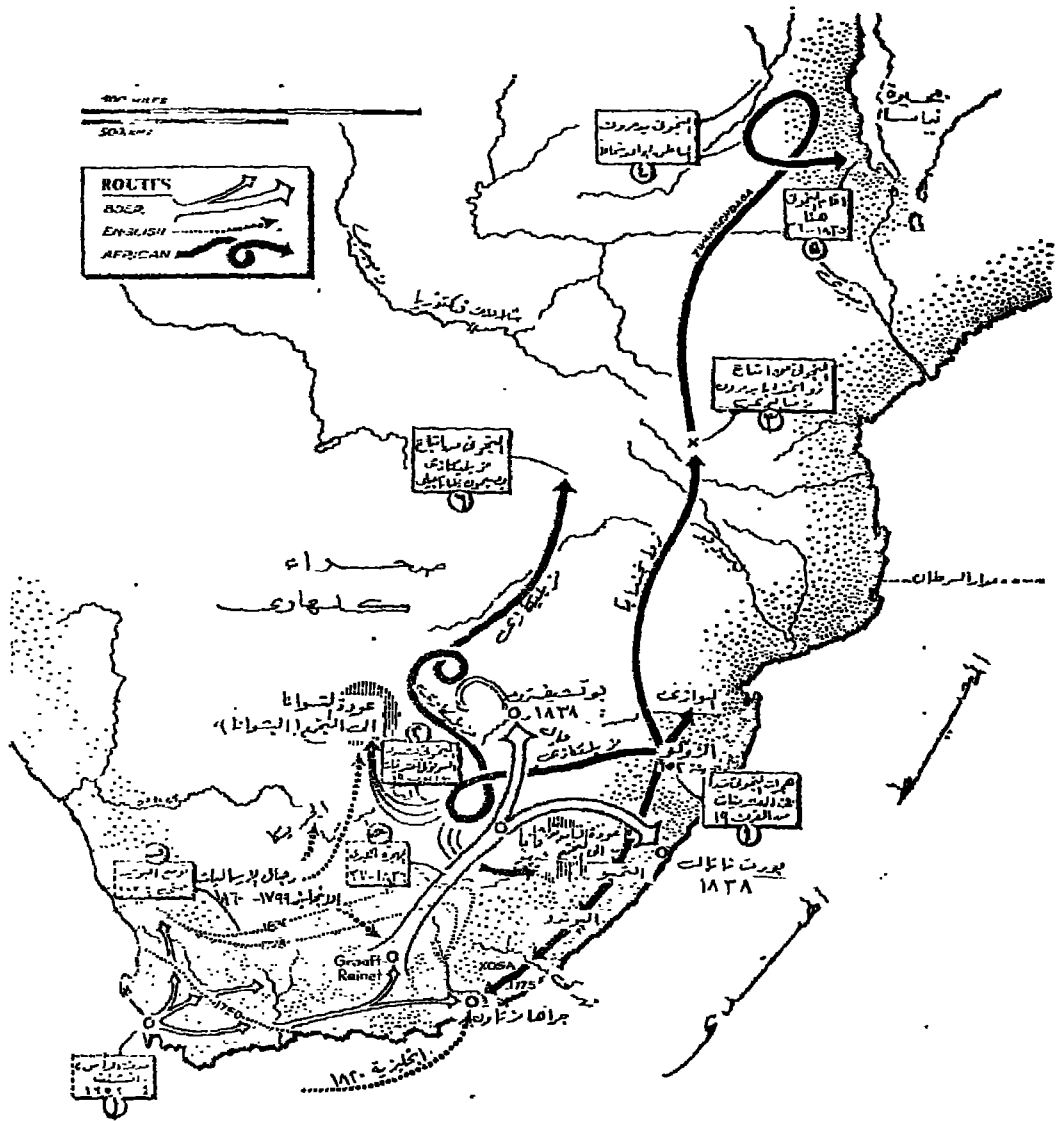
وفى عام ١٨٣٤ أرسل بيت ريثيف ثلاثة من رجال منطقة الحد للبحث عن أرض جديدة ، فذكروا أن السهل المتدوراء نهر أورنج يبدو خصيباً ،



خالياً من السكان وجذاباً . وفي خريف عام ١٨٣٥ فرت حوالي ١٥٠ من أسرات البوير مغادرة المنطقة الخاضعة لسيطرة بريطانيا . وأصدر البرلمان قانون العقوبات لمستعمرة رأس الرجاء الصالح ، وينص على خضوع جميع الرعايا البريطانيين للقانون الإنجليزي حتى ولو غادروا المستعمرة . كان الغرض في القانون أنه تحذير لكل من تحمله السذاجة على الظن بأن في وسعه نبذ الجنسية البريطانية بمجرد الانتقال إلى مناطق غير منظمة . وطالب بيت ريتيف في جفاء بأن توفر لهم الحكومة الأمن أو تمنحهم الاستقلال ، ولكن أهدافه كانت موضع الشك التزايد . وفي عام ١٨٣٧ راح مع ٢٠٠٠ غيره يعبون نهر أورنج .

لقد بدأت الهجرة الكبرى . كان لويس تريجاردت في عام ١٨٣٥ أول من خرج ، وأعقبه آخرون في عام ١٨٣٦ وهم يتعثرون في سيرهم ، ولكن المجموعة الرئيسية هاجرت فيما بين فبراير وسبتمبر من عام ١٨٣٧ . وعاد معظمهم إلى التجمع خارج المستعمرة في أعماق الفلد الخالي وراء نهر أورنج عند موقع المعسكر الذي أقيم عند تابانيهو . وهناك أمضوا شتاء عام ١٨٣٧ ( الذي يمتد من أبريل إلى أكتوبر في نصف الكرة الجنوبي ) .

كان الحد الذي خلفوه وراءهم إما مضطرباً أو مهجوراً . وانقذ لسان حربان ووزارة المستعمرات وأصابهما العجز . لقد نقلت الهجرة الكبرى الحد وراء منطقة النفوذ البريطاني ، ولكنها في النهاية لم تحمل المشكلات الملحة في مستعمرة الرأس : أرض الأكوسا ، حقوق الهوتنتوت ، إرساليات الجريك ، تنفيذ القانون ، أو محاولة تحقيق الموازنة بين المصروفات والإيرادات المتحصلة من الضرائب .



جنوب أفريقيا  
هجرات النجوى وبدء الهجرة الكبرى

## الهجرة الكسبية والجمهورية

بقي معظم البوير في مستعمرة الرأس ، ولكن الذين هاجروا في عام ١٨٣٥ - ٣٧ حملوا معهم روح الاعتماد على النفس التي يتميز بها أهل الحد ، وشعروا بأنهم جنس له ذاتية مستقلة عن بريطانيا أو العالم ، حملوا أقوى طائفة من المظالم ضد الكنائس التي يسيطر عليها الأسكتلنديون وضد الباتو ورجال الإرساليات الدينية . كان البوير يعتقدون أن الغلد خال من السكان ولم يدركوا أن هجرتهم سوف تحطم الحدود الواضحة التي تفصل بين مناطق البيض وغير البيض .

ليس من السهل التفرقة بين الأسباب الحقيقية التي تعزى إليها الهجرة وبين الأعدار التي اكتشفها المؤرخون ورواة الأساطير في السنوات المتأخرة . يقول الوطنيون المحدثون إن بريطانيا كانت تعتزم محاولة فرض نظام الزواج المختلط بين السود والبيض ، وأن الأرض كلها ستمنح للهنوت ، وأن الجمعية التبشيرية بلندن أعدت مشروعاً للقضاء على لغة البوير وديانتهم ، أو أن الحكومة كانت قد بدأت في تأييد الكفار . وفي التقرير الذي رفعه سير جورج نايبير إلى وزارة المستعمرات في عام ١٨٣٨<sup>(١)</sup> نراه يقدم الكثير من التفسيرات ومنها :

---

(١) اقتبس جون بيرد في كتابه « حوليات ناتال » ، جزءان ( Pietermaritzburg 1888 )

البحث عن قرية أفضل وضرائب أقل وطأة وأرض لشعب آخذ في التزايد ، الجفاف الذي لم يسبق له مثيل ودام عامين عند الحد القديم ، اعتماد سكان منطقة الحد بعضهم على بعض بحيث إذا بدأت قلة منهم في الهجرة فلا بد أن يترسم الباقون خطاها ، المرارة التي ملأت النفوس بسبب المدفوعات عن تحرير الرقيق ، وعدم اطمئنان الهولنديين إلى حقوق ملكيتهم للأرض في ظل القانون الإنجليزي ، السخط بسبب الغارات التي يشنها الكفار ، والقلق من ناحية السياسة البريطانية إزاء الاكسوسا والاعتقاد بأن المعاهدات المعقودة مع الوطنيين ليس لها تأثير فعال . وتضع اليوميات التي خلفها المهاجرون<sup>(١)</sup> التأكيد على الرغبة في حماية ديانة القوم من تأثير اللاهوت الحديث ، والخوف من أن الحكومة قد تفرض عليهم الكاثوليكية ، والاستياء من تدخل البريطانيين في « العلاقات الصحيحة بين السيد والخادم » . هذا البغض « للسواة الدنسة » ربما كان دافعاً على حركة الهجرة ، أقوى من أى عامل آخر .

وواضح أيضاً أن مزارع تربية الماشية عند الحد وراء نهر أورنج سوف تكون أبعد مما يجب عن أسواق اللوانى البحرية . فإذا أريد احتلال أرض جديدة أو تجنب سيطرة البريطانيين على الأسواق ، فإن الحل الوحيد يتمثل في الهجرة الجماعية إلى أرض قريبة من تلك الأجزاء الواقعة على ساحل إفريقية الشرقية والتي لا يدعيها أحد . وما من شك<sup>(٢)</sup> أن المهاجرين كانوا يهدفون

(١) انظر القائمة المدعمة بالأسانيد عن روايات البوير في :

Eric A. Walker : A History of Southern Africa ( 3 rded . ) London, 1957, P. 197, n. 3, part ( a ).

S. Daniel Neumark : The South African Frontier, 1652—1856: ( ٢ )  
Economic Influences, Stanford, 1956, pp. 168—170

إلى تخطى الاكسوسا حتى يقسنى لهم إنشاء الموانى الخاصة بهم فى ناتال وخليج  
ديلاجوا، وحيث يمكن إنشاء مزارع تربية الماشية على حد يتفرع صوب  
الخارج من المنافذ الجديدة .

ولازم سوء الحظ الجماعتين الصغيرتين اللتين هاجرتا فى عام ١٨٣٥ قبل  
سحرة الهجرة الرئيسية . فاختار مراقبو تريمجارت الترنسفال الشمالية، ولكنهم  
اضطروا إلى هجرها سعيًا وراء الإحسان من جانب البرتغاليين فى لورنزو مركززو،  
فأرسلهم الأخيرون إلى ناتال فى عام ١٨٣٩ . واخترق جان فان رتبرج تمامًا  
فى عام ١٨٣٦ ، وبعد ذلك باثنى عشر عامًا عشر على عظام وعربات جماعته فى  
موزمبيق حيث قتل أفرادها، وواصلت المجموعة الرئيسية بعد ذلك بقليل السير  
إلى مستعمرة الرأس بقدر أوفر من الحذر والتنظيم .

وخلال عام ١٨٣٦ تجول أندريز هندريك بوتجيتير فى أنحاء القلاد حيث  
اصطدم مع الماتابيلى وهزمهم ثم عاد إلى ثابانيهو لمقابلة المهاجرين الذين وفدوا  
فيما بعد . وكان الماتابيلى النهابون بقيادة الزعيم مزيليكاى الوحيدين الذين  
شغلوا حوض القال بصورة فعالة ، ثم فروا صوب الشمال إلى المنطقة التى خلت  
حديثًا من أهلها فى روديسيا الجنوبية ، والمروفة منذ ذلك الحين باسم بلاد  
الماتابيلى ( ماتابيلاند ) .

لقد انتصر بوتجيتير ولكن قوته ضعفت بشكل خطير ، فانضم إلى جماعة  
جيريت مارتيز عند ثابانيهو . وانتخب مارتيز ومجلس من ستة أعضاء لتشكيل  
هيئة تنفيذية لمجموع المهاجرين . ووصل بيت ريتيف فى أوائل عام ١٨٣٧  
ونجح فى أن ينتخب حاكمًا عن طريق استغلال التنافس بين بوتجيتير ومارتيز .

وخلال يونيه وصل جا كوبس وبيت يوز وها آخر الشخصيات الرئيسية .  
وبينا أقامت الجماعات معسكراتها سوياً لقضاء فصل الشتاء ، زادت المنافسة بين  
الزعماء . كان كل منهم ينفرد بصفة لاغنى عنها للآخرين ، ولكن أحداً منهم  
لم يكن على اعتماد للخضوع لغيره . كان بوتجيتز نهماً بشكل خاص للحصول  
على الأرض ، وهذا كنه من السيطرة على المراعى التى كان الآخرون  
يريدون الحصول عليها . وكان ماريتز أوفرهم خبرة فى النواحى القانونية  
والإدارية ، فيما كان ريتيف أقدرهم على التنظيم السياسى العملى والانتخابى .  
وكان ظاهراً أن الأخوين يوز أشده غيرة على استقلالهما الذاتى وإن احتفظت  
كل الجماعات باستقلالها فى المسائل العسكرية .

ولم يحل اكتوبر حتى طغت عناصر الحزبية والضجر على السطح فى ثابانيهو  
فاقترح إخوان يوز الانتقال إلى ناتال ولكنهم أبطأوا فى التحرك . وادعى  
بوتجيتز الحق فى جميع الأراضى الواقعة وراء نهر فال ، ولم يأت شهر اكتوبر  
حتى أقام لأتباعه جمهورية مركزها بوتشيفستروم Potchefstroom . أما جماعة  
بيت المقدس Jersalemgangers التى تيزت بالعناد والإصرار فتحررت صوب  
أرض الميعاد ، وكافعل موسى فى عهد الخروج عبرت النيل Nyl ( وهو جدول  
فى ترنسفال ) ولكنها هلكت فى مكان بعيد ناحية الشمال . وفى هذه الأثناء  
سبق ريتيف المجموعة الرئيسية كى يدبر لها الأرض فى ناتال .

وبينا كان المهاجرون يجاهدون فى نقل عرباتهم وماشيتهم عبر جبال  
درا كنزبرج دخل بيت ريتيف فى مفاوضات مع دنجان Dingaan زعيم الزولو  
الذى خلف تشاكا وأصبح القوة التى تتحكم فى ساحل ناتال . ساوم دنجان ولكنه

قبل في النهاية عقد معاهدة غير أنه في الواقع كان لا يهدف إلا إلى تعطيل ريتيف إلى أن يتم إعداد محاربيه . وقبض على الرسل غدراً وذبحهم في ديسمبر عام ١٨٣٨ ( وهو حادث يعرف باسم « يوم دنجان » وهو إجازة في جميع أنحاء جنوب إفريقية تخليداً للذكرى ) . وحل أندريز بريتوريوس مكان ريتيف قائداً عسكرياً ، ولكن محاربي الزولو نجحوا في توجيه ضربة شديدة إلى جمهرة المهاجرين الرئيسية وهي تهبط من جبال درا كنزبرج على مقربة من وينين Weneea وأعاد بريتوريوس تنظيم قواته واندفع نحو الساحل وأنزل بالزولو هزيمة حاسمة حيث قتل ثلاثة آلاف محارب ومعهم الزعيم دنجان عند نهر الم قبل عيد الميلاد بتسعة أيام . كان للجمهورية التي أنشئت في تابانيبو وطن دائم سيطر فيه السادة البوير لأول مرة على قبائل الباتو .

وعندما أعلن قيام جمهورية ناتال رسمياً في عام ١٨٣٩ وضعت « سياسة » حديدية « لمعاملة الوطنيين » أخضعت جميع الزولو لسلطان سيتيوايو وهو زعيم كان ألوية في أيدي البوير ، وخلف دنجان في منصبه . كانت هذه السياسة بطبيعة الحال ترحص على معالجة أشد المشكلات إلحاحاً في البلاد ، ولكن ظهر أيضاً شكل بدائي من التنظيم البرلماني . كان كل زعيم عسكري في الفلد يطلب إلى قومه انتخاب من يمثلهم في الجمعية الوطنية Volksraad ، وأصبح الأربعة والعشرون رجلاً الذين غالباً ما تضمنت القوائم أسماءهم ، هم الممثلون لأهل الجمهورية ، كانت الجمعية التمثيلية تملك من الوجهة النظرية جميع السلطات ، ولكنها نادراً ما اجتمعت إذ كانت القرارات التي يتخذها بريتوريوس بموضع رضاه الشعب كما كانت الحكومة المركزية المنظمة بموضع الشك .

وبالرغم من وجود الأراضي الزراعية الجيدة وميناء دربان القريب منها مما جعل من ناتال وحدة اقتصادية قادرة على البقاء ، فإن المستوطنين كانوا يتوقنون إلى إيجاد أسواق خلاف أسواق الإمبراطورية ، وحلفاء قد يعارضون في احتلال بريطانيا لهذا البلد الجديد . وادعى رحالة هولندي يقال له سميلسكا مب أنه مندوب عن حكومة الأراضي الواطئة وأعلن أن الملك يشهد باستخدام « قوته العظيمة » لتأييد ناتال . كان الرجل مجرد مغامر انتهazy ، ولكن يبدو أن البوير لم يدركوا هذه الحقيقة ، كما لم يفهموا أيضاً أن الأراضي الواطئة لم تعد دولة عالمية كبرى .

لكن من المؤكد أنه كان لدى البوير سبب طيب يجعلهم يخشون وقوع عدوان بريطاني . كانت قوات جلالة الملكة تبدي الاهتمام بساحل ناتال الذي لم يطالب به أحد ، بالرغم من أن بريطانيا لم تتقدم بأية دعاوى رسمية بهذا الصدد . والواقع أنه كانت هناك كتيبة بريطانية صغيرة في نغر دربان عندما وصل المهاجرون ؛ وعندما أعلنت الجمهورية انسحبت الكتيبة ، ولكن بريطانيا لم تنازل تنازلاً تاماً أبداً عما لها من « مصلحة » هناك . ولكن كانت هناك مشكلة أكثر أهمية . آثارها الهجرة وأثارها احتلال ناتال ، وهي : هل يفقد الذين ينتقلون من بلد منظم إلى إقليم لا يدعى أحد الحق فيه ، مواطنهم في البلد الذي غادروه ؟ وهل يستطيع البوير الذين يغادرون الأقاليم البريطانية أن يقيموا دولة مستقلة ، أم هل يظلون رعايا بريطانيين إلى أن يضبطوا مواطنين في بلد منظم آخر ؟ هذه المشكلة التي لم تفص تماماً ، تكمن وراء الكثير من المنازعات التي يشهدها جنوب إفريقية فيما بعد . يمكن القول في القرن العشرين أنه لا يمكن تغيير الجنسية بغير إذن خاص أو نتيجة ثورة ناجحة أو بطريق الهجرة إلى أرض



أجنبية منظمة . وكان هناك حقاً قانون بهذا الصدد في أثناء فترة الهجرة كلها ( وهو قانون العقوبات في رأس الرجاء الصالح لعام ١٨٣٦ ، وكان ينص على خضوع الرعايا البريطانيين للقانون البريطاني حتى في خارج الأراضي البريطانية ) ، ولكن هذا لم يكن قد أصبح بعد من مبادئ القانون الدولي المعترف بها . غير أنه كان قانوناً قائماً في الإمبراطورية ومن هنا استطاع وزير الخارجية أن يعلن في عام ١٨٤١ أن « ... الملكة لا تستطيع الاعتراف بجزء من رعاياها على أنهم جمهورية مستقلة » .

بعد ذلك بعام بدأ الاحتلال البريطاني بشكل جدى . تمكن البوير في أول الأمر من محاصرة الغزاة ولكن الميزان انقلب لصالح بريطانيا بسبب ثورة قام بها الزولو ، وضمت ناتال رسمياً في عام ١٨٤٣ وعرض التاج ٦٠٠٠ فدان على كل أسرة تريد البقاء ، ولكن معظم البوير أبوا أن يتقبلوا الهزيمة . ومرة أخرى نظمت الهجرة . ومرة أخرى عبرت العربات التي تجرها الثيران بمرات جبال أورا كنزبرج . توجه البعض شمالاً نهر فال على مقربة من جمهورية بوتشيفستروم التي سبق إنشاؤها قبل ذلك بخمس سنوات ، وأقاموا دولاً ثلاثاً أخرى وهي ليدنبرج وزاوتبانسبرج واوترخت . وأقام الباقون جنوبي نهر فال لينشوا جمهورية وينبرج Winburg برئاسة أندريز ويسل بريتوريوس الذي سبق له تنظيم ناتال البويرية .

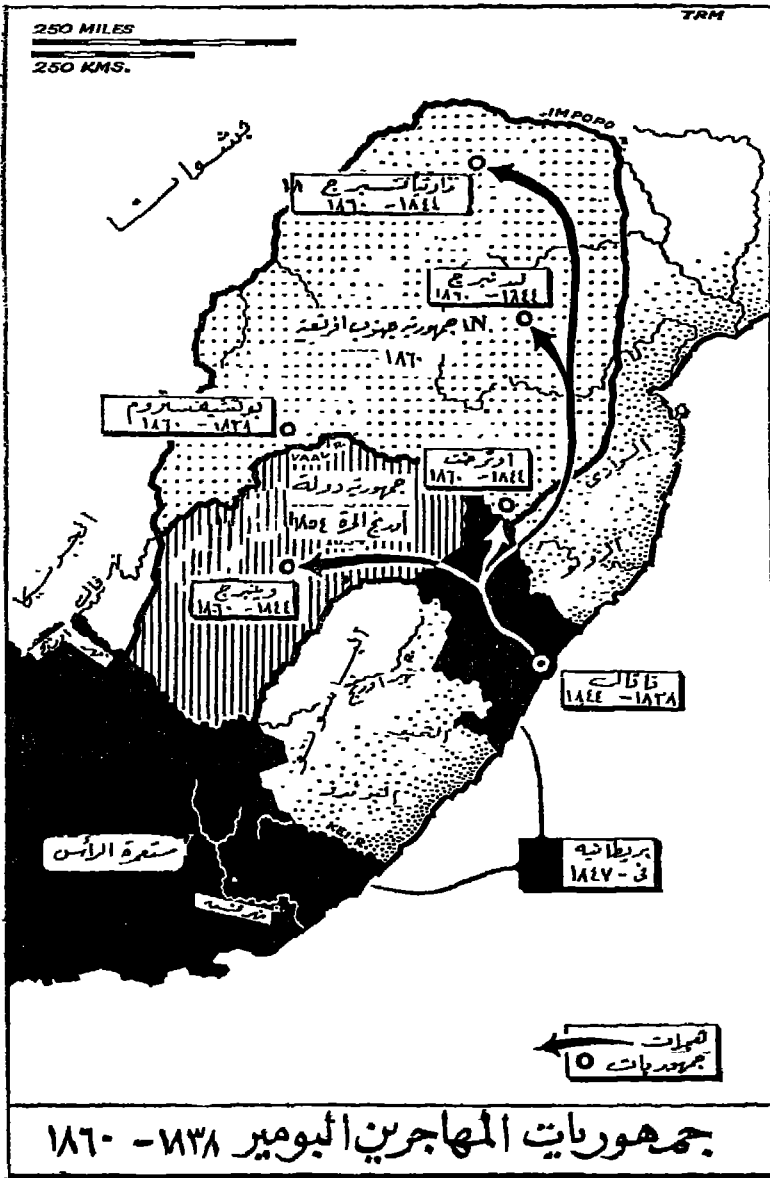
كأن معنى ضم ناتال أن بريطانيا تحكمت في الساحل بأسره والذي كان يعتمد عليه جميع البوير المقيمون في الداخل . ولم يتخذ أى قرار بشأن مركز الجمهوريات الداخلية الخمس . كانت تدعى أنها مستقلة ولكن بريطانيا لم تعترف بها ولم تعمل على القضاء عليها .

وفي ظرف ثلاث سنوات بعثت بريطانيا بقواتها بسبب الاضطراب الذي ساد في صفوف الباتو ونتيجة الخلاف بينهم وبين البوير حول ملكية الأرض . أصبحت وينبرج وأراضي الباتو بين نهري فال وأورنج « دولة نهر أورنج ذات السيادة » ولكن الجمهوريات المتعثرة في ترنسفال ظلت معزولة . وفي وينبرج ثار ١٠ و١١ . بريتوريوس ضد بريطانيا ولكنه هزم عند بومبلانس وفر إلى ترنسفال ، فحيتته بوتشيفستروم كبطل ونصبته على الفور رئيساً للجمهورية .

إن السيطرة البريطانية لم تهمل جمهورية أورنج إلا فترة وجيزة ، فلم يأت عام ١٨٥٠ حتى حدث الانفجار في صفوف الباتو المقيمين في درا كنفريج - بين نهر أورنج ومستعمرة الرأس الشرقية كانت مجموعات صغيرة من قبائل السوثو التي أخرجها الزولو من الفلد في أوائل القرن ، قد التمسيت الحماية في الجبال . وانضم إليها بعض الزولو المارقين على شعبيهم ، ولكنهم جميعاً قتلوا في وسط هذا الاختلاط للضطرب الخواص القبلية التي يتميزون بها وزعامتهم التقليدية . في مبدأ الأمر كانت هذه البقايا التي يعوزها التنظيم تعيش عيشة بدائية يسودها الخوف في مكانها الجرداء ، دون أن تثير أية متاعب لجيرانها . إلا أنه في حوالى الوقت الذي استولت فيه بريطانيا على جمهورية أورنج ، بدأ منظم ما كرم من الباتو يقال له موشيش ، يعيد توحيد الجماعات الصغيرة المقيمة في الجبال . وكون قبيلة جديدة باسم « باسوتو » ظلت متمسكة بفضل خطبه ووعوده وبدأت تهدد كلاً من الجمهورية التي ضمت حديثاً وكل المنطقة الشرقية من مستعمرة الرأس .

وفي لندن كان القادة البرلمانيون شديدي الرغبة في التقليل من البيروقراطية والإفناق والتورط فيما وراء البحار ، فأخذوا يطالبون بالجلء عن المنطقتين كلياته ، هذا الاتجاه حال إلى حد كبير دون انتهاج سياسة ديناميكية ، ولكن لم يكن من السهل العدول عما تم الآن من عمليات الضم والارتباطات . وظلت بريطانيا طيلة عامين تشبك في حرب غير منتظمة مع الباسوتو من القاعدة التي لم تكن تريدها في دولة نهر أورنج ، وتمكن موشيش بالتدريج من أن تصبح له اليد العليا فزعزع سمعة قوة بريطانيا تماماً في المنطقة . فلما حل عام ١٨٥٢ كانت وزارة المستعمرات قد قررت أن التدخل الإنساني النزعة والاحتلال الفعلي أمران غير عمليين وينطويان على تكاليف كبيرة وليسوا موضع رضاء الشعب بوجه عام . كان أفضل رد على التقدم الذي يحرزه موشيش هو التعاون مع البوير ، فإذا تم جلاء بريطانيا فإن العداء بين لندن والبوير قد يزول لتحل محله سياسة مشتركة إزاء البانتو .

وتمشيا مع هذا تقابلت بريطانيا مع ممثلي جمهوريات ترنسفال الأربع - بما فيها عدوتها بوتشيفستروم - لوضع اتفاق نهر ساند في عام ١٨٥٢ ، فاعترف باستقلال الجمهوريات الأربع رسمياً ، وبعد ذلك بعامين وفي مدينة بلوم فويتاين تحولت جمهورية نهر أورنج ذات السيادة إلى دولة أورنج الحرة ، ووافقت الملكة على عدم اعتبار البوير رعايا بريطانيا بعد ذلك . غير أن الحدود لم تحفظ إلا بصورة ضعيفة ، ومرت سنوات كثيرة لم يكن من غير المعتاد فيها أن يخدم بعض البوير كلاً من الجمهورية والتاج - أي يغيروا المواطنة بطريقة غير رسمية ، بعبارة أخرى .



وفي الوقت نفسه منحت بريطانيا مستعمرة الرأس الموالية قدراً من الحكم الذاتي الجزئي . كان رجال السلطة التنفيذية ما تزال تعيينهم لندن ، ولكن منذ ذلك الوقت ندر أن تحطت لندن قرارات برلمان الرأس أو ناقضتها . لكن حدث بطرق كثيرة أن منح الحكم الذاتي حطم النية الطيبة التي كانت بريطانيا تأمل نشوءها عندما اعترفت بالجمهوريات . كان في إمكان مستعمرة الرأس أن تضع التعريفات الجركية الخاصة بها ، ولهذا بادرت إلى فرض رسوم عالية على البضائع الواردة إلى البوير أو الصادرة من عندهم خلال مرورها بالمستعمرة . وكذلك مما أثار القدر الكثير من سخط الجمهوريات توسيع نطاق حق الانتخاب في عام ١٨٥٣ بحيث يشمل الملونين ( المولدين ) من أهل مستعمرة الرأس . لذلك كان من المستحيل عملياً نشوء الثقة المتبادلة بين البريطانيين والبوير في معالجة موضوع السكان الوطنيين ، ذلك الموضوع الذي زاد حدة وأصبح مختلطاً بصورة متزايدة مع السياسة البيضاء .

وخلال عام من توقيع اتفاق نهر ساند ، مات أ . و . بريتوريوس وخلفه في رئاسة بوتشيفستروم ابنه الطموح مارتينوس ويسيل بريتوريوس . حاول الرئيس الجديد توحيد الترنسفال كلها ، فرفضت الجمهوريات الثلاث الأخرى مقترحاته . ثم حاول في عام ١٨٥٧ أن يضم دولة أورنج الحرة ولكنه اضطر إلى التراجع إزاء التحالف المؤقت الذي أقامته هذه الدولة مع زاوتبا نسبرج ، وليندنبرج وأوترخت وأصدقاء لها في مستعمرة الرأس . وبعد ذلك طلبت الدولة الحرة أن تضمها بريطانيا وتوفر لها الحماية ، فأبى التاج احتمال المسؤولية .

على ضوء هذه الخلفية أصبح الضغط عنيفاً من جانب شعب من البانتون

آخذ في الازدياد عدداً . كانت القبائل من أمثال الإكسوسا قادرة في الماضي على حل هذه المشكلة عن طريق التوسع ، أو « السرقة » أو الحرب ، ولكن استيطان البيض وقوة بريطانيا العسكرية والزيادات التي حدثت في عدد كل من السكان البيض والبانو — هذه كلها وضعت حداً لهذه الحلول التقليدية . وفي عام ١٨٥٧ اجتاحت الإكسوسا المقيمين شرقي مستعمرة الرأس ثورة دينية . يأسه ، فنادى أنبياؤه بنبذ الديانة التقليدية ، وتدمير جميع المحصولات والممتلكات ، وذبح جميع الماشية ( حتى ما كان منها أساسياً للبناء الاقتصادي والاجتماعي القبلي ) ، ثم وعدوا القوم بأن معجزة سوف تحدث حيث تهب « دوامة » تكتسح البريطانيين والبوير وتلقى بهم إلى البحر ، ويبعث أبطال الإكسوسا السابقين أحياء من جديد ، ويتحول جنوب إفريقيا كله إلى أرض خصبة مليئة بالحلب النضير والماشية .

واجتاح الجنون العازل المزدهمة ، فدمرت الممتلكات والمحاصيل والحيوانات . وراح الإكسوسا ينفثون وقوع المعجزة :

و« عندما حل « اليوم » الموعود لم يحدث شيء .

كان الجيش البريطاني قد تلقى تحذيراً من قبل فيادر إلى إرسال المؤن عبر الحد . لم يكن هناك وقت لاستشارة لندن ذات التفكير الاقتصادي ، وقدمت مواد الإغاثة على نفقة سير جورج جراي الشخصية ، حاكم الرأس ، وأمكن إنقاذ ثلاثين في المائة من السكان ، ولكن الخسارة التي نجمت عن « المجاعة التي أصابت الإكسوسا » كانت رهيبية بشكل مذهل .

لم يعد الإكسوسا بعد ذلك قبيلة موحدة ، ولم يسترد اقتصادها أهميته-  
السابقة أبداً . أصبحت منطقة البانتو الممتدة بين مستعمرة الرأس وناثال معزلاً  
شاسعاً يعتمد في معاشه على الاقتصاد الأوروبي . وكانت السلعة الوحيدة القابلة  
 للبيع هي العمل . وسعى الإكسوسا - فضلاعن جيرانهم الخاضعين لهم -  
 إلى التماس العمل عند فلاحي مستعمرة الرأس وتجارها ورجال الصناعة فيها ،  
 وبذلك بدأ امتصاص البانتو في اقتصاد البلاد وبدأت المعالم الأولية للترابط  
 المنصرى الحديث .

وفي الحال أمر سير جورج جراى بإجراء تحقيق أظهر أسباب ثورة  
 الإكسوسا . كان الملك موشيش يعد الخطة لشن حرب يقضى فيها على البوير .  
 ولكي يصرف أنظار البريطانيين عما يدبر بعث بعلاء من قبله إلى بلاد  
 الاكسوسا لإثارة أزمة وحرب على الحدود . من المحتمل أن موشيش لم يتوقع  
 أن يؤدي المشروع إلى مثل هذا الدمار الذي لحق باقتصاد الاكسوسا ، ومن  
 الحقق أنه لم يستبق قدرة جراى على إدراك الموقف وتداركه .

وبالرغم من عدم وقوع البريطانيين في الفخ قرر موشيش في ١٨٥٨ أن  
 يسير قدماً بالهجوم على دولة أورنج الحرة . انهارت مقاومة البوير ولكن  
 جراى تدخل بين الجانبين واستطاع بوساطته إنقاذ الدولة الحرة وإعادة السلام .  
 وفي الوقت نفسه حاول تقديم المساعدة من أجل تنمية الجمهورية بأن أنشأ كلية  
 في بلومفونتين ، زودها بمكتبته الخاصة .

وبعد ذلك بتسع سنوات - ومن أجل الانتقام من موشيش والتعويض  
 عن الغارات التي يشنها الباسوتو - استولت الدولة الحرة على أخصب أراضي

الأخيرين . ومرة أخرى تدخلت بريطانيا . كان الحاكم الجديد الذى يفتقر إلى صبر جراى وفهمه للأمور ، مصمماً على أن يضع نهائياً حداً لسلسلة الحروب التى يشنها الوطنيون ، والقلاقل والاضطرابات التى يثيرونها ، فضم إلى التاج جميع أراضى البانتو التى لا يسيطر عليها الأوربيون وجعلها تحت حكم وزارة المستعمرات المباشر . وفى هذه المرة أحست دولة أورنج الحرة أنها حرمت من النصر الكامل ، واهتمت بريطانيا بمحابة الوطنيون وحمايتهم ، وتعهد إضعاف البوير ، والتآمر مع الباسوتو ضد الجمهوريات .

كان الاتصال قليلاً جداً بين جمهوريات ترنسفال الأربع والأحداث الممقدة الناشئة عن ثورات الباسوتو والاكوسا . وحتى بوتشيفستروم وهى أهم الجمهوريات الأربع ، ظلت بمنأى عن الاقتصاد الآخذ فى النمو وعن اتساع نطاق النفوذ البريطانى .

كان الذين هاجروا إلى ترنسفال مشغولين إلى حد كبير بتطهير الأرض — لا من الأشجار وإنما من البدو البنتويين .

وكانت بوتشيفستروم قد أنشأها فلاحون يكادون أن يفتقروا إلى الأفكار المتعلقة بالنظريات السياسية أو علم الحكم . كانوا يريدون فقط أن يحيا حياة ريعوية وأبوية وخالية من أداء الضرائب . ونادراً ما زار أحد منهم العاصمة الصغيرة فى قرية بوتشيفستروم إلا فى أسبوع عيد الميلاد . وكان التبادل يجرى بالسوق السنوية فى أثناء العشاء الربانى حيث تجرى الطقوس المسيحية للأهلين



(كالزواج والتعميد والقداس) . أما في بقية السنة ، فكان الآباء الروحيون يشرفون على اتباع تعاليم الدين في بيوتهم المتناثرة .

لم يصحب المهاجرين فريق منظم من المبشرين ورجال الدين ، وإنما كان هناك وعاظ متجولون تحولوا بالتدريج إلى هيئة صغيرة من التساوسة الحليين أصبح لها نفوذها . وكان كثيرون من رجال الإرساليات الدينية الأجانب يزاولون نشاطهم بين القبائل المجاورة من الماتاميلي والباسوتو والجريكا (اللونين) . ومن هؤلاء الأمريكي دانييل ليندلى الذى خدم عدة سنوات بوصفه رجل الدين المكرس ، جميع الجمهوريات الخمس في ترنسفال ودولة أورنج الحرة ، غير أن رجال الإرساليات الآخرين ظلوا يعيشون بمعزل عن مجتمعات البوير وينتقدونها نقداً مريراً .

كانت الهجرة والجمهوريات التى نشأت عنها ، تمثل إلى حد كبير فترة من القرن السابع عشر تتراجع بسرعة أمام القوى المركبة ، الصناعية والمستفيرة فى القرن التاسع عشر . وكانت تغييرات كثيرة قد طرأت على الحياة الثقافية ، والاقتصادية والسياسية فى أوروبا خلال الفترة الممتدة من ذينك القرنين ، ولكن لم يتسرب إلى هذه الأقاليم سوى القدر اليسير من هذا التغيير ، وما تسرب منه لم يكن ليتفق مع أفكار البوير . وكان فلاحو جنوب أفريقية يمثلون منذ البداية صورة مبكرة وريفية من البروتستانتية الهولندية ، وكانوا يعيشون فى عزلة عن المجرى الثقافى الرئيسى حتى قبل أن يهاجروا من الأراضى الواطئة . لقد أخذت أفكار جديدة تظهر فى أوروبا — وبخاصة حقاً فى بريطانيا والمناطق الحضرية بالأراضى الواطئة ، وهى أفكار عاش البوير بمعزل عنها ،

ولم يتأروا بها . ففكرة التسامح العنصرى والدينى ، فضلاً عن نمو النزعة العقلية فى القرن الثامن عشر كقوة توازن العقيدة الدينية — كل هذا لم يخلف إلا أثراً يسيراً . ولم يكن للقوانين الحديثة فى التجارة والملكية ، وازدياد انتشار الاقتصاد النقدى ، من أثر ملموس .

لم يكن البوير بطبيعتهم من ذوى النزعة المحافظة ، كما لم تكن المحرمات أو المشاعر السلبية قوية بحيث تشكل شخصية إيجابية للقوم . كانت دعامة المجتمع هى الأسرة بالدها ومزرعتها وإيمانها — القائمة على صلة النسب والأرض وديانة مخيفة نوعاً . وكانت الثقافة الشعبية — ممثلة فى الغناء والرقص ، والأسطورة والسلوك وتعاطى المشروبات الروحية — ثقافة حية وغير مقيدة . وفى هذه النواحي الدينية غالباً ما كان البوير على تناقض ظاهر مع المبشرين الذين كانوا يوجهون النقد إليهم أى البوير ، بسبب سلوكهم الاجتماعى الفاجر وعقيدتهم الدينية الجامدة بصورة متطرفة .

وعن طريق وقعه على رأى العام البريطانى كان للنقد الموجه من جانب رجال الإرساليات الدينية تأثير متزايد على موقف وزارة المستعمرات من الجمهوريات . كان رجال الإرساليات يهتمون الفلاحين بممارسة الأفكار والبعثات المسيحية ، وبالعدوان الجماعى على البانتو ، والعودة إلى شكل من أشكال الاتجار فى الرقيق . لكن البوير اعتقدوا أن البعثات حطمت ما قدره الله من انقسام البشر إلى فئات عليا ودنيا ، وبذلك كان تنصير الخدام اتجاهاً خاطئاً لأن البانتو — بوصفهم من الفئة الدنيا — كانوا بدأً يتعين تنظيمهم ، وتدريبهم على العمل ، ومعاملتهم كالأطفال وذلك من أجل جماعة المجتمع الأرقى

مهم . وعلى خلاف رجال الحدود في البلاد الأخرى واصل البوير ازدهارهم للتعليم، والتغافل عن التطورات الثقافية في العالم الخارجى، والمطالبة بقوات كبيرة من الخدم للعمل عندهم .

وفي ميدان الدين كان تعارض الآراء بين مختلف الجماعات البيضاء أوضح منه في أى مجال آخر . ففي عام ١٨٤٣، أى بعد الهجرة الكبرى بوقت قصير، تحلى البريطانيون عن الإشراف على الكنيسة المصلحة الهولندية، مما جعل كنيسة الرأس مجعماً مستقلاً يتمتع بالحكم الذاتى . وبدأ العداء للأفكار الجديدة ومؤثرات رجال الدين الأسكتلنديين يتضاءل إلى درجة ملحوظة في مستعمرة الرأس . وزادت أهمية اللغة الإنجليزية ونوع من اللاهوت أكثر اعتدالاً ثم برنامج للرساليات من حين لآخر، بل لقد ظن البعض أن التجانس بين المستوطنين البوير والبريطانيين أخذ في الظهور . غير أن اتجاه التنظيم الكنيسى في الجمهوريات كان ضد هذا .

وفي عام ١٨٦٠ تم توحيد دول الترنسفال الأربع لتكوين جمهورية جنوب أفريقية . ظلت البلاد فقيرة للغاية ومعزولة إلى حد كبير، وسيطرت المنازعات الدينية على حياة الترنسفاليين السياسية والاجتماعية، واشتد الجدل حول مسائل من قبيل ألوهية المسيح وشخصية الشيطان .

وفي عام ١٨٤٣ انقسمت الكنيسة المصلحة الهولندية إلى ثلاثة مجامع لكل منها استقلاله — وهى مجامع الترنسفال وبلاد نهر أورانج والرأس . وكان الأخير مستقلاً عن الحكومة الاستعمارية، ولكنه ظل موضع الشك في الجمهوريات لأنه قبل استخدام رجال الدين الإنجليز والأسكتلنديين .

انتقل بعض تأثير رجال الشيعة المنهجية إلى المجمعين الهولنديين في الجمهوريات حتى وإن كانا مستقلين عن مجمع الرأس وينظران إليه بعين الارتياب . هذه الجماع الثلاثة جميعا أطلقت على نفسها اسم

**Nederlands Gereformeerde Kerk ( NGK )**

وانشق الكثيرون ممن يشتركون في العشاء الرباني عن الجماع الثلاثة في عام ١٨٥٣ وكونوا ما يعرف باسم

**Nederlands Hevoormde Kerk ( NHK )**

وكانت وجهة نظرهم محافظة وتعارض مع التأثير الأسكتلندي ، وقاومت اللغة الإنجليزية والميول الإنجيلية أو المنهجية . كانت الهولندية اللغة الرسمية للكنيسة ، وأصبح هذا المجمع المقدس دين الدولة في الترنسفال .

ظل موقف المجمع الأخير « النهيك » NHK من التفرقة العنصرية وموقفه الغامض من فكرة القدر ، لا يلقىان الرضاء من جانب فريق له شأنه ، كون أفراده جماعة كلفنية ثالثة في عام ١٨٥٩ بقصد تأكيد التفرقة العنصرية وتفسير القدر تفسيراً جامداً ، وتفسير الإنجيل تفسيراً حرفياً . وعارضوا في استخدام الموسيقى في الكنيسة ، ورجال الدين الأسكتلنديين ، وبعثات التبشير ، واللغة الإنجليزية والفكرة التي تذهب إلى أن للباتو أرواحاً . كان مجمع النهيك NHK يعتبر زندقة ، سواء في هولندا أو في مستعمرة الرأس أو الجمهوريات . كان يستنكر نظريات جاليليو ، ويرى أن الأرض مسطحة وأن البوير هم شعب المسيح المختار ، وأن الباتو من نسل حام ولا يصلحون إلا للحمل الماء ، وصقل الخشب . كان المنشقون يشكلون جماعة صغيرة جداً ومنطوية على ذاتها ،

بما أخرجت عدداً غير عادي من القادة الذين كان لهم شأن في السنوات المائة الأخيرة .

وجعل « النهيك » والمنشقون من كنائسهم مراكر للوطنية الثقافية المسيحية الوبيلة ، ووضعوا التأكيد بوضع خاص على اللغة والقومية والطابع الذي يميز ثقافة البوير . وإذ صارت الغلبة لنفوذ المنشقين وزعامتهم أصبحت الحركتان ، وعن عمد ، أكثر عداء للأفكار التحررية . وإذ اعتقد أتباعهم أن القدر جعل منهم الشعب المختار والذي أنقذ من الخطيئة الأصلية ، أصبحوا ينظرون إلى تاريخهم وزمانهم في ضوء خاص بهما . لذلك كان حتماً أن يهاجوا شركة الهند الشرقية الهولندية السابقة ، والبريطانيين ، والبانو ، والأفكار الحديثة عن التسامح الاجتماعي أو المساواة — وبعبارة أخرى كل ما كان « ليبرالياً » في النواحي الاقتصادية أو السياسية أو الاجتماعية . وعلى نقيض هذا كانت الليبرالية نفسها هي أية حركة أو قوة تهدد تميز البوير — أي أية تهديدات لإلهمهم وكنيستهم وذاتية شعبهم .

ولما كان المنشقون يسيطرون على « النهيك » ، والأخير هو الدين الرسمي ، لهذا كان لهاتين الشيعتين تأثير مباشر على حكومة جنوب أفريقية . وليس هناك مثال على هذا الأمر أكبر من بول كروجر وهو مبشر من المنشقين ، دامت رئاسته أكثر من نصف مدة حياة الجمهورية .

وبالرغم من الجهود الكثيرة التي بذلها البريطانيون والبوير والبانو ، بقصد الوصول إلى شكل من أشكال الحل للمشكلات الملحة في الثقافة والأرض . والسياسة في جنوب إفريقية ، إلا أنه بحلول الستينات من القرن الماضي كانت الآثار المؤدية إلى الفرقة والهدم ، والمتولدة من التردد والعزلة ، قد أصبحت مزمنة .



الكتاب الثاني

أفريقيّة تصنع من جديد





## رسالة المحررة

ظلت المؤثرات الأوروبية على أفريقية سطحية نسبية حتى الثلث الأخير من القرن التاسع عشر . فإذا استثنينا جنوب أفريقية وعدداً قليلاً من المزارع البرتغالية المتناثرة ، فلم تبذل محاولة من أجل التوطن الدائم . لقد حل التجار الذين يزاولون التجارة المشروعة لحسابهم محل تجار الرقيق ، وأقامت الإرساليات المسيحية بضع محطات منعزلة . لكن التجارة والإرساليات لم تكن رسمية وغالباً ما كانت غير دائمة . وكان رأس المال الذي استثمر فيها قليلاً ، كما كادت دائماً أن تعتمد على التعاون أو التأييد من جانب الإفريقيين الذين أبدوا نحوها الرد .

ونادراً ما توغل الأوروبيون وراء الساحل ، بل إن مصلحتهم في الأراضي الساحلية اقتصرت على قبلة من المناطق التي تدرأ أكبر الربح . ولم تبذل محاولات حقيقية للتأثير في نظم الإفريقيين وثقافتهم أو السيطرة عليها أو حتى فهمها . وحينما كانت المستعمرات أو المصالح الأوروبية دائمة فقد كانت تعيش في عزلة عن الإفريقيين — حتى عندما توغل الأوروبيون لأول مرة في الداخل كما حدث في جنوب أفريقية . وكان الاستثناء البارز الوحيد محلات المستوطنين البرتغاليين ، غير أن هذه كانت تمتصها الحياة الأفريقية دائماً إلا إذا أصبحت منفصلة عنها من النواحي العنصرية والثقافية . وكانت البرتغال قد فرضت حكمها على مناطق معينة يقطنها البانتو ، ولكن البعض لم يبدوا في حكم الإفريقيين على نطاق

واسع أو بشكل فعال قبل القرن التاسع عشر ، إذ في هذا الوقت فقط خضع الزولو للبوير ، والاكوسا والباسوتو لبريطانيا ، والمسلمون السنغاليون للامبراطورية الفرنسية الثقافية . ولم تفكر بريطانيا في التخلي عن كل مسئولية اقتصادية وسياسية في كل من إفريقيا الغربية والجنوبية إلا في أواخر الستينات من القرن ، بالرغم مما ساور الذين يرسمون سياستها ، من أمل في الاحتفاظ بمزايا معينة . وكانت فرنسا والولايات المتحدة والأراضي الواطئة وإسكنديناوة قد فقدت ما كان لها قليلاً من مصلحة يسيرة ، وإذا استثنينا العرب فما من دولة أجنبية كانت تعرف شيئاً عن أفريقية الشرقية أو تهتم بها .

كانت المذاهب الليبرالية عن التجارة الحرة والاقتصاد المرسل *Laissezfaire* وتقييد سلطة الحكومة ، وعن المذاهب التي انتشرت على نطاق واسع في جميع أرجاء أوروبا في أوائل القرن التاسع عشر ، قد ثبتت العزم على تطبيق أى من الأفكار التي قد تؤدي إلى تورط حكومة ما في التوسع السياسي والتوسع في الإتفاق واتخاذ التدابير لأغراض السيطرة والتنمية الاقتصادية أو تحمل المسئولية العسكرية . إن استمرار مثل هذا الاتجاه منع ، مثلاً ، من اتخاذ قرار دائم بشأن السيطرة على ساحل الذهب أو الاضطلاع بمسئوليته ، وحال دون القيام بأى عمل حاسم إزاء البوير أو البانتو في جنوب إفريقيا . وساعد الاتجاه نفسه على منع أية دولة من الاهتمام الحقيقي بالداخل أو الساحل الشرقي ، ونهى عن قيام التعاون الدائم أو الواسع مع أى من الشعوب الإفريقية . غير أن الظروف أرغمت الأوروبيين أحياناً على الخروج عن مبادئهم في الحرية الاقتصادية وأبرز مظهر لذلك الموقف الجديد كان الجهود البذولة من أجل مقاومة البوير من اختلقت نظريتهم عن أنظمة أوروبا المتحررة في القرن التاسع عشر .

ومن الأمور الأساسية بالنسبة إلى الليبرالية ، الاعتقاد بأن العلاقات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية بين البشر تحكمها قوانين طبيعية لا حول عنها . وطالما تطبق هذه « القوانين » في داخل أوروبا ذاتها وبموافقة الناخبين الأوروبيين ذوى الفكر المتحرر ، فإن أية تناقضات لهذه القوانين الطبيعية أو أية قيود تفرض عليها ، يمكن نسيانها أو تفسيرها . وبالمثل طبقت مستويات الليبرالية على السياسة الأفريقية ، فيجب أن تقلل الحكومات الأوروبية من نفوذها بل وأن تسحبه . وكان من الواضح إلى حد كبير أنه ينبغي لها ألا تتدخل بالمثل في المجال الاقتصادي .

غير أن القانون الطبيعي كان قابلاً للتطبيق على جميع البشر بغض النظر عن جنسهم أو ثقافتهم أو موضع إقامتهم ، وكان أعظم الجدل بشأن هذه النقطة يدور حول مسألة الرق . فقال الأحرار إنه إذا كان من الخطأ استعباد الأوروبيين فإن من الخطأ بالمثل استعباد الأفريقيين ، وفي سبيل تطبيق هذا الحكم الأخلاقي المطلق كان لا بد من إلغاء الرق . ومعنى هذا بطبيعة الحال أن الرق كان شراً بغض النظر عن نمط الثقافة ، ولم يعد في الإمكان احتمال الاتجار في العبيد الآدميين أو استخدامهم حتى ولو كانت ثقافتهم تسمح بذلك . إن العلاقة بين الأخلاق وثقافة الفرد لا تقوم على مبدأ النسبية .

كان الهجوم على الرق أول موجات الهجوم الذى شنته الليبرالية . وبعد جدل استطال أمده أصبحت النسبية الثقافية موضع الاستنكار ، وألغى الرق في جميع المناطق الخاضعة لاختصاص البلاد المتحررة الفكر مثل إنجلترا وفرنسا وإسكنديناوة والأراضي الواطئة . وبقدر ما كان الرق خطأ مطلقاً ، فلم يكن

يكفى أن يحظره البلد الذى كان أهله يمارسون هذه التجارة ، إذ سرعان ما حققت البلاد الأقل تحمراً فى الفكر ، السيطرة على أسواق وموارد العبيد الإفريقية التى تركتها إنجلترا المتحررة ، وزاد عدد المنظمين الذين لا يعنون الضمير ، وتدهور شأن الوسطاء الأفريقيين الذين كانت قوتهم و ثروتهم تعتمدان على الاتجار بالرقيق أو سعوا وراء منافذ جديدة . كان الحل الوحيد يتمثل فى الضغط على القبائل والشعوب التى واصلت انتهاج هذا الأسلوب وحراسة الطرق البحرية التى يرتادها تجار الرقيق . غير أن مثل هذه الأعمال تتطلب استخدام الدبلوماسية الدولية فضلاً عن قوات عسكرية قوية وكثيرة التكاليف ، وهاتان الطريقتان تتعارضان مع المذاهب الليبرالية عن الحرية الاقتصادية وعدم تدخل الحكومة وخفض نفقاتها . وقعت معظم الحكومات المتحررة إما بالانسحاب فى هدوء وإما بالاقصاء على التنفيذ الرمزي ، ولكن بريطانيا أصرت فى حزم على عقد سلسلة من الاتفاقات الدولية لمنع الرق . وخلال القرن التاسع عشر وزعت وحدات بحرية بريطانية على الطرق التى يستخدمها تجار الرقيق وذلك من أجل تنفيذ القوانين التى سنتها بريطانيا والمعاهدات التى عقدها مع الدول الأجنبية .

كانت الاعتبارات الإنسانية تبرر استخدام الدبلوماسية والقوة البحرية: منع جميع الأوروبيين . وتمشياً مع المنطق كان نفس الالتزام الإنسانى الفزعة يشمل القبائل الأفريقية والدول التى تتاجر فى الرقيق ، والتي كان يؤتى بالعبيد منها منذ أمد طويل ، ولذلك فمن الضرورى القضاء على الرق فى صفوف الإفريقيين . أنفسهم وصياغة حياتهم واقتصادياتهم من جديد وفقاً للنموذج الليبرالى .

المهمة أصبحت الرسالة الليبرالية ولكن مضى نصف قرن قبل تحديد مسئولية الحكومة عن هذا الأمر . كذلك كانت هناك بعض الالتزامات الواضحة في معاهدات التجارة والحماية المعقودة مع التبادل الصديقة . في أول الأمر عهد بالمهمة في إفريقية الغربية ، إلى حد كبير ، إلى المنظمين ولكنهم سرعان ما أحدثوا الانزعاج بسبب ما كانوا يبدوونه من ميول إلى الاضطلاع بمسئوليات جديدة أو إلى التهاون في تنفيذ التزاماتهم . وفي جنوب إفريقية بدأ التدخل العسكري من وقت لآخر ضرورياً لمنع تدهور وتفرق مجتمعات البيض والباتو التي لا يمكن أن يتوافق بعضها مع بعض . لم يكن من اليسير سحب الحكم ، ولكن لم تنبذ النية تماماً على اتخاذ مثل هذه الخطوة إلا في نهاية الستينات من القرن .

وكان حتماً أن يبدى الليبراليون اهتمامهم بنجاح الجهود الإنسانية في إفريقية . بالنسبة إلى الجماهير الأوروبية لم تكن الرسالة الليبرالية والجهود الإنسانية النزعة فلسفية أصلاً . فلما امتزج هذا بالشاعر الدينية لدى الجماهير وبالرغبة الجماعية في العمل أكثر منها في وضع النظريات ، فرمما أصبح من المحتم أن تعمل الليبرالية على إحياء الحماس للرسائل المسيحية ، وبهذه الوسيلة يسعى الأفراد وجماعات المتطوعين بدلاً من الحكومة — إلى إعادة تشكيل الإفريقيين وتوجيههم نحو الأهداف المسيحية التحررية الشاملة . أما أن هناك تناقضاً بين الليبرالية الألمانية والديانة المسيحية ، أو بين مثل السياسة الحرة والحماس الشديد لإعادة تشكيل ثقافة إفريقية ، فأمر لم يلحظه سوى عدد غير مترابط من المراقبين والمثقفين .

وحتى قبل أن يكون لليبرالية المثالية الشعبية تأثير على إفريقية ، كانت

الفلسفة العقلية التي سادت في القرن الثامن عشر قد أشعلت شرارة اهتمام علمي واسع النطاق . فلأول مرة توغل المغامرون البيض على نطاق كبير في الداخل . غالباً ما كانوا من العلماء الذين يعوزهم التدريب ، ولكنهم جميعاً يشتركون في القدرة على الرواية السليمة ، وفي الإيمان بقيمة وأهمية مجرد الحصول على المعرفة عن الأماكن البعيدة ، وفي العزم على تسليط ضوء على الأساطير . والشائعات التي ظلت قروناً تشيع ما في الناس من غرزة حب الاستطلاع . فتوغل منجو برك ورنيه كاييه في أعالي النيجر في سنوات ١٧٩٥ — ١٨٠٦ ، ١٨٢٧ — ٢٩ على التوالي ، وسعى كلا برتون والأخوان لاندر وهنريخ بارت إلى اكتشاف النيجر الأدنى وبلاد الهوسا فيما بين عامي ١٨٢٥ ، ١٨٥٦ . وثمة اهتمام مماثل بجنوب أفريقية خلال الفترة ذاتها دفع بغيرهم إلى ارتياد المناطق الواقعة في غرب الترنسفال وشمالها . لا بد أن جزاءهم النقدي كان ضئيلاً ، بل إن الكثير من المصالح التجارية والسياسية كانت تقف موقف العداء من هؤلاء الساعين وراء العلم والدرس دون أن تحركهم أية مصلحة ذاتية . ولم تكن للجنسيات التي ينتمون إليها سوى أهمية يسيرة في ذلك الوقت — فالكثيرون منهم لم يعرفهم سوى علماء الجغرافيا — وفي نطاق تلك الدائرة المحدودة كان الاستحسان الذي قوبلوا به عالمياً في مداه . وبالرغم من أن هذه الكشوف كانت ثمرة الإيمان العلمي الجديد بالنظام العالمي الشامل والمعرفة ، كما كانت تؤمن الليبرالية ، إلا أن الحركتين نادراً ما تعاوتتا في الميدان الإفريقي .

وخلال النصف الأول من القرن التاسع عشر مالت الحركات التبشيرية إلى تركيز نشاطها على طول حدود مستعمرة الرأس ، أو على امتداد ساحلي الذهب

والعبيد حيث كان يبذل الجهد عن عمد لمقاومة ما كان لتاجر الرقيق من تأثير في الأيام السابقة . وفي جنوب أفريقية وبسبب كون السكان من البانتو أشد تفرقاً ، والأرض مكشوفة نسيجة ، والرغبة في مقاومة تأثير البوير ، كل هذا أدى إلى أن يتسع ميدان نشاط الإرساليات بصورة أسرع نحو الداخل عندما اقترب القرن من الانتصاف . هنا جاء العلم والدين والليبرالية المعادية للرق ، لأول مرة ، في شخص دافيد ليفنجستون ( ١٨١٣ - ١٨٧٣ ) .

بدأ الدكتور ليفنجستون حياته العملية في عام ١٨٤٠ طبيياً مبشراً عند الحد في جنوب إفريقية ، في إرساليات تعمل منذ وقت طويل في صفوف قبائل السوثو غربي دولة أورنج الحرة مباشرة . وبعد اختلافات متكررة مع البوير الذين كان يختلف عنهم - بوصفه عالماً ورجل كنيسة أسكتلندياً - راح ليفنجستون يكشف جغرافية الداخل وأهله .

وإذا كان يملك استعداداً خاصاً للملاحظات العلمية أسهم بدرجة لها شأنها في توفير المعرفة بتاريخ أفريقية الطبيعي وجغرافيتها ولغاتها . كانت التقارير التي وضعها عن الثقافة أو الشخصيات الإفريقية أقل جلاءً إلى حد ما ، ولكن كان يحركه شعور قوى من العدالة والحس ذى النزعة الإنسانية . وخلال الرحلات المتعاقبة التي قام بها بين عامي ١٨٤١ ، ١٨٥٣ توغل داخل حوض نهر زمبيزي . وحمل الناس على اعتناق المسيحية ، وعندما حل عام ١٨٥٦ كان قد عبر ذهاباً وإياباً ، الإقليم الواقع بين أنجولا وموزمبيق ، واكتشف شلالات فكتوريا . وبعد ذلك بثلاث سنوات أقام مركزاً كبيراً للتبشير على شواطئ بحيرة نياسا والتي لم يكن أحد يدعى امتلاكها . وأصبحت تقاريره العلمية والتبشيرية التي..

كتبها بأسلوب واضح، أوسع المطبوعات انتشاراً بين جمهور القرن التاسع عشر سواء في أوروبا أو الولايات المتحدة. وثار موجة من الحماس — وهو ما كان في ذلك القرن يميز ثقة الناس التي لاحد لها تقريباً في العلم والدين — وبلغت ذروتها في موجة من الغضب الشديد حين بعث ليفنجستون بالتقارير الأولى، الواضحة والمفصلة، عن تجارة الرق العربية، إذ أظهر أن تجار الزنج توغلوا بعيداً حتى وصلوا إلى حوض الكنفو، كما وصف نواحى من تجارة إفريقية الشرقية لم تكن معروفة حتى ذلك الحين.

ونجحت تقارير ليفنجستون في أن تتضمن نداءات علمية ودينية ورومانسية. سرعان ما عملت الصحافة التي تهتم بكل ما هو مثير، على ترويجهما ونشرها في مقالات سلسلة وفي تضيخهما، وظهر اهتمام جديد بكل من إفريقية الشرقية والوسطى، يختلف تماماً من نواح كثيرة عن الاهتمام السياسى أو الاقتصادى. وفي عام ١٨٦٥ أدى الضغط من جانب تجار الرقيق العرب إلى هجر إرسالية نياسا الأسكتلندية. وقام الدكتور ليفنجستون برحلته الثالثة — وكان غرضه في هذه المرة أن يجد منبع نهر الكنفو. كان اهتمام العالم بالرحلة أشبه بالحمى. وبالرغم من أن العدائين الباتو كانوا من وقت لآخر يأتون بالرسائل من القاعدة الأممية التي اتخذها لنفسه على الشاطئ الشرقى البحيرة تنجانيقا، كان الجمهور في أوروبا والولايات المتحدة يشعر بالقلق وفقدان الصبر عندما دخلت الحملة في سنتها الخامسة خلال عام ١٨٧٠. وقرر جيمس جوردون بنيت Bennett ناشر صحيفة نيويورك هيرالد الإثارية، أن يبعث بمخبر ليجمع الأنباء في جميع أرجاء شرقى البحر المتوسط والهند ومنطقة الاهتمام الجديدة في شرق إفريقية — بما في ذلك مقابلة رجل الأرسالية الشهير.





وقع اختيار بيئت للمهمة على جون رولاندز ، وهو رجل من أهل ويلز سبق أن هاجر إلى نيو أورليانز واتخذ لنفسه اسم الرجل الذي تبناه وهو هنري مورتون ستانلي . وإذا كان ستانلي لا يخشى أبداً أن يهاجم الشخصيات ، أو يؤذي للمشاعر ، أو يضيئ خياله على القصة البسيطة ، لهذا سرعان ما برز في عالم الصحافة الزاهر بنيويورك في الفترة التي أعقبت الحرب الأهلية . وكانت ضروب نشاطه موضع التمويل الجيد ، واشتهرت بما تنطوى عليه أحياناً من روح الضجر وكان يقوم بها في العادة بأسلوب درامي مثير . كان يعتمد أن يجعل التقارير التي يبعث بها من إفريقية ، بحيث تتفق مع الصورة الشعبية عن القارة «المظلمة» المتوحشة والتي تكن فيها إمكانيات الثراء . وبعد أن أقام عدة أشهر في الشرقين الأدنى والأوسط ، قام في عام ١٨٧١ بتنفيذ الجزء الأفريقي من المهمة التي أسندت إليه . كان بالكاد قد تجاوز الثلاثين من عمره حين وصل إلى زنجبار . هذا الميناء سبق أن استخدمته حملات كثيرة ، وفيه قامت مكاتب القنصلية البريطانية ، وذلك بوصفه قاعدة خلال الجليل السابق سار منها برتون وسبيك إلى بحيرة تنجانيقا في ١٨٥٤-٥٥ ، وسبيك وحده إلى بحيرة فكتوريا وبحارى النيل العليا في ١٨٥٨ ، وسبيك وجرانت متقبعين النيل إلى مصر في ١٨٦٠ - ٦٣ . هذه المناطق الداخلية جميعاً كان قد تم الآن ارتيادها ووصفها كلها — باستثناء منطقة النيل . وكانت تصل إليها أيضاً طرق تجارة الرقيق العربية والمتفرعة من زنجبار كلها . وأنفق ستانلي على الحالين وإعدادهم أكثر مما أنفق جميع الذين تقدموه مجتمعين . وإذا سار في الطريق الذي اتخذه سبيك إلى أوجيجي ، حيث كان المعروف أن الدكتور ليفنجستون يقيم فيها ، اعتمد ستانلي على المرشدين ورجال القوافل العرب . لاعجب أن نجد رجل الإرسالية

العالم قد انعقد لسانه عندما استقبل هذا الخليط الذي لم يسبق له مثيل ؛ ولم ينطق بكلمة إلى أن قال ستانلي « أظن أنك الدكتور ليفنجستون ؟ » .

وبعد ذلك بعامين ، في ١٨٧٧ ، جاء حاملو الدكتور ليفنجستون بأول نبأ عن موته ، ثم ببحثه وأوراقه بعد ذلك . لقد ترك إفريقية وأقاليمها الواقعة في وسط القارة لم تعد مجهولة أو منسية، وخلق جواً جديداً بين أهل أوروبا سوف يثير منافسة سياسية واقتصادية جادة ومحاولات قوية للتبشير ، وكانت النتيجة سباقاً قومياً عنيفاً بين الدول الكبرى لاقتطاع مساحات شاسعة من الأقاليم الداخلية . لقد أخذت الرسالة الليبرالية تتحول إلى منافسة استعمارية .





دار الجليل للطباعة ٤٤ قصر النولقة - النجالة  
تليفون ٩٠٥٢٩٦



الموزعون الوحيدون  
خارج الجمهورية العربية المتحدة  
دار المعارف لبنان

الثمن  
١٢٥ ق.ل.

٢ ريال سعودي	=	١٢٥ ق.ل.
٢١٢ر٥ فرنك في الجز	=	١٦٢ر٥ ق.س.
٢١٢ر٥ فرنك في القف	=	١٥٦ر٥ فلس في العراق والأردن
٢٢٥مليم في السودان	=	١٥٦ر٥ فلس في الكويت